المكتبة العربية

طه حسين

وقضية الشعر

تأليف

د. عبده بدوى
محمد عبد الغنى حسن
د. محمد عبد المنعم خفاجى
د. ابراهيم عبد الرحمن محمد
عامر محمد بحيرى
د. مختار الوكيل

الهيئة المصرية العامة للكتاب

طه حسين

وقضية الشعر

بحوث ودراسات

باشراف: صالح جودت

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

يصدرها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

بالاشتراك مع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

طه حسين
وقضية الشعر

تأليف

د. عبده بدوى — محمد عبد الغنى حسن

د. محمد عبد المنعم خفاجى — د. ابراهيم عبد الرحمن محمد

عامر محمد بحيرى — د. مختار الوكيل

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم: محمد مصطفى الماحى

لما نزل بالأدب العربي الخطب الفادح بفقد عميده « الدكتور طه حسين » فى الثامن والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٩٧٣ اهتزت المنابر أسفاً عليه ، وتجاوبت الأصداء فى الأقطار العربية بالحسرة على حرمان الأدب العربي من معلم عالم ، وأديب كامل ، ولغوى عامل ، وناقد حصيف ، ومترجم بارع ، وأستاذ جليل ، خرج على يديه أجيال من مثقفى العرب ، وفصحاء الكتاب ، ونوابغ الأدباء .

وفى الحق أن « طه حسين » كان فى مصر وفى البلاد الناطقة بالضاد ظاهرة فذة ، ، بل معجزة فى مختلف الميادين التى خاضها بطاقته الكبرى، تلك الطاقة التى أبلغته — فى مثل ظروفه الخاصة — من علو المكانة ورفعة الشأن ما يعسر أن يبلغه أديب غيره ، ولو كان مكتمل القدرات والطاقات .

ولد « طه حسين » فى الرابع عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٨٩ من أسرة رقيقة الحال ، وجوته عند ولادته دار ريفية متواضعة ، فى قرية الكيلو من أعمال مغاغة بمحافظة المنيا فى صعيد مصر ، وكانت موارد والده ضئيلة ينفقها على أسرته التى كان بينها ثلاثة عشر طفلا كان سابعهم طه حسين ...

وشاء القدر أن يحرم نعمة البصر قبل بلوغه السادسة من عمره ، فألحق بكتاب القرية ، وحفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة ، وكانت الأسرة تهيئه ليتم تعلمه فى الأزهر الشريف ، وقد سبقه إليه أخ أكبر منه ، فلما بلغ الثالثة عشرة انتقل مع أخيه إلى القاهرة ، وكان قائده ورائده وراعيه ، ليحقق ما أمله أهله فيه .

وإذا كان « طه حسين » سجل فى كتابه الأيام — وهو أشهر مؤلفاته — ما لقيه فى طفولته وفى صباه من ألوان العذاب النفسى ، وما عاناه من مظاهر الحرمان ، فإن هذه الصورة تكتمل بما وصف به حاله عند ما انتقل مع أخيه الى القاهرة أول مرة ، وكيف خرج من قريته على ظهر حمارة الى القطار ليركبه فى الدرجة الثالثة ، ولما وصل اليها ركب مع أخيه عربة نقل (كارو) مع ما عبر عنه « بعفشهما » ليصلا إلى الحجرة التى كان يعيش فيها أخوه فى وكالة بحى الجمالية ، وفى مكان يعرف « بحوش « عطيّ » ، وأجرة الغرفة عشرة قروش فى الشهر ، ارتفعت بعد ذلك إلى خمسة وعشرين قرشاً ، وقد أقام فيها معهما قريب لهما ، وكان السقاء يملأ الماء لهم كل يوم ، كما كان بالغرفة كانون .. ثم يضيف إلى ذلك أنه كان ينفق اليوم والأسبوع والشهر لا يأكل إلا لوناً واحداً هو العسل الأسود ، يأخذ منه حظه فى الصباح ، ويأخذ منه حظه فى المساء ، مع خبز الأزهر الذى كان يجرى عليه وعلى أضرابه من الطلاب .. ولكنه مع ذلك كله كان مثالا للدأب والمثابرة ، لا يرى فى حلقة الدرس إلا مصغياً إلى الشيخ ، يلتهم كلامه التهاماً ، لا متبرماً ولا متألماً ، ولا مظهراً ميلا إلى لهو أو عبث .

هذه هى بداية حياة « طه حسين » ذلك الناشىء الصغير الفقير الضرير ، الذى انصرف إلى التعلم واكتساب المعرفة ، مستعيناً بالصبر والكفاح ، تمده حدة الذهن ، وقوة الملاحظة ، وفرط الذكاء ، مع حافظة قوية واعية ، وقدرة فائقة على الاستيعاب والتحصيل ، وتصحب هذا كله رغبة قوية فى النجاح ، وطموح فى الآمال إلى ما لا تحده غاية ، أو يكون وراءه مطلب

لطالب ، حتى نال أقصى ما يمكن أن يصل اليه المرء فى تحصيل الثقافة والأدب ، وما يمكن أن يتطلع اليه متطلع من سمو المناصب .

وكان اهتمامه موجهاً فى الأعوام القليلة التى قضاها فى الأزهر الى دراسة الأدب ، وأعانه على ذلك اتصاله بالأديب المعروف الشيخ حسين المرصفى صاحب كتاب الوسيلة الأدبية — وكان مكفوفاً — وانتهز طه حسين فرصة إنشاء الجامعة المصرية الأهلية عام ١٩٠٨ فتحول اليها ، وتلقى العلم بها على أساتذتها المصريين والأجانب ، وبدأ فى الوقت نفسه فى تعلم اللغة الفرنسية ، وحصل من هذه الجامعة على إجازة الدكتوراه عام ١٩١٤ عن رسالته « ذكرى أبى العلاء » وكان أول ثمرة نضجت فيها ، وأول مصرى ينال هذه الدرجة منها ، وسافر فى العام نفسه فى بعثة إلى فرنسا ،

على أن العسرة قد لازمته طوال مراحل دراسته ، فعندما تقرر سفره إلى فرنسا لاستكمال هذه الدراسة طلب من الجامعة أن تقرضه خمسة عشر جنيها ، يشترى ببعضها ملابس يستعد بها للسفر ، ويسدد بباقيها أجرة الحجرة التى كان يسكنها مع أقربائه ....

وكان من فضل الله عليه أن وفق فى عام ١٩١٧ — وهى السنة التى حصل فيها على درجة الليسانس فى الآداب من جامعة السربون — الى اختيار شريكة حياته « سوزان » فكانت الزوجة المثالية التى أحاطته بالحب والعطف وصدق المعاونة والحنان ، بل كانت كما كتب هو لابنته بعد ذلك بسنوات مَلَكاً حنا عليه ، فبدله من البؤس نعيما ، ومن اليأس أملا ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفوا . وكان لهذا الملك الكريم الفضل فى إتقانه اللغة الفرنسية ، فاستطاع أن يحصل على درجة الدكتوراه بعد أن قدم « دراسة تحليلية ونقدية لفلسفة ابن خلدون » وقد ترجمت بعد ذلك إلى العربية . كما كان لهذه الزوجة الفاضلة ، والأستاذ فى الوقت نفسه فضل إتقانه اللغتين اليونانية واللاتينية ، وكان عظيم الإعجاب بهما ، بل كان يعدهما مفتاح التعليم العالى الصحيح .

وعاد طه حسين من فرنسا عام ١٩١٩ ليقوم بالتدريس فى الجامعة المصرية بعد أن ضمت إلى الحكومة ، فعهد إليه بتدريس التاريخ القديم « اليونانى

والرومانى » فى كليه الآداب ، ثم عين أستاذاً لتاريخ الأدب العربى بهذه الكلية فوضع أسس البحث العلمى فى الدراسات الأدبية ، وخطا بهذا المنهج خطوات أوسع وأبرع وأدق ممن سبقه من المستشرقين فى هذا المجال ، إذ أحكم الاتصال بين الثقافتين العربية والغربية ، وبين التراث العربى والأدب المعاصر ، كما كان عظيم الاهتمام بتطوير حياة المجتمع المصرى العقلية والاجتماعية والسياسية ، على أساس من الإيمان العميق بالديمقراطية ، وبأن الأمة لا تنهض أو تستعيد مجدها إلا إذا تمتعت بالحرية التامة ، وبخاصة فى ميادين الأدب والعلم والفن والتفكير ، ففتح بذلك أبواب الثقافة والمعرفة لطلابها ، وشجعهم على التمسك بهذه الحرية ، مهما تعرضوا للمتاعب أو لقوا من الصعاب .

ولقد تعددت مواهب طه حسين وقدراته ، كما تعددت اهتماماته بفنون الأدب العربى ، فبدأ حياته الأدبية فى مفتتح شبابه شاعراً شديد الشغف بنظم الشعر فى مختلف الأغراض والمقـــاصد ، فنظم فى السياسة والغزل والاجتماع والرثاء ، وغير ذلك من فنون القول ، ولما كان ميالا بطبعه وغرائزه إلى سماع الغناء شديد التأثر به ، فقد جاء شعره غنائياً حقاً ، ولهذا كلف بالأوزان التى يظهر فيها جمال الموسيقى فى أروع الصور ، كما نظم قصائد منوعة القوافى ومن ذلك قصائده « آه لو عدل » و « ليت للحب قضاة » ورجاء الدستور التى طالب بها الخديو بالدستور ..

وظل طه حسين متعلقاً بالشعر بضع سنين ، ثم أدرك بذكائه أن الشعر لا يحقق ما يطمح إليه من آمال كبار ، لأنه وُجد فى زمن بلغت فيه نهضة الشعر العربى مستوى عالياً ، إذ ظهر فيه شيخ الشعراء « إسماعيل صبرى » وأميرهم « أحمد شوقى » وشاعرالنيل « حافظ إبراهيم » وشاعر الأقطار العربية « خليل مطران » وغير هؤلاء من مقلدى الشعراء ، فانصرف إلى النثر ، وعالج فى أول الأمر النثر الفنى فى بضع مقالات ، ولكنه أدرك بفطنته أيضاً أن النثر الفنى لا يتسع لآفاقه التى يريد أن يعبر فيها بتفكيره الحر عما يدور بخلده من الأفكار والآراء والمبادىء ، فاستوى له أسلوبه المتميز الذى يجمع بين فصاحة البيان العربى ، وحلاوته ، وعذوبته ، تلك المحاسن التى نضجت

فيه بحكم حفظه للقرآن الكريم ، ووعيه للحديث الشريف ، وللتراث العربى من جهة ، وما اكتسبه فى دراساته الأجنبية من الميل إلى السهولة فى التعبير ، والتيسير فى إيصال المعانى إلى القلوب والوجدان من جهة أخرى ، برغم ما وجه إلى أسلوبه من نقد لمبالغته فى التبسط ولجوئه أحياناً إلى تكرار الجمل والعبارات ... كما كان من اهتماماته كتابة التاريخ فى نسق يشبه فنّ الرواية ، والعناية بالتعبير عن آرائه فى أحوال بلاده التى لا ترضيه ، وعن آماله فى إصلاح هذه الأحوال ، فى قصص ينقد به الأوضاع التى لا يرى فيها إلا تخلفاً ، وشيناً يجب القضاء عليه .

وهو فى كتابته هذه القصص وتلك الروايات يخرجها بأدبه الباهر فى فصاحة بيانه وقوة أسره . على أنه لم يشتهر فى ميادين الأدب بأنه مؤرخ أو قصاص أو روائى ، بل اشتهر بخدمة الأدب وما يتصل به ، وبتفوقه فى أساليب النقد ومناهجه .

ولقد أجاد « طه حسين » استخدام ما وهبه الله من الذكاء والفطنة وقوة الحافظة ، وما خُص به من عذوبة الصوت وحسن الإلقاء ، والقدرة على الارتجال فكان محاضراً عظيما ، ومحدثاً لبقاً ، يجتذب الاسماع برقة ألفاظه ، وعذوبة بيانه ، وحسن تصرفه فى فنون القول ، وليس أدل على قوة حافظته من أنه فى إحدى محاضراته عن الشاعر « أبى تمام » طلب إلى مستمعيه أن ينصتوا إلى قصيدته البائية التى مدح بها الخليفة المعتصم عند فتح « عمورية » ثم ألقاها من حافظته — وهى واحد وسبعون بيتاً — إلقاء كان مثار الدهشة والإعجاب .

وسار طه حسين فى تدريسه الأدب العربى فى الجامعة على النهج الذى اختطه لنفسه ناجحاً ، وموفقاً أعظم التوفيق ولم يصطدم إلا بالموقف الذى تعرض له عقب نشره كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، الذى أثار ضجة عالية ولكنها لم يكن لها أثر فى تسنمه القمة فى دراساته الأدبية ، وقد أعاد نشر الكتاب بعنوان « فى الأدب الجاهلى » بعد أن استبعد منه ما أثار تلك الضجة الشديدة وعاد هو أستاذا فى كلية الآداب فعميدا لها ، وكان أول عميد مصرى يتولى هذا المنصب .

وفى سنة ١٩٤٠ اختير مراقباً عاماً للثقافة العامة بوزارة المعارف، ثم مستشاراً لهذه الوزارة، وفى سنة ١٩٤٢ عين مديراً لجامعة الاسكندرية التى أشرف على إنشائها، وبعد ذلك تولى منصب وزير المعارف سنة ١٩٥٠.

وكان اتجاهه فى جميع المراحل التى مر بها، وفى المناصب التى تقلدها أن يؤدى لوطنه أجل الخدمات بنشر العلم ومحاربة الجهل، وبالدعوة إلى محو أسباب البؤس والشقاء التى تعانيها الغالبية العظمى وبخاصة فى الأقاليم الريفية، مما بسط صوره القاتمة فى كثير من كتاباته ومؤلفاته وفى مقدمتها كتاباه « المعذبون فى الأرض » و « شجرة البؤس ».

على أن اهتمامه حين ولى منصب وزير المعارف كان موجهاً إلى تحقيق آماله فى محاربة الجهل متخذاً فى ذلك شعاره أن التعليم ضرورى للناس ضرورة الماء والهواء، وحقق هذا الشعار بتقرير مجانية التعليم، ففتح بذلك أبواب التعلم لجميع الطوائف والطبقات، وفى جميع المراحل والمستويات، وشجع الفتيات وهو عميد كلية الآداب على الالتحاق بها، رغم ماتعرض له من نقد، وكان شديد الإعجاب بأول ثمرات هذه الخطوة الجريئة، فباهى بفتاتين كانتا أول من اقتحم الجامعة وتخرجتا فى كلية الآداب، وقال فى حديث له عنهما: أنه لو لم يكن لكلية الآداب فضل إلا أنها كونت هاتين الآنستين لكفاه ذلك من كلية الآداب.

وأدرك طه حسين أن من أهم المشاكل التى تعترض من يتعلمون اللغة العربية مشكلة النحو، فكان هذا باباً من أبواب الإصلاح التى اهتم بها، وحفزه إلى ذلك مقارنته بين وسائل وأساليب تدريس اللغة الفرنسية وبين ما كان متبعاً فى تدريس اللغة العربية، فدعا إلى تيسير تعلم النحو، وكان أحد أعضاء اللجنة التى ألفت لاقتراح قواعد جديدة له لا تمس أصول اللغة، ثم تعثرت هذه الاقتراحات إلى أن أحيلت إلى مجمع اللغة العربية، وكان قد أصبح عضواً فيه. فدافع عنها وظل يتابع هذا الأمر حتى وُضع تيسير النحو موضع التنفيذ، وألفت فيه كتب عديدة كانت أساساً لتعلمه ميسراً فى مصر، وفى غيرها من الأقطار التى تتكلم العربية.

ولقد خاض طه حسين معارك أدبية عنيفة مع جمهرة من أدباء عصره ، تناولهم فيها بلذعات من السخرية ، كما نقد بعض شعراء عصره ، ومن بينهم « أحمد شوقى » وتناول بالنقد غيره من شباب الشعراء وقتئذ ، وكان نقده فى بعض الأحيان قاسيا وعنيفاً ، كما فعل مع الشعراء : الدكتور إبراهيم ناجى وإيليا أبو ماضى ومحمود أبو الوفا . على أن هذا النقد ، وإن جاوز أحياناً الحد ، فإنه أثرى الدراسات الأدبية بما فتحه من أبواب فسيحة لمناهج النقد ومذاهبه ، بصرف النظر عن موضوع النقد نفسه ، واختلاف الآراء فى وزنه وتقديره .

وعلى الجملة فقد كان امتيازه بدقة التصوير ، وبراعة التعبير سبباً فى تعلق الأدباء والمتأدبين بما يكتبه مهما تنوعت صوره ، واختلفت سبله ، وتعددت أساليبه ومقاصده .

ولن ينسى دور طه حسين فى الصحافة فقد اشتغل بها — وبخاصة فى الفترات التى خلت فيها المناصب منه — سواء أكان ذلك فى المجال الأدبى أم فى الحياة السياسية التى خاضها فى الغالب دفاعاً عن الديمقراطية والحرية وفى الدعوة إلى الإصلاح ، ودعم القومية العربية ، ومحاربة الفساد والرجعية ، ومن أبرز أعماله فى ميدان الصحافة إنشاؤه وهو عميد كلية الآداب أول معهد للصحافة ، وما أعظم آثار هذا المعهد فى إخراج صحفيين يجمعون إلى موهبة الصحافة إجادة التطبيقات العملية فيها مما يصل بهم إلى قمة النجاح . كما لا ينسى له أنه أول من أنشأ وهو وزير المعارف المعهد الثقافى المصرى فى مدريد عاصمة أسبانيا .

ولعل من خير ما خدم به طه حسين شباب العرب ، فى مجال الثقافة والأدب ، وفى سبيل تحبيبهم فى القراءة وتوسيع مدارك القارئين بالاطلاع على كتب ميسرة نافعة أصيلة فى اللغة العربية أو مترجمة إليها ، أن كان من أوائل الرواد الداعين والعاملين على إصدار سلسلة كتاب « اقرأ » التى تصدرها دار المعارف كل شهر بانتظام منذ عام ١٩٤٣ ، وكان أول كتاب ظهر فى هذه السلسلة كتاب « أحلام شهرزاد » بقلم طه حسين ، وقد قال فى مقدمته

« هذه السلسلة جهد من الجهود التى تبذل فى سبيل نشر الثقافة وترفيه الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات ... باعتبار القراءة هى الطريق الطبيعية الميسرة لرقى العقل والطبع والخلق والذوق» .

ولقد اشتهر هذا الكتاب شهرة عظيمة ، وكان مصدر إلهام لكثير من الأدباء وطبع عدة مرات ، كما شارك طه حسين فى هذه السلسلة بأعداد منها .

وكان من أثر ذلك كله أن قدره وطنه خير تقدير ، فقد حصل سنة ١٩٤٥ على جائزة الدولة عن كتابه « على هامش السيرة » وعلى جائزة الآداب سنة ١٩٤٩ وعلى جائزة الدولة التقديرية عن الآداب عام ١٩٥٨ فى أول عام منحت الدولة فيه هذه الجائزة ، فكان أول مصرى يحصل عليها ، واتصل خلال جهاده الأدبى بالهيئات العلمية والأدبية فعين فى عام ١٩٥٠ عضواً بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عند إنشائه ، كما كان رئيساً لنادى القصة ولجمعية الأدباء ، ونادى القلم الدولى بالقاهرة ، وعضواً مراسلا لعدة مجامع وهيئات عالمية بالخارج ، وفى عام ١٩٦٣ انتخب رئيساً لمجمع اللغة العربية .

ومما هو جدير بالذكر أن العالم الغربى قدر له جهاده وسبقه فى خدمة المجتمع الإنسانى عامة وخدمة الأدب العربى خاصة ، وسعيه المتواصل فى تحقيق المبادىء الإنسانية ، وإثرائه العلم والمعرفة بمؤلفاته العديدة ، فوجهت اليه الدعوات من عدة جامعات لتمنحه الدكتوراه الفخرية ، ومنها جامعات ليون ، ومونبلييه ، وأثينا ، وأكسفورد ، ومدريد ، وغرناطة ، وروما ، وبالرمو . فاحتفت به حفاوة بالغة ، وصرح وهو يرد على الإشادة بفضله بوصفه أستاذاً عالمياً ، وجامعياً مفكراً بأن هذا التقدير إنما هو موجه فى شخصه إلى وطنه مصر . واذا نم هذا التعبير الجميل عن شىء فإنما ينم عن تواضعه لله الذى رفع قدره ، وعن وفائه للوطن الذى أعلى ذكره .

ولقد كان تواضع الدكتور طه حسين من أبرز سماته إلى جانب هدوئه النفسى ، ورضائه بقدر الله ، وكان هذا التواضع ماثلا فى رقته ، وفى تبسطه

مع جلسائه ، ومحدثيه ، وفى معاملته لطلبته ، ولأهل بيته ومن يضمهم من تبع وأشياع .

وأشهد أنى رأيت له موقفاً يؤكد هذا المعنى الرائع ، ذلك أن أخاه الشيخ « أحمد حسين » الذى أشرت إليه من قبل كان زميلا لى فى العمل بوزارة الأوقاف ، وكان يشغل منصب الإفتاء بها إلى جانب إدارة القسم الشرعى ، وانعقدت بينى وبينه أواصر الصداقة الوثيقة عشرات من السنين ، ولما ولى أخوه « طه حسين » منصب وزير المعارف رغبت إلى هذا الصديق أن أصحبه فى إحدى زياراته لأخيه فى ديوان المعارف ، فلما بلغنا باب مكتبه ، وعلم بقدوم أخيه عليه ، هب واقفاً ، وأقبل مسرعاً للقائه ، فلما تصافحا أكب على يده يغمرها بقبلات تنبىء بالإعزاز والإكبار ، وكأنه يقبل يد أبيه البار ، وكان مكتبه حينذاك يغص بكبار الموظفين والزوار ، ثم دعانا إلى الجلوس ، وجلس هو فى مقعد إلى جوار أخيه ، وجلسنا معه فترة من الوقت فى حديث ممتع إلى أن شيعنا إلى باب غرفته ، وسط إعجاب الجميع وإشادتهم بخلقه ونبله ، وعدت متأثراً بما شهدته من وفائه وجميل تقديره لأخيه الذى رعاه أيام طلبه العلم . وكان رد زيارتى له أن أهدى إلىّ مجموعة من مؤلفاته بإهداء رقيق مختوم بخاتمه . ولقد كان طه حسين إلى جانب تواضعه كريماً غاية الكرم ، وكان كرمه أغزر وأجمل مع المحجوبين .

وآخر ما وجه إلى طه حسين من تكريم أن أهدته الأمم المتحدة جائزة حقوق الإنسان ، وهى المخصصة لأبرز شخصيات عالمية تمتاز بإنجازات بارزة فى ميدان الحقوق الإنسانية ، وقد أعلن منحه هذه الجائزة يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وهو اليوم السابق ليوم وفاته . وكان مقرراً أن يتسلمها فى حفل عام يقام لهذا الغرض ولكن القدر كان أسبق إليه بعد أن عانى من مرضه الذى لازمه نحو عشر سنوات ، وعاش ممعوداً ضعيف البنية حتى تعرض للإغماء أحايين كثيرة بسبب الإرهاق فى العمل ، ولم يكن يخفف من متاعبه الصحية إلا سفره فى صيف كل عام إلى بعض المناطق الجبلية فى أوروبا للاستشفاء والاستجمام ، على أنه لم يكن ليفرغ للراحة ، بل كان

يشغل نفسه دائماً بالإملاء لتأليف كتاب أو ترجمة آخر ليرضى منازعه الأدبية من جهة ، وليستعين بموارده من هذا الطريق بما يعينه على رحلة مقبلة من جهة أخرى .

وحين وافاه القضاء امتلأت الصحف العربية والأجنبية بالحديث عنه وعن مواهبه والإشادة بجهاده وجهوده ، وتسابقت الأندية الأدبية فى تمجيد ذكراه والثناء عليه ، وألفت الكتب التى تناولت جوانب فضله ومظاهر تميزه ، ولا غرابة فى هذا فإن أدب طه حسين كان من أشد العوامل تأثيراً وأكبرها نجاحاً فى وحدة الفكر العربى .

ولما حل موعد الذكرى الأولى لوفاته اتجه التفكير الى اقامة حفل كبير لتكريم ذكراه ، وتولت وزارة الثقافة تنفيذ هذه الفكرة بالاشتراك مع مجمع اللغة العربية ، وجامعة القاهرة ، وجمعية الأدباء ، وعُيِّن لذلك أمسيات الثلاثة الأيام الأخيرة من شهر فبراير سنة ١٩٧٥ ، وقد روعى أن هذا الوقت هو الذى يجتمع فيه مؤتمر مجمع اللغة العربية الذى ظل يرأسه فترة طويلة ، ولم يكن يتأخر عن شهوده حتى وهو فى أشد حالات مرضه .

واختير لإقامة هذا الحفل الكبير قاعة جامعة الدول العربية ، وبدأ فى مساء يوم الأربعاء ٢٦ من فبراير فألقيت فيه رسالة كريمة وجهها السيد محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية تحية لذكراه العطرة ، ثم ألقيت كلمات من وزراء الثقافة والأوقاف والتربية والتعليم بمصر والعراق ، وكلمات من جامعة الدول العربية ، ومن رئيس مجمع اللغة العربية ، والمجلس الأعلى للفنون والآداب ، وجامعة القاهرة وممثل لمجلس الشعب ، وأسهم كذلك فى إلقاء الكلمات والقصائد طائفة من كبار الأدباء والمثقفين والشعراء من مصر والبلاد العربية والأوروبية ، كما اشترك ممثلون من اتحادات الكتاب والهيئات الأدبية والصحافة فى العالم العربى ، وقد بلغ عدد من تحدث فى ذكرى عميد الأدب فى الليالى الثلاث ستة وثلاثين من المفكرين والأدباء والشعراء .

ورغبة فى تكريمه بتخليد ذكراه حولت الدولة داره « رامتان » إلى متحف بوصفه علماً من أعظم أعلام عصره . وبعد

فهذه كلمات موجزة عن حياة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين دعانى إلى تسجيلها أن لجنة الشعر المنبثقة من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية والتى أشرف بانضمامى عضواً فيها . . تعلم أن من أعظم اهتمامات العميد الراحل ما كان يتابعه من دراسات ومحاضرات وبحوث وافية ضافية فى قضية الشعر العربى ، فقد بدأ حياته كما قدمنا بقوله الشعر واشتغاله به من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٤ . وكانت أولى قصائده المنشورة فى رثاء حسن عبد الرازق (باشا) ونشرت فى « الجريدة » بعدد أول يناير سنة ١٩٠٨ وبين يدى الآن عشرات من قصائده التى صاغها فى مختلف الأغراض ، وكان ينشرها فى جريدة « مصر الفتاة » ، « والجريدة » وغيرهما ، ثم انصرف عن الشعر بعد ذلك ، وتخصص فى دراساته النثرية ، وفى إلقاء محاضراته الأدبية ، وتأليف مصنفاته فى مختلف فنون الأدب ، وفى مقدمتها الشعر العربى وما يتصل به ، وبالشعراء العرب قديمهم وحديثهم ، حتى ليصدق عليه القول بأنه وهب نفسه للأدب ، إذ بلغ عدد مؤلفاته نحو ستين بعضها مترجمات .

على أن العميد الراحل مع انصرافه عن قرض الشعر انصرافاً تاماً ، كان يحن إليه فى بعض الأحيان ، ولا يستطيع مغالبة هذا الحنين ، ومن ذلك موقفه مع الشاعر الراحل « على الجندى » الذى كان فى أواخر عهده عميداً لكلية دار العلوم ، وكان قد شكر الدكتور طه حسين على جميل أسداه إليه وهو العمل على إعفاء أبنائه من المصروفات المدرسية فى وقت لم تكن المجانية قد تقررت بعد ، تقديراً لأدبه وخدماته للعلم ، فشكره الجندى بأبيات قال فيها :

من لى بمثل بيان طه مبدع السحر الحلال
حتى أقوم بشكر ما أوليت يا فخر الرجال
حققت آمالا ظننت بلوغهن من المحال
فلك الثناء ولا برحت بجيلنا أبهى مثال

فحن الدكتور طه حسين إلى ما كان يعالجه فى شبابه من الشعر ، وأبى إلا أن يكتب إلى الشاعر على الجندى رداً على تحيته بهذين البيتين :

من لى بقلب مثل قلبك أو بفن مثل فنك
حتى أقوم بشكر ما أوليتنى من حسن ظنك

وفى الحق أن الدكتور طه حسين كان يملك من القدرة على تمييز الأساليب الأدبية وإجادة تذوقها ، ما وضعه فى أعلى مراتب الإرهاف الحسى ، إلى جانب ما امتاز به من الثقافة الأدبية المنوعة فى اللغتين العربية والفرنسية ، وما نقل إليهما من آداب الأمم الأخرى ، وما اكتسبه من الثقافة اليونانية واللاتينية .

ولهذا كله رأت لجنة الشعر أن تضع كتاباً يتضمن دراسات عن اهتمامات طه حسين الأديب العبقرى التى تتصل بالشعر العربى ، وجعلت عنوانه « طه حسين وقضية الشعر » وعهدت إلى طائفة من الأدباء فى وضع هذه الدراسات على الصورة التى يراها القارىء فى هذا الكتاب .

كذلك عهدت إلى كاتب هذه السطور فى تنسيق هذا الكتاب وإعداده للنشر ، وفى وضع مقدمة له .

وإن لجنة الشعر ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب تمجيداً لذكرى عميد الأدب العربى ، وتسجيلا لمآثره الكبرى ، واهتماماته المنوعة فى مختلف أبواب الأدب وفنونه وبخاصة الشعر ، وهى ترجو بهذا الجهد المتواضع أن تكون قد وفته بعض حقه ، وعملت على إظهار بعض جوانب فضله ...

والله ولى التوفيق .

قضية الشكل والمضمون فى الشعر
وموقف الدكتور طه حسين منها

د. عبده بدوى

طه حسين والأدب العربى :

يحسن بنا ابتداء أن نتعرف على موقف الدكتور طه حسين من الأدب العربى ، وعلى مدى معرفته به ، وتذوقه له ، ثم بعد ذلك على تأثره بمفاهيمه وقضاياه وكل ما أثير عنه ، لأن هذا يعتبر مدخلا ضرورياً للقضية التى سنتعرض لها وهى قضية « الشكل والمضمون » ... وعلى كل فالدكتور طه حسين مأخوذ بهذه القوة الذاتية التى جعلت الأدب العربى يتطور هذا التطور السريع ، فنحن ما نكاد نصل الى منتصف القرن الثانى الهجرى حتى نجد أن هذه اللغة لا يستطيع الإبداع بها الشعراء العرب فقط ، ولكن يشاركهم فى ذلك — باقتدار — الشعراء الذين أصبحوا مسلمين ، ثم ان اللغة أخذت تلين ، وتسهل ، وتغزر ، وتفتح الذراعين لآداب الهند ، ولفلاسفة اليونان ولثقافة الفرس « كل هذا فى زمن قليل لا يكاد يصدق أنه يكفى لتنتقل هذه الثقافات إلى لغة واحدة متجانسة فى التفكير ، لها حضارة واحدة لا يظهر فيها اختلاف ، لا أريد أيضاً أن أبحث عن الأسباب فربما كانت معجزة ، وحياة الإسلام سلسلة معجزات ، بدئت بالمعجزة الكبرى وهى القرآن » (١) ... ثم انه يؤكد تلك المقولة التى تذهب إلى أنه لم يثبت الأدب العربى فى البلاد التى دخلها أدب أجنبى ، وحتى البلاد التى لم يستطع العرب محو لغتها كفارس لم يستطع الأدب الفارسى فيها الثبات أمام الأدب العربى ، فقد كان الشعر

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٣٢١ .

الذي ينشد في بلاد الفرس في القرن : الأول والثاني والثالث الهجري هو الشعر العربي ، ثم يجب ألا ننسى أن « العلم » طوال هذه القرون كان عربياً ، وأن الفلسفة كانت عربية ، وأنه كان قد أصبح من المفروغ منه أن الذي يريد أن يكون مثقفاً كان لابد له من العربية .

. ومع أنه ذكر أن الشعر العربي غنائي خالص ، وأن الشعر لا يقاس بأنه اشتمل على هذا النوع أو لم يشتمل(١) إلا أنه بعد فترة رد بعنف على الذين ثرثروا بأن الشعر العربي فقير كل الفقر لخلوه من الشعر القصصي والتمثيلي ، بل يذهب إلى أن من يقول هذا لا يفهم الأدب العربي ، ذلك لأن في الشعر الجاهلي — أو ما صح منه — وفي الشعر الأموي — وبخاصة شعر جرير والفرزدق والأخطل — توجد مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصي كفناء شخصية الشاعر ، وكتعبير هذا الشعر عن الجماعة «... فإذا لم توجد عندنا « الياذة » أو «أوديسا » فليس من شك أن ما أدته الالياذة والأوديسا قد أداه لنا الشعر القديم من تصوير الحياة الاجتماعية ، وتصوير حياة الأبطال ، ثم من الذي يستطيع أن ينكر أن في أدبنا العربي القصصي جمالا ليس أقل من جمال الالياذة والاوديسا ؟ » ثم يقول : « وليس ذنب الأدب العربي ألا يقرأه الناس ولا يعرفوه (٢) » .

وهو في هذه القضية لا يقف عند حدود الأدب الفصيح ، وإنما يوسع الساحة بالاعتراف بالأدب الشعبي ، وبخاصة قصص أبي زيد ، وعنترة ، ثم نراه يقدم الأدلة التطبيقية على الوحدة المعنوية في القصيدة كما فعل مع « لبيد »(٣) ثم إنه طلب — وبحسم — أن يكون أدبنا القديم أساساً من أسس الثقافة الحديثة لأنه صالح ليكون أساساً من أسسها

« .. ونحب أن يظل أدبنا القديم غذاء لعقول الشباب لأن فيه كنوزاً قيمة تصلح غذاء لعقول الشباب ، والذين يظنون أن الحضارة الحديثة قد

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص ١٢ .
(٢) نفسه ص ١٦ .
(٣) حديث الأربعاء ٢٨/١١ وما بعدها .

حملت إلى عقولنا خيراً خالصاً يخطئون (١) » ، وهو يقول لصاحبه « إن ما يصرفك عن الشعر القديم يغريني به، وما يزهدك فيه يدفعني إليه، فأنت تكره هذه الألفاظ التي تكلفك البحث في المعاجم ، وأنا أحب هذه الألفاظ لأنها تكلفني البحث في المعاجم ، وأنت تكره هذه الشروح التي تختلط فيها الروايات ، ويكثر فيها الاستطراد ، وتنبث فيها مسائل النحو ، وأنا أحب هذه الشروح لنفس هذه العلل..وأنا أبيح لك كل شيء إلا أن تزعم أن أدبنا القديم قد مات لأنه قديم ، فأنت إن زعمت ذلك ، تزعمه عن جهل، لأنك لم تسع في حديقتنا وإنما صدك عنها مظهرها المهمل المضطرب الذي اشتد فيه الاختلاط »(٢) .. بل إنه يصل إلى القول : بأن الشعر هو المنشىء الأول للقومية العربية قديما وحديثا (٣) .

●

وحماسة الدكتور طه حسين لا تقف عند الشعر ،وإنما تتعداه إلى النثر ، ومن هنا كان نعيه على الذين يقولون بفقر الأدب من النثر ، بدعوى أن النثر الفني الرائع هو الذي نجده عند الفرنسيين والإنجليز، فالذي يقول بهذا لا يوصف إلا بأنه لم يقرأ الأدب العربي، ذلك لأن الأدب العربي — شعرا ونثرا وعلما وفلسفة — لا يقل عن الآداب القديمة ، هو من غير شك متقدم على اللاتيني ، والفارسي ، وإذا لم يكن بد من أن يكون له مناظر، فان هذا المناظر لن يكون إلا الأدب اليوناني .. « إن الأدب العربي هو الأدب الذي عاشت عليه كل الأمة العربية ، وهو الأدب الذي حمل لواء العلم والعقل طوال القرون الوسطى ، بينما كان الأدب اليوناني منحازاً في القسطنطينية ، وبينما كانت أوربا منهمكة في جهالتها ، ويكفي أن نلاحظ أن النهضة الأولى التي ظهرت في القرن الثاني عشر في أوربة ، إنما هي نتيجة لاتصال أوربة بالعرب، فأدبنا هو الذي أحيا العقل الأوربي حتى جاءت النهضة الثانية التي اتصل فيها الأدب الأوربي بالأدب اليوناني القديم ، ولو لم يكن للأدب العربي

(١) ؛ (٢) حديث الأربعاء ١١٢٧/١ ط الحلبي ١٩٣٧ .

(٣) مجلة المجلة العدد ١٣ . يناير ١٩٥٨ (مقال الأدب والقومية العربية) .

إلا أنه قد حمل لواء الأدب الإنساني والعقل الإنساني في عشرة قرون لكان هذا كافيا للاعتراف بأن هذا الأدب من الآداب التي تعتز بنفسها ، وتستطيع أن تثبت لظروف الزمان » (١) .

.. ثم إن هذا « الأدب العربي المسكين » قد أسس مجداً مؤثلا لأوربا ، ويكفي أن تذكر هذه الجهود الشاقة التي يبذلها المستشرقون في دراسته ، ولعله من الطبيعي انهم لا يقومون بهذه الجهود الشاقة إلا لأنه أدب جدير بالدراسة ، فإذا كانت أوربا تفخر بالمستشرقين فهي مدينة في هذا للأدب العربي ، فلولا سيبويه ، والجاحظ ، والمعري ، وغيرهم ، لما وجد عندهم أمثال « رينان » ، « كازانوفا » و « ماسينيون » .

.. ثم نراه بعد ذلك يضع الأدب العربي في المكان الذي يليق به ، فهو لا يذهب – كالجاحظ – إلى القول بأنه أول الآداب وأرقاها ، ولا يذهب – كبعض الأوربيين – إلى القول بأنه شيء لا قيمة له ، وفي ضوء هذا لا يكون الأدب العربي أرقى الآداب ، ولا يكون أضعف الآداب ، وليس وسطا بين هذا وذاك ، بل هو من أرقى الآداب ، فاذا ذكر الأدب القديم كان الأدب اليوناني في المقدمة ثم يليه الأدب العربي .. أما الأدب العربي الحديث فقد كان من المؤمنين بأنه بمرور الزمن سيثبت للآداب الأجنبية كما ثبت الأدب القديم .. ثم إن الأدب العربي أدب موصول – ليس كالأدب اليوناني مثلا – فهو قديم وحديث في آن واحد ، وهذا ما يعطيه أملا في التقدم ، ومن الجدير بالذكر أنه حين سئل عن أي الميادين التي خاضها قربا من نفسه قال : دراسة الأدب العربي القديم (٢) .

●

والذي لا شك فيه أن الدكتور طه حسين قد أحاط بالأدب العربي إحاطة كاملة ، وأنه أحب تلك المعاناة التي جعلته يحيط به ، ولقد كان هذا الأدب يفرض نفسه على ما يكتب شكلا ومضمونا ، ثم إن هناك إجماعاً على

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص ١٩ .

(٢) عشرة أدباء يتحدثون . فؤاد دوارة ص ١٩ .

قوة ذاكرته ، وعلى قدرته المذهلة على الاستيعاب ، ثم إننا نرى أن الأدب العربي – وبخاصة القديم منه – مما يرضى الدكتور طه حسين نفسيا ، فهو أساساً يعتمد على الذاكرة السمعية ، وعلى طريقة الإلقاء ، بحيث يلذ الأذن أساسا ، وبخاصة حين يوازن ، ويناغم ، ويطابق ، ويقسم ، ويرادف ، ويرصع ، ويسجع ، ويجانس ، ويكرر ، ويؤكد ، ويقصر الجمل ، فهذا الأدب صوت قبل أن يكون حرفا ، وتقاليد السماع بحكم قدمها أدخل فى الحياة من الكتابة ، وأوغل فى سلوك الفرد والمجتمع ، ثم إن وجود النبر والتنغيم فيها يجعلها أقدر فى الكشف عن ظلال المعنى ودقائقه (١) ولقد كان مما يدعوه إلى هذا عمله فى الجامعة ، ذلك لأن التعليم يركز على التبسيط ، والإطناب والتكرار (٢) هذا بالإضافة إلى أنه صاحب « الأمالى » الحديثة ! ثم إنه يدعو إلى تقويم اللسان بالحفظ فيقول : إن الذين يحفظون القرآن فى الصبا ، ويكثرون قراءته ، ويجودونها أصح الناس نطقا بالعربية ، وأقلهم تخليطا ، ومن أجل ذلك كانت الأجيال السابقة إلى عهد قريب تأخذ الصبية حين يتعلمون الكتابة والقراءة بحفظ القرآن كله أو بعضه، وتجويد قراءته ، ويرون فى ذلك محافظة على الدين ، وتقويما لألسنة الصبية والشباب ، وكان الذين يحفظون القرآن أو شيئا منه أجود نطقا بالعربية حين يتكلمون . وأجدر أن يفقهوا دقائق اللغة حين يتعلمونها ، وقد أهمل حفظ القرآن ،. وتمرين الصبية على قراءته وتجويده فى المدارس الحديثة حينا فالتوت ألسنة الشباب ، وفسد نطقهم ، وضاقوا بدروس اللغة فى مدارسهم ، ثم أعرضوا عنها بعد الخروج من المدارس ، ثم مال كثير منهم إلى العامية فآثروها على الفصحى وحاولوا أن يجعلوها لغة الكتابة فلم تستقم لهم(٣) وهذا كله يذكرنا بتعليق ابن قتيبة على الحديث « من يحسن أن يتكلم العربية فلا يتكلم بالعجمة فإنها تورث النفاق » فقد قال : إن تعليم اللغة العربية من الدين، ومعرفتها

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها . د. تمام حسان ٤٧٢٤٦ .

(٢) قبض الريح للمازنى ٣٩ .

(٣) عن طه حسين بين انصاره وخصومه جمال الدين الألوسى ٢٩٩ وما بعدها ط بغداد .

فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ، ولقد تأثر أسلوب الدكتور طه حسين بأسلوب القرآن فى أوجه الجمال فيه ، وبخاصة من موسيقاه النابعة من تناسق الألفاظ والعبارات ، ومن هذا التكرار الذى لا يمل ، ومن هذا الشمول فى التحليل مع الاهتمام التام بالتفاصيل « كل هذا بغير انحراف عن الغاية الأساسية وبغير تشويه الجمال ، أو تعريض المعنى للضياع أو عدم الوضوح (١) ... المهم أنه محتفظ بتقاليد الكلمة العربية ، ومعتز بها .

(١) طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه . الأب كمال قلته ص ٣٩ .

مفهوم القضية :

والآن ما مفهوم قضية الشكل والمضمون ؟ .

ابتداء لقد تعددت المصطلحات حول هذه القضية ، وهى بصفة عامة لا تتنافر وإنما تتقارب ، فهم يقولون : اللفظ والمعنى ، والشكل والمادة ، والشكل والمعنى ، والشكل والموضوع ، والشكل والمحتوى ، والإطار والمضمون ، والشكل الداخلى والشكل الخارجى ، والصورة والمعنى ، والصورة والفكرة ، والألفاظ والأشياء ، والمبنى والمعنى .. وهناك من يرى أن الشكل قد يقصد به المضمون ، ومن يرى أن المحتوى يضم عناصر الشكل أو عناصر من الشكل ، وكل هذا يسلم إلى النظرة التى تسود الآن ، والتى تمزج بين الشكل والمضمون بحيث يصبح العمل الأدبى مركبا لا مجرد عنصرين يتوازنان أو يتقاربان أو يتباعدان .

وعلى كل فالقضية لها اتصال بمشكلة « نظرية المعرفة » وهى التى تدور حول الصلة بين الذات والموضوع ، فهل الموضوع من نتاج الذات أو عال على الذات ، وعلى هذا الأساس قام المذهبان الرئيسيان فى الفلسفة ، والمتمثلان فى مذهبي المثالية والواقعية ، ثم جاءت بعد ذلك فلسفة الظاهريات على أساس فكرة الإحالة المتبادلة ، وخلاصتها أن هناك دائما إحالة متبادلة بين الذات والموضوع ، فلا وجود للذات إلا من حيث كونها محيلة إلى الموضوع والعكس (١) .

على أنها أساسا تلك القضية القديمة التى عرفت فى التراث العربى باسم قضية « اللفظ والمعنى » ، فإذا أردنا وقفة عند كل منهما وجدنا أن كلمة المعنى فى الكتابات العربية تستعمل عدة استعمالات هى على وجه التقريب :

---

(١) الموت والعبقرية . د. عبد الرحمن بدوى ص ٢٠ ط ٢ .

١ – الغرض الذى يقصد إليه المتكلم .

٢ – الفكرة النثرية العامة المتخلفة فى شرح القصيدة أو نثرها.

٣ – الأفكار الفلسفية والخلقية خاصة .

٤ – التصورات الغريبة والأشياء النادرة .

على حين تستعمل كلمة اللفظ على وجه الخصوص فى دلالتين اثنتين : أولاهما ما يسمى التكوين الموسيقى وإيقاع العبارات ، وثانيتهما الصور الدقيقة للمعنى وما تنطوى عليه من تفصيلات تهمل غالبا فى التعبير النثرى المقابل(١) ويخيل إلى أنه مما أكد القضية بهذا النوع من الفصل الحاسم أحيانا بين الشكل والمضمون كان انشغال الذهن العربى بقضية الجسد والروح ، والإيمان ببقاء الروح بعد الانفصال عن الجسد، فالروح لا تتأثر بالجسد كوظيفة العضو بالعضو إذا ما أصاب العضو بعض التلف ، ذلك لأن للوظيفة وجودا مستقلا ، وفى ضوء هذا يكون للروح وجود مستقل .

.. صحيح أن قضية « اللفظ والمعنى » قد أصبحت جانبا من جوانب علم الجمال ، وأن الأقلام شرعت حولها فى حماسة فائقة، ولكن هذه القضية لم تتحدد إلا من خلال ما دار حولها من الكدح العقلى المتواصل ، فلقد كانت هناك دائما محاولة لمعرفة السر الذى يربط بين اللفظ والمعنى ، فأرسطو وقف عند «النظام » فى الجملة ، وعند توازى الأجزاء وتنغمها ، وإذا كان قد ذهب إلى أن الألفاظ تتفاوت جمالا وقبحا من حيث الدلالة على المعنى، ورأى أنه يجب اختيارها بحيث تلائم تماما مواقعها فى الجمل وفى الصيغ المجازية وفى الوصول إلى المعنى المراد.. فإنه لم يقف طويلا ليفصل أحدهما عن الآخر (٢) .

ولقد كانت هناك مدرسة الاسكندريين بالإضافة إلى هوراس وشيشرون، وهؤلاء كانوا يرون الشعر « عالما من اللفظ » وكان يختلط الشعر عندهم

---

(١) نظرية المعنى فى النقد العربى . د. مصطفى ناصف ٣٨ .

(٢) النقد الأدبى . د. محمد غنيمى هلال ٢٥٢ وما بعدها ط ٤ .

بالخطابة ، وكانوا يفصلون بين الشكل والمضمون تحت اصطلاحى « الألفاظ والأشياء (١) » ..

وفى ضوء هذا كله سار النقد العربى ، بل لقد وقف فأطال الوقوف عند هذه القضية ذلك لأنها فى أصولها الأولى كانت مشتبكة مع الإعجاز القرآنى، ولهذا قال عبد القادر الجرجانى حين تعرض لقضية اللفظ والمعنى والذين يرون فضل اللفظ على المعنى « .. واعلم أنهم لم يبلغوا فى إنكار هذا المذهب ما بلغوه إلا لأن الخطأ فيه عظيم ، وأنه يفضى بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ، ويبطل التحدى من حيث لا يشعر ، وذلك أنه إن كان العمل على ما يذهبون إليه من أنه لا يجب فضل ومزية إلا من جانب المعنى، وحتى يكون قد قال حكمة أو أدبا ، واستخرج معنى غريبا أو تشبيها نادراً ، فقد وجب اطراح جميع ما قاله الناس فى الفصاحة والبلاغة ، وفى شأن النظم والتأليف ، وبطل أن يكون للنظم فضل وأن تدخله المزية، وأن تتفاوت فيه المنازل، وإذا كان ذلك كذلك فقد بطل أن يكون فى الكلام معجز » (٢) ، ثم إن دراسة العربية أساسا قامت لتفادى « ذيوع اللحن » وخطره على القرآن ، ولقد كانت هذه الدراسات تتجه إلى المبنى فى الأصل والمعنى فى الفرع ، وحين قامت مدرسة « علم المعانى » فى مرحلة متأخرة كان غرضها تناول المبنى المستعمل على مستوى الجملة لا على مستوى الجزء التحليلى كما فى الصرف ، أو مستوى الباب المفرد كما فى النحو (٣) ، وإذا أردنا أن نعرف رأى الدكتور طه حسين فى تلك القضية بالذات ، وجدناه يقف – فيما يقف – على تلك القاعدة البلاغية التى ركز عليها التراث النقدى العربى وهى : مطابقة الكلام لمقتضى الحال (٤) ، ووجدنا اللفظ عنده ليس اللفظ المعجمى ، وإنما المنتقى والمفيد فى تركيب ، وأن المعنى هو ما يفهم من هذه التراكيب .

---

(١) فن الشعر . د. احسان عباس ٩ .

(٢) دلائل الاعجاز ١٩٨ : ١٩٩ .

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها ١٢ .

(٤) عن طه حسين بين أنصاره وخصومه ٣٠٣ .

مدارس حول القضية :

اشتجرت الآراء حول هذه القضية ، فقد كان هناك من التزم قضية اللفظ — وهم كثر — وهناك من التزم قضية المعنى ، وهناك من قام بالتسوية بينهما على النحو الآتى : —

(١) كان هناك من قدم اللفظ على المعنى ، وفى مقدمة هؤلاء يجىء الجاحظ الذى ذهب إلى أن المعانى مطروحة فى الطريق ، وأن هذه المعانى يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى « .. وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعر صياغة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير (١) » وقد ضرب على نفس الوتر أبو هلال العسكرى حين أكد أنه ليس يطلب من المعنى ما يطلب من اللفظ (٢) ونجد مثل هذا عند قدامة بن جعفر الذى يرى أنه لا ينبغى أن يحكم على الشعر بمعناه وإنما بصورته ، ضارباً المثل بالنجار الذى لا يعاب برداءة الخشب وإنما برداءة الصنعة (٣) ، ثم إن ابن خلدون سار بالقضية إلى آخر مدى لها حين أكد تبعية المعنى للفظ (٤) وعلى هذا الدرب سار ابن رشيق فى العمدة حين ذهب إلى أن أكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ، أما ابن الأثير فيذكر أن الفصاحة لوكانت ترجع إلى المعنى لكانت (المزنة ، والديمة ، والبعاق) فى الدلالة على المعنى سواء (٥) ، بالإضافة إلى ابن سنان الخفاجى

(١) الحيوان ٢/١٣١ ، ١٣٢ .
(٢) الصناعتين ٤٢ .
(٣) نقد الشعر ١٠١ .
(٤) المقدمة ٥٠٨ (المطبعة البهية) .
(٥) المثل السائر ١/٤١ .

فى سر الفصاحة ، وإلى أبى أحمد الحسن العسكرى فى المصون .. وبعبارة موجزة نرى اهتمام البلاغيين بتحسين اللفظ ، وجودة السبك ، فهذا المجال فى نظرهم هو مجال الإبداع الحقيقى ثم إن « الإبداع » — وهو الخاص باللفظ — يبدو مستطاعا عن المقصود « بالاختراع » ، — وهو الخاص بالمعنى — ثم إن المعانى قد استغرقها الناس وأتوا عليها « وما أشبه موقف هؤلاء النقاد من التراث العربى القديم بموقف الكلاسيكيين فى الأدب الغربى من التراث اليونانى والرومانى(١) » .

وقد كان من الطبيعى أن يركز أنصار اللفظ على السرقات الشعرية ، وأن يجعلوها مبحثا من مباحثهم البيانية الهامة ، ذلك لأن تركيزهم كان على « الصياغة » بل يمكن القول بأن البلاغة فى شكلها العام قد مالت نحو الشكل ، مع فصل اللفظ عن المعنى وعدم التركيز على الصلة العضوية بينهما ، والآمدى يسمى أصحاب هذا النهج : أهل العلم بالشعر ، ويرى أن طريقتهم هى طريقة العرب ، والمرزوقى يسير — بعموده — فى هذا الاتجاه .. ولا يزال لهذا الاتجاه أنصار ظاهرون حتى الآن ، فتحت تأثير « البنائية » يعلو صوت جهير فى فرنسا بأن الشعر هو التفحص اللغوى ، وهناك من يقول : الفن لغة وأسلوب ، ومن يقول : الفن عمل وصياغة لأن الإنسان لايبتكر إلا حين يعمل (٢) ومن يقول : إن الشكل الذى لا خطر له لا مجال فيه ، وأن الأثر كلما زخر بالأسلوب زخر بالمعنى ، ومن يقول : إن الشعر لاينسج بـ « الأفكار » ولكن من « الكلمات » لأنه يفترض أن القصيدة توجد من العلاقات بين الكلمات كأصوات فقط (٣) وسنعرف أن أحمد حسن الزيات يقنن لهذا الاتجاه بكتابه « دفاع عن البلاغة » .

---

(١) النقد الأدبى ٢٦٤ .

(٢) فلسفة الفن فى الفكر المعاصر . د. زكريا ابراهيم ١٣٥ .

(٣) عن الشعر والتجربة . ترجمة سلمي الخضراء الجيوسى ص ٢٣ .

(ب) وهناك من وقف إلى جانب المعنى مثل أبى عمرو الشيبانى ، وهو الذى عناه الجاحظ بقوله : ذهب الشيخ إلى استحسان المعنى ، والمعانى مطروحة فى الطريق (١) — وموقفه يطابق الذين قالوا : إنه لا حسن ولا قبح فى اللغة ، وإن كل كلمة مشحونة بالمعنى ، ومن الطبيعى أن هذا قاد من زمن بعيد إلى القول بأن من فضائل الشاعر أن شعره لو ترجم إلى لغة أخرى لم يفقد قيمته (٢) ، وليس معنى هذا إهدار اللغة ، ولكن معناه أن اللفظ فى درجة دون المعنى ، فهو كما قالوا : ثوب الحسناء ، وقد ذهب إلى هذا يحيى بن حمزة العلوى حين أكد رأيه بالقول بان هناك معانى — كالإنسان — مفهومها لا يتغير ، أما الألفاظ . فتختلف دلالاتها فى اللغات(٣) ، ثم إن هناك المعنى الواحد الذى له ألفاظ متعددة ، ثم إنه لو أن المعانى تتبع الألفاظ للزم فى كل معنى أن يكون له لفظ يدل عليه ، وهذا لا يتحقق لأن المعانى لا نهاية لها ، والألفاظ متناهية . . ويعتبر الممثل الحقيقى لهذا الاتجاه فى الشعر « امرؤ القيس » ، فقد كان « مقلا كثير المعانى والتصرف(٤) »

(حـ) وقد كان هناك من ساوى بين اللفظ والمعنى كبشر بن المعتمر فى رسالته ، فالمطلوب عنده أن يكون اللفظ رشيقا عذبا ، وفخماً سهلا ، وفى الوقت نفسه يكون المعنى ظاهراً مكشوفاً ، وقريبا معروفا ... الخ (٥) .

ونجد أن ابن قتيبة يذكر أن خير الشعر ما حسن لفظه ، وجاد معناه ، ويسير ابن طباطبا فى هذا الاتجاه حين يؤكد اعتدال الوزن ، وصواب المعنى ، وحسن الألفاظ(٦) وفى هذا الاتجاه سار الدكتور طه حسين كما سنرى .

---

(١) الحيوان ١٣١/٢ ، ١٣٢ .

(٢) الموازنة للآمدى ص ٣٩١ .

(٣) الطراز ١٥٠/٢ — ١٥٢ .

(٤) العمدة ٦٧/١ .

(٥) البيان والتبيين ١٣٤/١ ، ١٣٥ .

(٦) الشعر والشعراء ٣ — ٤ .

.. المهم أن كثيراً من هذه الآراء قد أسلمت نفسها إلى عبقرية عبد القاهر ليقول فيها كلمته، ومن هنا نراه يقف إلى جانب الصياغة، أو ماسمي بنظرية « النظم » بعد أن أبطل حجة القائلين بان الوقوف إلى جانب المعنى يمس قضية الإعجاز القرآني، ففي الوقوف عند الألفاظ كذلك شبهة علم التمييز بين القرآن وغيره، ومن هنا لم ير فصل اللفظ عن المعنى، ثم إنك إذا رتبت معانيك فى الذهن كان اللفظ « بازائك، وتحت ناظريك » فقفزته شبيهة بقفزة ابن جنى الذى ذهب إلى أن الألفاظ وضعت مطابقة بصوتها المعانى .. « وفى ضوء هذا يكون إعجاز القرآن ليس فى اللفظ منفرداً لأنها معروفة عند العرب، ومن هنا يكون لا بد من « الصياغة »، وإزاء هذا لا يكون الإعجاز عنده فى اللفظ وحده، ولا فى المعنى وحده، وإنما يكون فى « الاتساق العجيب بينهما » ..

ومن الملاحظ أن هذه النظرية ستؤدى إلى الذى وصل إليه النقد الحديث أخيرا، ذلك لأن القول « بالاتساق العجيب » سيقرر وحدة العملية الفكرية والشعورية، وإن كان هذا لا ينفي أن المعنى إذا كان أولا فى النفس، فان اللفظ الدال عليه يجب أن يكون أولا فى المنطق، ومن ثم كانت نظرية النظم عنده مقصوداً بها « صياغة الجمل، ودلالتها على الصورة، وهذه الصياغة هى محور القضية والمزية فى الكلام، ومن هنا يظهر أن النظم — وهو مدار الحسن عند عبد القاهر — متميز عن المعنى فى ذاته مجردا، أوعن اللفظ فى ذاته متفردا، لأنه صياغة الكلام فى جمل متآزرة على جلاء الصور المرادة »(١)

---

(١) عيار الشعر ١٥ .

(٢) النقد الأدبى ٢٧٧ : ٢٧٨ .

الاهتمام بالشكل :

ظلت هذه القضية تشغل الناس فى كل العصور ، إلا أنهم فى العصور المعتمة نسوا القمة التى قفز إليها عبد القاهر ، فقد كان وقوفهم يكاد يكون مقصورا على اللفظ ، إلا أن العصر الحديث بدأ يغير من هذه النظرة شيئا فشيئا ، ومايهمنا من هذا كله هو موقف الدكتور طه حسين من هذه القضية ، وإسهامه فى جلائها ، فنحن نعرف من كتاباته الأولى — ومن كتاب الأيام خاصة — أنه وقف طويلا عند حدود الشكل ، ونعرف أن ثقافته بدأت بحفظ القرآن الكريم ، وخطب الإمام على ، وبعض الشعر والمعلقات ، ثم إنه حين دخل الأزهر وجد التركيز كله على الشكل فى كل ما يدرس ، وقد بدأ هو يتحرك من داخل هذه النظرة الشكلية ، فنراه يحاور استاذه الضرير فى معنى « تصفر » وفى عودة الضمير فى « فارقتها » فى البيت الذى يقول :

فأبت إلى فهم وما كنت آئباً وكم مثلها فارقتها وهو تصفر

ولقد شك كل الشك فى قراءة أستاذه لبيت من أبيات أبى فراس يقول

بدوت وأهلى حاضرون لأننى أرى أن دارا «الستّ» من أهلها قفر

ثم كان اهتداؤه إلى الشيخ سيد المرصفى الذى كان يقرأ الحماسة لأبى تمام ، والمفصل للزمخشرى ، والكامل للمبرد ، والأمالى لأبى على القالى ، ولقد كان هذا الاهتداء فتحاً عقليا له ، ذلك لأن درس الشيخ سيد المرصفى كان نقداً للشاعر أولا ، وللراوى ثانيا ، وللغويين بعد ذلك ، ثم كان بعد ذلك تعرفا على ما فى النص من جمال وذوق ، ثم شرحاً للمعنى جملة وتفصيلا ، ثم وقفة عند الوزن والقافية ، وعند الكلمة وسط اخواتها ، ثم إنه كان يقوم بمقارنة بين هذا الذوق المرهف القديم ، وبين غلظة الذوق المعاصر ، وقد أفاد من الشيخ الإعجاب بالكلام إذا امتاز بمتانة اللفظ ورصانة الأسلوب(١) .

(١) الأيام ٢/١٦١ ؛ تجديد ذكرى أبى العلاء ٧ ط ٦ .

وهكذا أحسن طه حسين فى هذه الفترة تقليب التراث العربى ، يقول أحمد حسن الزيات فى الحديث عنه وعن محمود الزناتى «كنا نعشق الكتب ، فلم ندع فى الأدب كتابا مطبوعا ولا مخطوطا إلا قرأناه أو قلبناه ، والمكتبة العربية كانت يومئذ بالنسبة إلينا الكتبخانة المصرية(1) » ثم إنه تقلب فى هذه الفترة بين القراءة الحرة لعدد من كتب الأصول والبلاغة والأدب (2) ، ثم كان نضجه فى الجامعة المصرية القديمة ، من ١٩٠٨ إلى ١٩١٤ وقد كان حصيلة هذا كله رسالته التى تقدم بها الى الجامعة بعنوان «ذكرى أبى العلاء» ، وفى مقدمة هذا الكتاب يخطو خطوة جديدة ، فهو يذكر أنه لم يرد أن يكون الكتاب موفق العبارة ، رشيق اللفظ ، لأنه لم يرد به إظهار التفوق والنبوغ فى فن الإنشاء ! .

●

.. وفى فرنسا يتمرس بالمنهج ، وبالثقافة فى العديد من جوانبها ، حتى إذا عاد ظهر بحسم إلى جانب الاهتمام بالشكل الاهتمام بالشاعر ، وعصره ، وصلة الشاعر بالعصر الذى يكتب فيه ، بحيث تتحدد طريقته فى « جانب علمى يتصل بفحص النصوص الأدبية وفقهها وتحقيقها واستنباط دلالاتها مع دقة التفسير ، والتعليل ، والتحليل ، ومعرفة الظروف التى أحاطت بها ، والمؤثرات المختلفة التى أثرت فى منشئيها ، وبيئاتهم ، وعصورهم .. وجانب فنى يتصل بنقد النصوص ، وتصوير شخصيات أصحابها ، وما تحدث فى نفس قارئها من لذة ، وهو الجانب الذى يحيل التاريخ الأدبى إلى عمل ممتع يلذ العقل والشعور إذ ترى من خلاله خصائص المؤرخ الأدبية والعقلية ، وملكاته ، وقدرته على طرافة العرض والتصوير حتى لكأننا إزاء عمل فنى رائع(3) .

على أنه أساسا كان يهتم بقضية الشكل اهتماما واضحا انطلاقا من أن

---

(1) مجلة الرسالة (٢٦ ديسمبر ١٩٤٩) .
(2) مقدمة قطوف لعبد العزيز البشرى .
(3) د. شوقى ضيف عن طه حسين بين انصاره وخصومه .

العرب - كما يقول - لم يعنوا بشيء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ ، وجزالته ، فقد جعلوا الإعراب ، وإصفاء اللفظ ، والملاءمة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الذى ييسر على اللسان نطقه ، ويزين فى الأذن وقعه أساسا لكل هذه الخصال، وهو يقول عن نقده الأول أنه كان نقداً مغاليا فى المحافظة ، ثم إنه فى نقده لأهل الكهف لتوفيق الحكيم يقول إنه يعتبر هذا المؤلف ذا خطر فى الأدب ، ولكنه يذهب إلى عيبين فى القصة أحدهما - على حد تعبيره - يسوءه حقا ، وهو هذا الخطأ المنكر فى اللغة ، وحين يخرج توفيق الحكيم على الناس بشهر زاده نراه يتعرض لهذا العمل ويطالب المؤلف بالعناية بلغته .

ونراه يقف وقفة طويلة جدا فى نقده لكتاب جان جاك روسو للدكتور محمد حسين هيكل عند اللغة، ثم إنه يأخذ على المؤلف قوله « وكان قلمه .. » لأن القدم مؤنثة لا مذكرة ، ويأخذ عليه استعمال « حتى » ظرفا مكانيا ، ويأخذ عليه نصب مفعول بالألف وكان حقه أن ينصب بالياء ، ويأخذ عليه قوله « وأنت تعلمين أنك أشد ما يكون » بدلا من « أشد ماتكونين » ، ويأخذ عليه استعماله « مهوباً » بدلا من « مهيبا » .. ثم يقول فى مقال تال انه اهتدى إلى أن هذه الكلمة الأخيرة تستعمل بالياء والواو، وإذا هى قياسية حين تستعمل بالياء ومسموعة حين تستعمل بالواو (١)

. . وهو فى رثائه الدكتور محمد حسين هيكل يقول : كنت أتهمه بأنه لا يحسن العربية ، وكان يتهمنى بأنى أحسن العربية وأخطىء المعانى ، وكان يقول : إنك تبلغ من تنميق اللفظ ما يشغل قراءك بألفاظك ، وكنت أقول له : ولكنك تبلغ من العناية بالمعنى ما يصد قراءك عن قراءتك ، لأن لفظك لا يروقهم.. ولقد كان مما أخذه عليه إسرافه فى استعمال اسم الإشارة .

ونحن لا ننسى أنه أخذ على « أحمد أمين » إعراضه عن جمال اللفظ ومبالغته فى القرب من لغة العامة، لأنه كان عليه أن يرفعهم ليتذوقوا الأدب

---

(١) حديث الأربعاء ٣/١١٩ وما بعدها .

الرفيع « هذه هى الديمقراطية الصحيحة »(١) ، وفى الوقت نفسه لا تسلم منه لغة الرافعى والعقاد(٢) .

●

.. وما أكثر ما أثار قضية الفصحى والعامية ، مؤكدا أن الفصحى هى الدعامة الأولى للوحدة العربية ، ومذكرا أنه يجب أن تكون للعرب لغة جامعة ليفهموا أنفسهم ، وليتوحد تفكيرهم ، ولئلا يجىء يوم يحتاج فيه المصرى إلى أن يترجم إلى لهجته ما كتب فى لهجات أخرى ، ومن كلامه الحاسم فى هذا ما جاء فى مجلة منبر الإسلام « .. إن الذين يكتبون العامية لايفعلون ذلك إلالأنهم يجهلون اللغة الفصحى ، فمن يحسن العربية ثم يتحول عنها إلى العامية فهو عندى آثم فى دينه ، ومقصر فى ذات وطنه ، لأن اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم ، ولغة التراث الإسلامى والعربى المجيد أثناء القرون الطوال ، وهى مقوم من مقومات الحياة لأنها تجمع الأمة العربية فى جميع أقطارها ، ولأنها تتيح لأدبنا العربى ، وثقافتنا العربية أن تشيع وتؤثر فى البلاد العربية المختلفة ، وترفع مكانة الأدب العربى فى العالم » وهذا يذكرنا بما كتبه عنه الدكتور محمد عوض محمد حين قال : « إن ثقافته الخصبة هى ثقافة أزهرية متينة قوية الأسس ، وان ليست ثقافته الغربية إلا رواء وطلاء ، وقديما قال نابليون : إنك إذا حككت الروسى بدا لك التترى ، وفى وسعنا أن نقول : إنك إذا حككت طه حسين بدا لك الأزهرى القح .

---

(١) فصول فى الأدب والنقد ٢١ .

(٢) حديث الأربعاء ٣/١٤٠ .

الوسطية :

والآن ما مفهوم الشعر عند الدكتور طه حسين ؟

إنه — كعادته — يورد الخلاف الذى دار حوله ، فهناك من يرى أنه هو الكلام المنظوم فى الوزن والقافية ، وهناك من يرى أنه الكلام الذى يعتمد فيه صاحبه على الخيال ، ويقصد فيه إلى الجمال الفنى دون أن يعنيه أن يكون هذا الكلام منظوما فى الوزن والقافية أو غير منظوم ، وهناك من يقف موقفاً وسطا بين أولئك وهؤلاء ، على أنه يسلمنا إلى رأيه الشخصى فيقول : ومهما يكن من شىء فان فى الشعر جمالا فنياً خالصاً يأتيه أحياناً من قبل اللفظ ، وأحيانا من قبل المعنى ، وأحيانا من قبلهما جميعا ، ومهما يختلف حظ الشعراء من هذا الجمال ، ومهما يختلف ذوق النقاد ورأيهم فى هذا الجمال ، فان للشعر منه حظاًما يتفق الناس جميعا — إذا سلمت أذواقهم — فى الإحساس والشعور به ، وإذا كان الشعراء والأدباء متفقين على أن الشعر يجب أن يتقيد لفظه بالوزن والقافية فهم متفقون كذلك على أن الشعر يجب أن يكون له حظ من هذا الجمال الفنى مهما يكن مصدره ومقداره ، ثم يقول « وإذن فنحن نستطيع أن نعرف الشعر آمنين بأنه الكلام المقيد بالوزن والقافية والذى يقصد إلى الجمال الفنى ، فاذا اتفقنا على هذا المقدار فلندع الشعراء المنتجين والنقاد وماهم فيه من اختلاف فى تقدير هذه القيود ، وتصوير هذا الجمال الفنى ، لا يعرض لذلك إلا فى الدراسات التفصيلية التى نقف فيها عند شعر الشعراء ونقد النقاد(١) .

والملاحظ أن حديثه عن اللفظ والمعنى لا يضيف شيئا ذا بال إلى ما وصل إليه عبد القاهر فى نظرية النظم ، وأن تعريفه الشعر لا يرضى عنه الكثيرون ،

(١) فى الأدب الجاهلى ٣٠٩ وما بعدها .

وهو لا يذهب بعد ذلك بعيداً فى كتابه « ألوان » حين يرى أن الأصل فى الكتابة كالأصل فى الشعر تخير اللفظ الفصيح الرصين الجزل للمعنى الصحيح والملاءمة بين اللفظ واللفظ وبين المعنى والمعنى ، مع الحرص على الإعراب والإيثار للألفاظ الصحيحة التى تقرها اللغة(١) .

ثم هو يؤكد على « الوسطية » حين يذكر أنه لا يذهب مع هؤلاء الذين يؤثرون القديم فيضيقونه وفى الحياة سعة ، ولا يذهب مع هؤلاء الذين يغلون فى إيثار الجديد فيذهبون بعيدا عما ألف الناس ، ومع ذلك فالقصد أساس الخير فى كل شىء . لا أمقت القديم ولا آنف من الحديث ، وإنما أرى أنى وسط بين القديم والحديث ، وأرى أن لغتى يجب أن تكون مرآة صادقة لنفسى »(٢) .

---

(١) الوان ١٦ .

(٢) حديث الأربعاء ١٣/٣ .

القضية بوضوح :

مرت بنا المرحلة التي كادت أن تكون لغوية بحتة في تفكير الدكتور طه حسين ، ولكن هذه القضية تظهر عنده بوضوح في كتابه « في الأدب الجاهلي » حين يقوم برفض هذا المذهب الخداع الذي يذهب إليه القدماء والمحدثون في تحقيق الشعر الجاهلي ، وخلاصته النظر إلى الألفاظ التي يأتلف منها الشعر ، فان كانت متينة رصينة كثيرة الغريب قيل إنه شعر جاهلي ، وإن كانت سهلة لينة مألوفة قيل إن الشعر مصنوع .

ثم إنه يرفض كذلك القول ببداوة المعنى « فهذا المذهب ليس أقرب إلى الحق من المذهب الذي سبقه ، ذلك لأننا ننكر قبل كل شي أن يكون العرب كلهم أهل بادية (١) .

ثم نراه ينتهي إلى مقياس مركب حين يذكر أنه لا يعتمد على اللفظ وحده ، ولا على المعنى وحده ، ولا عليهما ليس غير ، وإنما يعتمد عليهما وعلى أشياء أخرى فنية وتاريخية « فاذا ذهب لتطبيق هذا على « أوس بن حجر » تعرض لحياته ، ثم وقف عند لفظه ومعناه ، ثم انتهى إلى أنه يمتاز بميزتين : أحداهما أن خياله مادي ، وشديد التأثر بالحس ، والثانية أنه كان فنانا يتخذ الشعر حرفة وصناعة وفنا يدرس ويتعلم ، وهو لا يقف عند الميزة الأولى باعتبارها فطرية في الشاعر ، ولكنه يقف عند الثانية باعتبارها إرادية ، ثم يذكر أنه من هاتين الخصلتين سيتأكد الفن البياني ، وبخاصة حين يمتد هذا الاتجاه بوساطة زهير ، وكعب ابنه ، والحطيئة .

.. ثم نراه يفيض في الحديث عن المدرسة البيانية ، فاذا تعرض لقصيدة من شعر أولها :

ودّع لميس وداع الصارم اللاّحي إذ فنّكت في فساد بعد إصلاح

---

(١) في الأدب الجاهلي ٢٥٧ ــ ٢٦٣ ط ٢ .

نراه بعد أن يحققها فى مصادرها ، يبدأ بذكر ما فيها من تصريع ، ثم ينتقل مطيلا إلى ما فيها من تشبيه ، وإلى ما فيها من صور شعرية . وحين ينتقل من هذه القصيدة إلى قصيدة أخرى لا يبعد عن هذا كثيرا ، ومثل هذا ينطبق على أحاديثه عن زهير ، وكعب ، والحطيئة ، والنابغة .

هذا بالاضافة إلى نظرة تأثرية فى تناول النص تنبع أساسا من تعاطفه مع الشاعر أو ازوراره عنه ، على نحو مانعرفه مثلا من تعرضه للشاعرين أبى نواس ، والمتنبى .

القضية . . فى ضوء القديم والحديث :

. . ثم تأخذ القضية – عند الدكتور طه حسين – صورة جديدة ، هى صورة « القديم والحديث » وبخاصة حين يتوكأ على أبى نواس مؤكدا أن كلامه فى العبث بالطلول من مذاهب التجديد والاعراض عن القديم .

وهو يحدد القضية بقوله إن الخلاف بين القديم والحديث أصل من أصول الحياة ، ذلك لأن الجهاد يشتد بين الطرفين حتى يتم انتصار الحديث ، ثم يصبح هذا الحديث قديما . وهكذا تستمر الحياة ، وهو يوضح مايذهب إليه بقوله إن تطور الشعر فى اليونان أساسا كان فى اللفظ والمعنى والنوع ، ولكنه عند الأمة العربية ضيق محصور لأنه لا يتناول إلا اللفظ ، وقد يتناول المعانى فى عصر من العصور هو أول العصر العباسى ، ومع هذا تستمر حركة الخلاف بين القدماء والمحدثين « .. كان القدماء والمحدثون أيام بنى أمية يختلفون فى اللفظ اختلافا ظاهراً ، وكانوا يتخذون اللفظ مقياساً لجودة الشعر ، فكلما قرب هذا اللفظ من البداوة ، وكلما كان رصيناً يملأ الفم ، ويهز السمع كان الشعر جيدا ، أى أن جزالة اللفظ ، وشدة القرب بينه وبين ألفاظ البادية فى العصر الجاهلى كانت هى المزية الأولى الشاعر ، ثم تأتى بعد ذلك جودة المعنى والتعمق فيه ، ثم ظهر هذا الخلاف بعينه فى أول العصر العباسى ، فاختلف الشعراء العباسيون ، واختلف معهم الأدباء واللغويون فى أى الشعرين أجمل وأرق وأحسن : الشعر الذى يحتذى شعراء الجاهلية والإسلام فى متانة اللفظ ورصانته وبداوته ، أم الشعر الذى يتخير الألفاظ السهلة العذبة التى ألفها الناس عامة ، لا علماء اللغة خاصة »(١) وقد انتقل الخلاف فى اللفظ إلى الاختلاف فى المعنى ، فهل تبقى المعانى بدوية أم تتحضر ؟ وعلى الرغم من هذا فالتجديد الذى وصل الينا لم يكن جوهريا ولا مطردا ،

(١) حديث الاربعاء ١/٧ .

فغاية ما فى الأمر كان هناك « تجدد » يشعر بالفرق بين القديم والجديد .

وهو حين يؤكد قضيته بالحديث الطويل عن أبى نواس ، وعدد آخر من الشعراء نراه لا يبتعد عن قضية « اللفظ والمعنى » ، ومثل هذا نراه فى قوله : « والشعراء أبداً منقسمون إلى قسمين : إلى هؤلاء الذين يتحدثون إلى النفس فى سهولة ويسر لا يتكلفون ، وإنما يلتمسون الجمال فى مسايرة الطبيعة ، وشعراء آخرين يجدون فى هذه العناية باللفظ ، وفى تكلف هذه الألوان من البديع ، فهم لا يعتملون فى الشعر على التحدث إلى النفوس والشعور فحسب ، وإنما يريدون التأثير الموسيقى فى النفس والأذن أيضا(١) » .

.. ثم إنه يخلص من هذه القضية إلى القول بأن الخصومة حول القديم والجديد ستظل محتدمة أبدا ! .

●

وفى الوقت نفسه يشير إلى تلك الخصومة التى اشتعلت بين مصطفى صادق الرافعى وسلامة موسى كممثلين للقديم والجديد « وقل مثل هذا فى الخصومة بين الأديبين خليل السكاكينى وشكيب ارسلان ، فهما يختلفان فى الإيجاز والاطناب والمساواة » (٢) .

ثم يلقى كلمة حاسمة فى الموضوع تقول: إن المذهب الجديد لا يقتل اللغة ، ولا يصرف الناس عنها ، ولا يغير من أصولها وقواعدها ، وإنه يريد أن تكون اللغة حية نامية ، ومن ذكر الحياة والنمو فقد ذكر التطور ، ومن ذكر التطور وآمن به فهو من أنصار المذهب الجديد رضى بذلك أو كره (٣) »

●

وهكذا تظل هذه القضية إلى حد كبير فى إسارها القديم على الرغم من إعطائها عنواناً جديداً .

---

(١) من حديث الشعر والنثر ١٠٢ .
(٢) حديث الأربعاء ٣٢٥/١ .
(٣) نفسه ٣٣٣ .

القضية . . والتطور :

من المعروف أن هذه القضية قد ثارت بعنف بين مصطفى صادق الرافعى والدكتور طه حسين ، وقد بدأت الشرارة حين أرسل مصطفى صادق الرافعى رسالة إلى الدكتور محمد حسين هيكل كان قد كتبها إلى أديب من أدباء الشام لنشرها ، وقد كان كتبها — كما يقول — من النمط الأول الذى هو فن من زينة البلاغة العربية يشبه بعض فنون الزخرف والتنسيق .. وكان أن عاق الدكتور طه حسين بأن أسلوب الرسالة إن كان يروق لأهل القرن الخامس والسادس الهجرى فانه لا يروقنا فى العصر الحديث(١) .

ثم تتحول القضية من النقد الأدبى إلى قضية من قضايا التطور ، وحتمية هذا التطور .

والحقيقة الواضحة أن هذه الفترة قد قدمت كتاباً وقفوا — بحسم — إلى جانب الشكل ، بعد أن كانت القضية متميعة بين الفريقين ، ولقد كان فى مقدمة الذين وقفوا بجسارة إلى جانب الشكل ، مصطفى صادق الرافعى ، وعبد العزيز البشرى ، وقد كان فى مقدمة التيار أحمد حسن الزيات بالعديد من المقالات فى مجلة الرسالة ، وبكتابه « دفاع عن البلاغة » فهو فيه يقف جهرة إلى جانب الصياغة ، وهو فيه يأخذ على العصر « السرعة ، والصحافة ، والتطفل » ثم نراه يصل إلى حقائق أسلوبية تتمثل فى « الأصالة ، والوجازة ، والتلاؤم » كما يؤكد بوضوح أن أنصار الصياغة أقرب إلى الصواب من أنصار المعنى ، وأن تجديد الصور يلزم عنه تجديد الفكر وليس العكس .

ولقد كان ممن أدخل الموضوعية إلى هذه القضية أحمد الشايب — فى الأسلوب — وأمين الخولى فى — فن القول .

أما العقاد فالى جانب اهتمامه أساساً بالمعنى ، إلا أنه أدرك تلك الصلة

(١) حديث الأربعاء ٣/٥ وما بعدها (ط٠ دار المعارف) .

المتسقة باللفظ ، فأحسن الأشكال عنده هو الشكل الذى يُتخطى إلى دلالته ، ويتجاوز إلى معناه ، ويساعد المعنى على الظهور ، ويتلاشى حين يبرز المعنى ، وفى ضوء هذا تكون الجملة البليغة هى التى توصل إلى الفحوى من غير أن تشغلنا بالمبالغة فى التحلية ... وهذا ينطبق بدوره على الزهرة البليغة ، والصورة البليغة ، والوجه البليغ « وهو يؤكد دائما على أن الجمال فى الفن والطبيعة معنوى وليس شكليا ، وأن الأشكال لا تعجبنا ولا تجمل فى نفوسنا إلا لمعنى تحركه أو معنى توحى إليه(١) .

وإذا كان العقاد قد ربط بين الشكل والمضمون وقضية الجمال وعلم النفس فى كثير مما قال ، فإن هناك من حاول أن يربط بينهما وبين العلم والقضايا الاجتماعية ، ولقد كان فى هذا الجانب جماعة يتقدمهم سلامة موسى ، وقد أكد هذا بكتابه « البلاغة العصرية واللغة العربية » ، فقد تعرض فيما تعرض « للأحافير اللغوية » والذين ينظرون إلى الخلف ، ثم كان قوله بان المنطق يجب أن يكون أساس البلاغة « .. يجب أن نذكر أن التفكير الدقيق بالمنطق أخطر وأثمن من الترفيه الذهنى بالفنون (٢) » ويقول عن الأدب العربى القديم أنه كان يؤلّف لأجل الخلفاء والأمراء والفقهاء لأن هؤلاء كانوا الدولة وكان أدب الخلفاء والأمراء نوادر وقصصاً وأشعاراً تسلى وتذهب السأم ، أى سأم البطالة » (٣) وهو ينتهى إلى القول بان الأدب القديم كأن أدب ملوك يحرس التقاليد ، ويساند مذهب الدولة ، ويكره الثورة .. بل لا يعرف الثورة ، ثم يؤكد أن الأدب للحياة والإنسانية والمجتمع « وأنه ليس نكتة بديعة أوبيتاً رائعاً وإنما هو ارتقاء وتطور وكفاح(٤) » .

●

أما موقف الدكتور طه حسين الثابت فقد كان كما مر بنا يقف موقفاً وسطاً ، فى حين أنه وقف فى أول أمره إلى جانب الشكل ، وأنه قال أخيراً

---

(١) مطالعات ٥٣ وما بعدها .
(٢) البلاغة العصرية ٥٦ .
(٣) الأدب للشعب ٦ .
(٤) نفسه ١٦ .

أنه ليس على أحد حرج فى التجديد فى الشعر وأوزانه وقوافيه ، ولكنه ساق هذا بشفاعة من القدماء وتجديداتهم ، ولكن موقفه الواضح كان وقوفه عند عدم إهدار الشكل من أجل المعنى ، أو إهدار المعنى من أجل الشكل ، سواء أكان انطلاقه من الحديث عن اللفظ والمعنى ، أو القديم والجديد ، أو الثابت والمتطور ... فاذا كان ميل فإلى الشكل !

. . فهو حين يقدم – مثلا – دراسة عن أبى تمام يتحدث عن مولده ، وموته ، ويتحدث عنه بين الشام ومصر ، ثم يتحدث عن صفاته وكتبه، وما قيل فى نقده ، ثم يتحدث عن تنقلاته ، وعن أبى تمام والشعراء ، وعن السبب فى بغض المحافظين له، ثم يصل بنا إلى قوله « .. والشعراء أبداً ينقسمون إلى قسمين : إلى هؤلاء الذين يتحدثون إلى النفس فى سهولة ويسر لا يتكلفون ، وإنما يلتمسون الجمال فى مسايرة الطبيعة ، وشعراء آخرين يجدون فى هذه العناية باللفظ ، وفى تكلف هذه الألوان من البديع ... أما أبو تمام فشىء آخر يعنى بالموسيقى ، وجمال اللفظ ، ولكنه يتجاوز هذه هذه العناية إلى عناية أخرى بالمعنى (١) » .

●

. . وهو حين يتعرض للبحترى ، يذكر علاقته بأبى تمام ، ومولده ونشأته ، ثم يذكر مدحه وهجاءه ، ويوازن بينه وبين أبى تمام ، ويعرض لصور من وفائه وأخلاقه، ولصلته بكبار عصره ، ثم يتحدث عن إعجابه بنفسه ، ومنزلته ن الشعر ، ثم يتعرض لقصيدة قالها فى المتوكل ، وبعد أن يبسط غزلها ومدحها يقول : فأنتم ترون فى هذا الغزل ، وفى هذا المدح لفظاً كأسهل ما يكون اللفظ الشعرى ، وكأحسنه اختياراً ، وأجوده انتقاء ، ولكنكم مع ذلك لا ترون تكلفاً للبديع ، ولا تعمقاً فى الاستعارة ، ولا اغراقاً فى هذه المحسنات اللفظية ، وإن رأيتم شيئاً فهو تكلف لطيف يخلب الأذن ، ويعجب السمع ويستهوى النفس ثم نراه يتعرض للتقسيم فى البيت الذى يقول :

يتأبى منعماً ، وينعم إسعـــــــافاً ، ويدنو وَصلا ، ويبعد صـــدا

---

(١) من حديث الشعر والنثر ٩٢ – ١١٠ .

مؤكداً أن الجمال لا يتأتى من المعنى ، وإنما من « التقسيم » فهو قد أتى بأفعال أربعة ، وعلل كل فعل بمصدر من المصادر ، ثم يسير على هذا المنوال الشكلى فى العديد من القصائد ، فهو يتكلم عن طبيعة الأفعال ، وهو يتكلم عن « الزحاف » فى أحد الأبيات ، وعن متانة الألفاظ ، وعن السين بعد الشين فى لفظة « شسوع » ، وعن الترشيح للقافية ، وعن المطابقة والمقابلة(١)

●

ومثل هذا نراه فى دراسة لابن الرومى ، وابن المعتز ، والمتنبى ، وشوقى ، وحافظ ، وأحمد نسيم ... وهو عند حديثه عن « على محمود طه » يقف طويلا – إلى جانب الحديث عن مضمونه – عند الحديث عن لغته مؤكداً أنه يحرص على الموسيقى فى الوزن أكثر مما يحرص عليها فى القافية ، بل يرى أنه يسيء فى القافية كثيراً ، ويأخذ عليه دخول « الباء » فى خبر كان التى لم يسبقها نفى ، ثم يقول : ومثل هذا التقصير فى موسيقى القافية وفى النحو واللغة كثير ، ثم يقول فى نهاية حديثه : هو شاعر مجيد حقاً ولكنه فى حاجة إلى العناية باللغة ، وأصولها ، وتعرف أسرارها ودقائقها(٢) .

●

ومثل هذا ، وقفته عند « إبراهيم ناجى » .

فقد أخذ عليه التكلف والحرص الظاهر على إقامة الوزن ، أو على إقرار القافية ، أو على مجاراة جماعة من الشعراء والمفكرين ... ثم نراه يلتفت إلى أخطائه فى اللغة والنحو ، بل إنه يتعرض لأخطاء مقدمة ديوانه « وراء الغمام » لمحمد الصاوى محمد ، ثم ينتهى إلى قوله : أليس من حق اللغة على الشاعر ومقدم ديوانه أن يعتذر إليهما من بعض ماتورطا فيه من التقصير .

●

وما أكثر ما وقف عند أخطاء النحو والعروض فى نقده للديوان « أنفاس محترقة » « لمحمود أبو الوفا » – .

---

(١) من حديث الشعر والنثر ١١١ – ١٣٠ .

(٢) حديث الأربعاء ٣/١٥٨ وما بعدها .

(٣) نفسه ٣/١٦٩ وما بعدها .

وفى نقده لديوان « الجداول » لايليا أبى ماضى يقول أن صاحبه لا يحسن علم الألفاظ والأوزان ، وهو يريد مع ذلك أن يقول الشعر ، ولست أدرى كيف يستقيم هذا للعقل ؟

.. ثم إنه يهاجم المهجريين بضراوة لأنهم لم يستكملوا أدوات الشعر بجهلهم اللغة أو بتجاهلها ، وباتخاذهم هذا الجهل مذهباً ، وأخيراً يحذر من هذه الهجنة القادمة من بعيد .

●

وبصفة عامة نرى أن ما يشكل نقده أساساً كان هو تقسيم الشعر إلى شكل وإلى مضمون ... وقد كانت وقفته دائماً طويلة عند الشكل .

---

(١) نفسه ٢١١ ـ ٢٢٧ .

القضية والمصطلحات الحديثة :

وأخيراً نرى أن القضية تأخذ – بشكل حاسم – مظاهر جديدة وإن كانت لا تبعد كثيراً عن خطوطها الأولى ، فقد ظهرت مصطلحات الفن للفن ، والفن للحياة ، والفن للمجتمع ، وظهرت مصطلحات تتحدث عن الالتزام ، والأدب الهاتف ، والأدب الهادف ، والأدب القائد ، والأدب الصدى .

ومن الواضح أن الذين قالوا بأن الفن للفن قد انحازوا إلى الشكل ، فليس المهم عندهم مايقال ، وإنما المهم كيف قيل ، ليس المهم – كما قيل – لم ؟ ولكن المهم كيف ؟ ثم إن الأشياء تبدوا جميلة بنسبة عكسية للمنفعة ، ذلك لأن رسالة الأدب أصلا ليست سياسية ولا علمية ولا خلقية ... على أن هذا الاتجاه قد تطور على أيدى الذين نادوا – كسيدقطب – بأنه يجب أن يرد اللفظ اعتباره لا على طريقة الجاحظ ، ولا على طريقة المدرسة التعبيرية التي يمثلها المنفلوطي وشوقى ، ولكن عن طريق التطابق بين التعبير وبين الحالة الشعورية التي يصورها ، وكنازك الملائكة في دعواتها المتكررة إلى احترام اللغة ، وكالدكتور زكي نجيب محمود من خلال منهج الوضعية المنطقية ، وكالدكتور رشاد رشدى في دعواته المتكررة لاحترام الشكل (٢) « لأنه هو الباقى » ثم أن مصطلحى « الجوانى » والبرانى » للدكتور عثمان أمين قد مسا هذه القضية في بعض ما كتب (٣) .

أما الذين قالوا أبن الفن للمجتمع فقد اهتموا بقضية المعنى ، وقد كان رائد هذا الاتجاه سلامه موسى ، فقد ذهب ابتداء من عام ١٩٣٤ إلى القول بأن الأديب التقليدى يحتذى أسلوب الجاحظ الكتابى ولا يحتذى أسلوب

(١) الأدب للشعب ٢ وما بعدها .

(٢) انظر « ما هو الأدب » د. رشاد رشدى .

(٣) انظر « نظرات في فكر العقاد » د. عثمان أمين .

الفلاح المصرى فى الحياة ، وأن هذا الأديب تكاد تنخلع رأسه من الالتفات إلى الوراء دون الاحساس بما حوله ، فهو بالتفاته يعاشر الموت (١) .

وفى معاركه حول هذه القضية نراه يصطدم بالدكتور طه حسين ، والعقاد ، والرافعى ، والمازنى .

●

ثم كان التركيز على هذه القضية — بعنف — بكتاب فى الثقافة المصرية . لمحمود أمين العالم والدكتور عبد العظيم أنيس ، فقدذهبا إلى أن الثقافة — كتعبير فكرى أو أدبى أو فنى أو كطريقة خاصة للحياة — انعكاس للعمل الاجتماعى ، وفى الوقت نفسه مظهر لكل ما يتضمنه هذا العمل من تشابك فى العلاقات ، ومن جهود مبذولة ، واتجاهات ، ثم كان هجوم على كثيرين يجىء فى مقدمتهم العقاد والدكتور طه حسين ، فمما قيل مثلا عن الدكتور طه حسين « .عدم استيعاب طه حسين لواقعنا الحى بتفاصيله المتفاعلة المتطورة ، سواء فى الريف أو المدينة فى دعاء الكروان هو الذى أفرغ صياغة هذه القصة من الحركة ، وجعلها أقرب إلى التجريدات النغمية (٢) » ثم كان هجوم مركز من الدكتور محمد مندور على بعض أعمال توفيق الحكيم وآخرين.

.. على أنه داخل هذه المعركة التى تعتمد أساساً على المضمون كان هناك كلام نظرى عن الأداة ، فكتاب «فى الثقافة المصرية يذكر أن المضمون يجب أن يحافظ على الشكل العظيم (٣) ، والدكتور محمد مندور يذكر أن الأدب حين يفقد قيمته الجمالية لا يفقد طابعه المميز فقط ، بل يفقد أيضاً فاعليته (٤) ولكن فى التطبيق أهدر الشكل ، بل أصبح القول بأهمية المضمون سلاحاً يشهر فى وجه المحافظين على اللغة ، فقد اتهم المحافظون على الشكل بنعوت تتصل بالرجعية ، والسلفية ، والقصور فى الثقافة ، والعجز عن مجاراة

---

(١) الأدب للشعب ص ٢ وما بعدها

(٢) فى الثقافة المصرية ٢٥ .

(٣) نفسه ١٩٥ .

(٤) النقد والنقاد المعاصرون ٢٣٧ .

المجددين ، ولقد أصبح الحديث عن الأخطاء اللغوية والنحوية والاملائية مضحكاً (١) .

●

على أن القضية قد تحددت تماماً فى الفترة الأخيرة حين أكد الدكتور طه حسين فهمه القديم للقضية بقوله : اللغة صورة الأدب والمعانى مادته ، وأنهما شيئان لا يفترقان بالاضافة الى عنصر الجمال الذى يلزمهما، وكان أن رد الدكتور عبد العظيم أنيس، ومحمود أمين العالم بأن اللغة مجرد أداة من أدوات الصورة ، وأن المعانى ليست مادة الأدب ولكنها أداة من أدواته ، ثم كان تحديدهما للصورة والمضمون ، وكان رد الدكتور طه حسين بمقاله المعروف بعنوان « لاتيني لا يفهم » (٢) .

●

وآخرا ... لقد كان فكر الدكتور طه حسين وليد النظرة العربية المتوارثة التى تفصل الشكل عن المضمون ثم اهتدت إلى العلاقة التى بينهما ، وقد أكد هذا عنده بصفة خاصة نظرة الرومانسية فى الفصل بين الشكل والمضمون لأنه ما دام الأدب عندهم تعبيراً فلابد أن يعبر عن شيء ، ثم إن اهتمامه بالشكل راجع فى المقام الأول إلى التراث العربى ، بالإضافة إلى تقاليد الأدب الفرنسى فى هذا المجال .

ومهما يكن من شيء فقد كان موقف الدكتور طه حسين منسجماً مع الحضارة العربية ، ومع نفسه، ومع ثقافته ، ومع الفترة الخصبة التى عاشها بعمق وأصالة واقتدار .

---

(١) قضايا الشعر المعاصر ٢٩٠ ط ١ .

(٢) يرجع الى ملحق الجمهورية ١٩٥٤/٢/٥ وما بعده ، فى الثقافة المصرية ٤٢ وما بعدها .

ثقافة اليونان والرومان

وأثرها في طه حسين

محمد عبد الغني حسن

على الرغم من المكانة العظمى التى احتلها الدكتور طه حسين فى الأدب العربى ، وعلى الرغم من عمق انتمائه إلى العروبة وإنتاجها الفكرى الخصيب، فإنه اتصل بالفكر اليونانى والرومانى اتصالا وثيقاً، وأخذ عنهما ونقل منهما ، وتعصب لهما فى كثير من المواطن . ولكنه فى شغفه بثقافة اليونان والرومان لم يبخس الثقافة العربية القديمة والفكر العربى حقه . وما وجدت موضعاً يشيد فيه الدكتور طه حسين بالفكر اليونانى والأدب الإغريقى إلا وجدت بجانبه مواضع أخرى يعلى فيها الرجل من قيمة الأدب العربى ويعطيه حقه، لا على سبيل التعصب لعروبته ، ولكن على سبيل النصفة للحق .

ولا ننسى طه حسين وهو يرد مرة على توفيق الحكيم فى عدد من أعداد مجلة الرسالة (١) فيقول له: (فإذا أردت أن تقارن بين العرب والرومان ، فأظنك توافقنى على أن الأدب العربى الخالص أرقى جداً من الأدب الرومانى الخالص. أى أن الأدب الرومانى إنما ارتقى حقاً حين أثر فيه الأدب اليونانى . فالرومان تلاميذ اليونان فى الأدب والفن والفلسفة. والعرب يشبهونهم فى ذلك، ولكن العرب كان لهم أدب ممتاز قبل أن يتأثروا بالحضارة اليونانية، ولم يكن للرومان من هذا الأدب الرومانى الممتاز حظ يذكر ..)

وقضية تقدم الأدب العربى على الأدب الرومانى قد تناولها طه حسين أكثر من مرة فى أكثر من كتاب أو دراسة . فتراه مرة يقول: (... الأدب العربى : شعره ونثره وعلمه وفلسفته لا يمكن بحال من الأحوال أن يقل عن

(١) مجلة الرسالة ــ عدد ١٥ يوليو سنة ١٩٣٣ .

الآداب الأربعة القديمة . (١) بل هو من غير شك متقدم على اللاتيني والفارسي . وإذا لم يكن بد من أن يكون له مناظر ، وأن الأدب العربي ينحني له مع شيء من الأجلال الذي تملؤه العزة ، فهو الأدب اليوناني . وأما الأدب اللاتيني ، فسترون أنه يقوم على تقليد الأدب اليوناني . فهو ليس أدباً مبتكراً ، وإنما خطباء الرومان تلاميذ لخطباء اليونان مهما برعوا . وأبرعهم — وهو سيسرون — تلميذ لأرسطاليس وديموستين . ومؤرخهم وأبرعهم « تتليف » و « تاسيت » تلميذان لهيرودوت ، وتيسيديد . وشعراؤهم وأكبرهم « فرجيل » تلاميذ لهوميروس وغيره من شعراء اليونان . وليس للرومان شعر تمثيلي يذكر . وما وجد عندهم من التمثيل فهو تقليد سيء رديء لتمثيل اليونان ...) (٢) .

وحين يوازن طه حسين بين الأدب العربي ، والأدب الأغريقي فإنه لا يغفل الشخصية القوية والحيوية التي يتميز بها أدبنا من أدب اليونان القديم ، فنحن حين أخذنا عن هذه الآداب الأربعة القديمة ، وهي : اليونانية ، واللاتينية ، والفارسية ، والهندية لم نكن مجرد ناقلين لا أكثر ، فشخصية العرب ظهرت قوية واضحة المعالم في الشعر والنثر على السواء . فلا يجوز أن يقال عنا إننا مقلدون — كما قلدت الرومان اليونان — ولكننا لم نكد نأخذ عن غيرنا حتى أسغنا ما أخذناه أولا ، وهضمناه ثم محوناه (٣) .

وحين ألف طه حسين كتابه : (مستقبل الثقافة في مصر) واتهمه قوم بأنه من دعاة « التغريب » وأنه رسول الثقافة الأجنبية في مصر ، كتب بحثاً قيما يدافع به عن نفسه ويقارن فيه بين الأدب العربي والأدب اليوناني مقارنة منصفة ، ويعود — من جديد — إلى تأكيد الشخصية القوية والحيوية للأدب العربي ، فيقول : (فالأدب اليوناني القديم إذن حي بنفسه . أريد أنه لا يستمد حياته من أمة حية تنميه وتقويه وتضيف إليه .. وإنما يستمد حياته

(١) هي اليونانية ، واللاتينية ، والفارسية ، والهندية .
(٢) من حديث الشعر والنثر لطه حسين . ص ١٧ ، ١٨ .
(٣) من حديث الشعر والنثر ص ١٥ .

من هذه الشخصية القوية التي وهبها اليونان القدماء ... أما أدبنا العربي فقد عمر بضعة عشر قرناً إلى الآن ، واختلفت عليه في أثناء هذه القرون خطوب كثيرة متباينة ، وجهته ألوانا من التوجيه ، وأخضعته لضروب من التطور ، ولكنه ما زال حياً قوياً ، يستمد حياته وقوته من شخصيته العظيمة ، ويستمد حياته وقوته من هذه الأجيال التي لا تزال حية محتفظة بفضل من قوة ، والتي لا تزال ترعاه وتكلؤه وتنفخ فيه من روحها ، كما تستمد منه قوة وأيدا ، فهي تمنحه وتأخذ منه ، وهي تعيش عليه ، وتعيش له ، وتعيش به ... (١)

ومن هنا نعرف أن طه حسين لا ينكر شخصية الأدب اليوناني ، ولا شخصية الأدب العربي في قوتهما وحياتهما ، ولكن الأدب العربي يزيد على اليوناني بأن العرب ظلوا على مسار التاريخ ، وعلى مدار الأجيال ، يحافظون على أدبهم ، ويساندونه ، ويمدونه دائماً بأسباب القوة والحياة حتى ظل بضعة عشر قرناً ، لم يمسخ ،ولم يتحول ، ولم تصبح لغته العربية لغة قديمة أو ميتة كبقية اللغات القديمة . فنحن نقرأ أشعار امرىء القيس ، والنابغة ، وعنترة ، ونتأثر بها، ونكتب على غرارها كما نقرأ ونتأثر ونكتب أشعار أحمد شوقي ، وخليل مطران ، ومعروف الرصافي .

وحين يوازن طه حسين بين بداوة اليونان، وبداوة العرب ، فإنه يقرر أنها بداوة قامت على « الشعر » وعلى الشعر وحده . فاليونان والعرب يتشابهون في هذا الباب تشابهاً كاملا ، لأن الشعر هو أول مظهر من مظاهر الأمم المتحضرة . وإذا كان عند اليونان « هوميروس » شاعر الإلياذة وخلفاؤه من الشعراء ، فإن عند العرب امرأ القيس ، والنابغة ، والأعشى ، وزهير ابن أبي سلمى وغيرهم من الشعراء الذين يرى طه حسين أننا نبخسهم أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم (٢) .

غير أن الفرق الواضح بين بداوة اليونان وبداوة العرب في رأى طه حسين أن بداوة العرب أثرت في العرب وفي الحضارة الأسلامية ولم تجاوزها إلا قليلا ،

---

(١) طه حسين بين أنصاره وخصومه ؛ لجمال الدين الألوسي ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
(٢) قادة الفكر ، لطه حسين ص ١٧ ؛ ١٨ .

أما بداوة اليونان فقد أثرت فى الرومان وفى العرب وفى الإنسانية قديماً وحديثاً، وستؤثر فيها إلى ما شاء الله .... (١)

ويبدو أن طه حسين فى هذا الحصر الضيق لبداوة العرب، فى الحضارة الإسلامية كان متأثراً بآرائه القديمة فى المغالاة بثقافة اليونان، فقد قال هذا الكلام فى سنة ١٩٢٥ فى كتابه «قادة الفكر»، ونسى أنه فى غمرة هذه الحماسة لليونان فاته ما كتبه المنصفون من المستشرقين من أمثال جوستاف لوبون، وسيديو، ونللينو، وكراتشكوفسكى، والدكتورة زيجريد هونكة وغيرهم عن الحضارة العربية .

والحق أن حب الدكتور طه حسين للثقافة اليونانية، وتحيزه للأدب اليونانى، كان حباً قديماً فرضه عليه دراسته لليونان والرومان، وتاريخهم وآدابهم فى جامعتى باريس، ومونبلييه، وهو ما يزال وقتها متحمساً لثقافات أجنبية نهل منها، ولكن الزمن، والظروف قد خففا كثيراً من غلواء طه حسين فى هذا الشأن . ففى كتابه (من حديث الشعر والنثر) — وهو متأخر كثيراً عن كتبه عن الشعر والتمثيل والفكر اليونانى — نراه يردد ما قرره الجاحظ وغيره من أنصار العرب من أن اليونان لا حظ لهم إلا من الفلسفة، وأن الفرس والهنود لا حظ لهم إلا من الحكم السائرة، فأما الأدب العربى فهو الأدب حقاً الذى يظهر فيه هذا الشعر الخصب المتميز، الذى لا تكلف فيه ولا صناعة، فيكفى أن يوجه العربى فكره إلى المعنى حتى يتدفق الشعر على لسانه . والأدب العربى هو أدب الخطابة الذى أنتج الإمام عليا، وزياداً، والحجاج، وهو الأدب الذى أنشأ الحكم والأمثال السائرة .

على أن الدكتور طه حسين، وهو يردد ما قاله أنصار الأدب العربى المغالون فى تقديره وفى إنكار ما لآداب الأمم الأخرى من قيم — كان معتدلا، فلم يجر مع أنصار الحديث الذين يقولون أن الشعر العربى فقير بالنسبة للشعر الأجنبى، فليس فيه شعر قصصى ولا تمثيلى، كما كان عند اليونان . بل حاول

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨ .

أن يثبت أن مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصي موجودة فى الشعر العربي . وأكد أننا لا نعرف شعراً يصور حياة الأمة أصدق تصوير ، ويضطرنا أن نلمسها بأيدينا كالشعر العربي (١) .

وخطا طه حسين خطوة أخرى فى أنصاف الأدب القصصي عند العرب ، فى تقريره أن فى هذا الأدب العربي القصصي جمالا ليس أقل من جمال الإلياذة والأوديسا ، وليس ذنب الأدب العربي ألا يقرأه الناس ولا يعرفوه (٢) .

ولا شك أن الدكتور طه حسين قد أغرم بالفكر اليونانى والثقافة اليونانية واللغة اللاتينية غراماً شديداً بحكم الدراسة التى تلقاها فى فرنسة ، فقد تعلم اللاتينية فى أول بعثه بباريس، كما تعلم بجانبها الفرنسية التى كانت لغة دراسته فى جامعات فرنسة ، والتمس له معلماً خصوصياً يعينه على تعلم اللغتين ، على الرغم من كونه محدود الموارد (٣) . وفى سبيل استعداده لدبلوم الدراسات العليا فى العاصمة الفرنسية أراد له أستاذه أن يدرس القضايا التى أقيمت فى روما على حكام الأقاليم الذين أهانوا جلال الشعب الرومانى ، وغضوا من شرفه ، كما صورها فى تاريخه المؤرخ الكبير « تاسيت » : وذكر له الأستاذ طائفة من الكتب الضرورية له كمراجع لبحثه، فلما عجز عن شرائها اشتراها لحساب الجامعة المصرية ليعيدها إليها عند عودته ، فقبلت الجامعة ذلك (٤) .

ولما هاجر طه حسين – لظروف معينة – إلى جامعة مونبلييه ليكمل دراسته، درس اليونانية وآدابها وتاريخها وفكرها . فاجتمعت له بذلك أسباب المعرفة للفكر الرومانى والفكر اليونانى .

والحق أن طه حسين فى باريس وهو يدرس اللاتينية كان قد عرف شيئاً عن الفكر اليونانى ، فقد وجهه أستاذه إلى كتاب « نظام الأثينيين » لأرسطو

---

(١) من حديث الشعر والنثر . ص ١٤ : ١٥ .
(٢) من حديث الشعر والنثر ص ١٥ .
(٣) طه حسين للألوسى ص ٤٥ .
(٤) المصدر نفسه ص ٥٧ .

ليقرأه ويفيد منه (١) . ولما عاد طه إلى مصر قام بتدريس تاريخ اليونان فى الجامعة المصرية (٢) ، وهو شطر من عمله بالجامعة أول الأمر أستاذاً للتاريخ القديم ، اليونانى والرومانى (٣) .

ولقد أعجب طه حسين بأرسطو وبكتابه : « نظام الأثينيين » إعجاباً شديداً ، فقام بترجمته وصدر عن مطبعة الهلال سنة ١٩٢١ فى تاريخ متقدم ، وأعيد طبعه فى دار المعارف فى تاريخ متأخر .

ومن هنا نعرف أن أثر دراسة اليونان والرومان فى فرنسة كان بالغا عند طه حسين . فلم يكن بعد عودته من فرنسا سنة ١٩١٩ ، وترجمته لكتاب « نظام الأثينيين » سنة ١٩٢١ غير عامين اثنين ، مما يؤكد استغراقه فى جو الثقافة الأغريقية إلى حد بعيد ...

وصنع طه حسين لهذا الكتاب مقدمة طويلة ، قاربت الأربعين صفحة ، تحدث فيها عن أرسطو حديثاً شائقاً ممتعاً مفصلا ، وتحدث فيها عن الكتاب وقيمته العلمية والفنية ، لأن المشتغلين بالتاريخ السياسى والنظامى قد ظفروا منه بشيء لا يكاد يقوم (لأن الكتاب يذكر التاريخ السياسى والنظامى لأثينا منذ أواخر القرن السابع إلى أواخر القرن الرابع قبل المسيح... على أن هذا الكتاب مع أنه علمى لا يخلو من جمال فنى . ومصدر هذا الجمال هو نفس هذا الإيجاز . فكثيراً ماترى أرسطاطاليس قد خط بقلمه جملة صغيرة ، فأوضح بها ناحية من نواحى الحياة الأثينية ، كأنه قد أرسل عليها من النور نهاراً مضيئاً) . (٤)

ولم يقل لنا طه حسين صراحة إذا كان قد نقل هذا الكتاب عن اليونانية مباشرة ، أم نقله عن الفرنسية التى ترجم إليها . والراجح أنه نقله عن الفرنسية ، أما بعض الألفاظ اليونانية الكثيرة التى أبقاها المترجمون الأوربيون فقد أبقاها هو أيضاً على حالها مثلهم ، لأنها تدل على معان قديمة لم يعرفها المحدثون من الإفرنج والعرب .

---

(١) نظام الأثينيين لطه حسين ص ٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٧ .
(٣) كتاب الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين ص ١٤ .
(٤) نظام الأثينيين . ص ٤٠ .

ويبدو أن تمكن طه حسين من اليونانية واللاتينية، وتاريخهما وتاريخ والفكر فيهما قد جعله دائماً كثير الثقة بما يقوله ويكتبه فى هذا الميدان. فقد كان ثانى درس ألقاه بالجامعة المصرية القديمة إثر عودته سنة ١٩١٩ عن تاريخ اليونان، وهو الموضوع الذى اختاره على مدار العام الجامعى كله، فاستعان بالجغرافية والخرائط التى كان يشير إليها وحده بلا معين — على الرغم من ظروف عاهته - مما انتزع إعجاب الكبراء والمسؤلين والطلاب

والحق أن تأثر طه حسين بالثقافة اليونانية والأدب اليونانى قد أخذ يظهر بجلاء فى إنتاجه التأليفى. فقد سبق كتابه عن «نظام الأثينيين» الذى نقله عن أرسطو والذى صدر سنة ١٩٢١ كتاب قبله صدر سنة ١٩٢٠ - أى بعد عودته من فرنسا بعام واحد - وهو كتاب: (صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان) الذى صدر عن مطبعة الهلال.

وإذا كان هذا هو الكتاب الأول الذى أخرجه طه حسين فى موضوع يتصل بالأدب اليونانى، والشعر التمثيلى عند اليونان، فقد سبق ذلك (دروس فى التاريخ القديم فى الجامعة المصرية) وهى الدروس والمحاضرات التى ألقاها على طلابه فى الجامعة ما بين سنتى ١٩١٩، ١٩٢٤ حيث صارت الجامعة القديمة جامعة حكومية بعد أن كانت جامعة أهلية، سنة ١٩٢٥، فعين طه حسين فى الجامعة الجديدة أستاذاً لتاريخ الأدب العربى فى كلية الآداب (١).

ومن هنا نعرف أن ظهور الشخصية اليونانية فى مؤلفات طه حسين ودراساته كان فى مجال التاريخ لليونان أولا، ثم تلاه بعد ذلك دراسة الشعر التمثيلى عند اليونان بعرض نماذج منه مترجمة بقلمه، ومصوغة فى قوالب أدبية عالية، ثم جاء بعد ذلك كتاب «نظام الأثينيين» الذى ترجمه عن أرسطو، فكان أول ترجمة عربية لهذا الكتاب الذى استكشفت أصوله الخطية على أوراق البردى فى بعض المقابر بمصر سنة ١٨٩١، حيث نقل إلى المتحف البريطانى يومئذ، وأخذ الباحثون الأوربيون يشتغلون بترجمته إلى لغاتهم، إلى أن جاء

---

(١) الى طه حسين . ص ١٤ .

الدكتور طه حسين بعد ثلاثين عاماً من كشف هذا المخطوط الثمين فنقله إلى لغة الضاد ...

وإذا كان عام ١٩١٩ قد شهد فى مصر وفى المكتبة العربية مولد محاضرات طه حسين ودروسه فى تاريخ اليونان ، فإن هذا العام نفسه أيضاً قد شهد فى مصر مولد كتاب : (الظاهرة الدينية عند اليونان ، وتطور الآلهة ، وأثرها فى المدنية) . وقد نشر ضمن كتاب (آلهة اليونان) ، وطبعته مطبعة المنار سنة ١٩١٩ فى ست وتسعين صفحة . وقد سقط هذا الكتاب من (معجم المطبوعات العربية) ليوسف سركيس ، كما سقط من الجزءين الملحقين به وعنوانهما : (جامع التصانيف الحديثة) ، لولا أن أشار إليه جامع كتاب : (إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين) ، الصادر عن دار المعارف سنة ١٩٦٢ ، وكتاب (طه حسين بين أنصاره وخصومه) لجمال الدين الألوسى وهو يعقد ثبتا خاصاً بمؤلفات الدكتور طه حسين

وحين أصبحت الجامعة المصرية الأهلية حكومية تابعة لوزارة المعارف سنة ١٩٢٥ ، وعين طه حسين أستاذا لتاريخ الأدب العربى فيها ، كان استهلال إنتاجه فى الفكر اليونانى والرومانى كتابه (قادة الفكر) الذى صدر عن مطبعة الهلال سنة ١٩٢٥ ، ثم أعيد طبعه بعد ذلك مرارا . ولقد حاول طه حسين — بما له من نفوذ أدبى وصلات مع المسئولين فى وزارة المعارف — أن يقرر دراسة هذا الكتاب فى المدارس ، تعميما لنشر دراسات عن الفكر اليونانى ، خاصة بين طلاب المدارس ، فطبع الكتاب طبعات مدرسية مضبوطة بالشكل التام .

والحق أن هذا الكتاب قد عرّف شداة الأدب والفكر فى مصر والعالم برجال من اليونان والرومان من أمثال الشاعر هوميروس صاحب «الألياذة» ، والفلاسفة سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، والحاكم الفاتح إسكندر المقدونى ، والحاكم الغازى الرومانى يوليوس قيصر .

وقد يقال لأول وهلة : وما دخل الأسكندر ، ويوليوس قيصر فى الفكر اليونانى والرومانى ؟ .

وقد أثار طه حسين نفسه هذا السؤال بقوله : (لعلك تعجب حين تراني أحدثك عن الأسكندر الفاتح ، في كتاب يبحث عن قادة الفكر . ولعلك تسأل : ما بال قائد من قواد الجيوش يخلط بهؤلاء الذين لم يتسلطوا إلا على العقول ؟) (١) وقد أجاب عن هذا التساؤل بتقريره بأن الأسكندر لم يكن قائد جيش ليس غير ، وإنما كان قائد فكر قبل كل شيء، وبعد كل شيء ، وفوق كل شيء . (٢) ... فالإسكندر لم يكن يريد فتح الأرض والبلاد وحدها، ولكنه أراد مع هذا أن يفتح العقول ، فقارب بين الشرق والغرب في التفاهم والتعاطف ، ومزج العقل الشرقي بالعقل الغربي ، وكان عمله في نشر الفلسفة اليونانية في أقطار الأرض كلها عملا يؤهله لأن يكون أشد قادة الفكر القدماء إنتاجا ، وأكثرهم نفعا ..

ولا يقل يوليوس قيصر عن الأسكندر شأنا في هذا المجال ، فهو مكمل للاسكندر في نشر الفكر اليوناني الذي ورثه الرومان عن اليونان .

والحق أن كتاب (قادة الفكر) لطه حسين قد عرف القراء العرب بالثقافة اليونانية ، وبالفكر اليوناني تعريفا واضحا دقيقا. وإذا كان بعض الحكماء ومؤرخي الفلسفة العرب قد ترجموا لنا سير عشرات من رجال الفكر اليوناني والأجنبي القديم ، كالذي فعله « القفطي » في كتابه (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) ، وكالذي صنعه ابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) ، فأن طه حسين استطاع -في فهم عميق للتاريخ اليوناني والحضارة الأغريقية - أن يعرض لنا الفكر اليوناني مجلوا أحسن جلاء ، مع بيان اتجاهاته وتطوره ، وقيمه العالية ، والظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت به أو أثرت فيه .

ولم يجعل الدكتور طه حسين كتاب (قادة الفكر) آخر إنتاجه الفكري فيما يتصل بالأدب اليوناني والثقافة اليونانية ، ففي سنة ١٩٣٩ - والحرب العالمية الثانية تبدأ نذرها للعالم بشر مستطير - نراه يصدر كتابه : (من الأدب

---

(١) قادة الفكر - طبعة سنة ١٩٣١ ص ٢٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٩ .

التمثيلي اليوناني : سوفوكليس) الذى صدر عن دار المعارف ، ويتناول هذا الكتاب ترجمة ست مسرحيات لسوفوكليس شاعر المأساة اليونانية المشهور ، والذى توفى سنة ٤٠٦ ق-م . ولا أدرى ما الذى حدا بالدكتور طه حسين أن يصدر هذه التمثيليات دون أن يعرف القراء بالشاعر اليونانى الذى ألفها ؟ فلقد كان الناس ينتظرون تعريفا وترجمة ودراسة لهذا الشاعر ولسيرة حياته . ولو أنه فعل لكان ذلك خيرا كثيرا ، ولعله اكتفى بترجمة الأثر ، عن الترجمة والتعريف بالمؤثر نفسه ...

ولم يكتب طه حسين لهذا الكتاب مقدمة تكشف عنه للقراء الذين لا يعرفون شيئا أو يعرفون قليلا عن المسرح اليونانى ، ولم يكتب فى صدر كل تمثيلية من التمثيليات الست تلخيصا لها أو تعريفا بها، ولكنه اكتفى بكتابة أسماء أشخاص المسرحية وزمانها ومكانها فى سطور. ما عدا بعض التمثيليات التى عرّف بها – فى أولها – تعريفا وجيزا، كما فعل فى تمثيلية « أياس » ، و« أوديبوس ملكا » ، و « أوديبوس فى كولونا » ، و « فيلوكتيتس » .

ويمتاز أسلوب طه حسين فى ترجمة هذه التمثيليات بالرشاقة والسهولة والتأنق فى العبارة ، حتى تكون ملائمة لقيمة هذه الروائع الفنية ، على حد ما يفعل النقلة والمترجمون حين يتأنقون فى نقل الآثار الأدبية .

ولعل نقل التمهيد الذى كتبه طه حسين لتلخيص تمثيلية « فيلوكتيتيس » يعطى القارىء فكرة عن طريقته فى التلخيص حيث يقول : (كان فيلوكتيتس ابن بياس صديقا لهيرقل بطل اليونان المعروف، شهد موته ، وأعانه عليه ، وورث قوسه وسهامه . وقد سافر مع الجيش اليونانى لحرب طروادة ، فلما كان فى بعض الطريق لدغته حية فى إحدى رجليه ، وعمل السم فى رجله ، حتى جعلت تنبعث منه رائحة كريهة مؤذية . فضاق به اليونان ، وظنوا أن الآلهة أرادت به شرا، وأزمعوا أن يخلصوا منه ، فكلفوا أوديسيوس أن ينقله أثناء نومه إلى جزيرة لمنوس ، وأن يتركه فيها وحيدا ، ففعل . وأقام فيلوكتيتيس فى هذه الجزيرة الخالية عشر سنين، شقيا بآلامه ووحدته. ثم أوحى الآلهة إلى اليونان أن طروادة لن تؤخذ إلا إذا عاد فيلوكتيتيس

إلى الجيش ، وشارك فى الحرب بسهام هيرقل . فكلف اليونان أودسيوس أن يذهب إلى الجزيرة ليأتى بهذا الطريد ، فذهب ومعه نيوبتوليم بن أخيل ، وامتنع فيلوكتيتيس عليهما ، ثم انتهى باتباعهما ، والقصة تمثل ما كان من محاولة أودسيوس حمل فيلوكتيتيس إلى طروادة ، وامتناع فيلوكتيتيس أول الأمر واستجابته أخيرا ...) (١)

ومن الحق أن نقول إن طه حسين قد اهتم بالشخصيات اليونانية القديمة فى المجالات المختلفة ، فهو يولى الفلاسفة من أمثال سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو كثيرا من عنايته واهتمامه . وقد بلغ من إعجابه بمفكر عظيم مثل أرسطو أن يترجم له فى كتابه (قادة الفكر) ترجمة عظيمة شاملة ، كما ترجم له فى كتاب (نظام الأثينيين) ترجمة أخرى مفصلة فى بضع وثلاثين صفحة من الكتاب الذى ألفه هذا الفيلسوف الكبير .

ولقد كشف طه حسين نواحى جديدة من أرسطو لم تكن معروفة من قبل . فزاد على مكانه العظيم فى الفلسفة مكانه فى علم السياسة ، حيث عرف اليونان منه رجلا آخر لم يكن يعرفه أهل القرون الوسطى ، رجلا قد حاول درس الظواهر الاجتماعية فى المجتمع البشرى ، بنفس المنهج الذى كان يدرس به الظواهر الطبيعية ، والنفسية ، وما بعد الطبيعة . كما كشف طه حسين – نقلا عن الباحثين فى التاريخ القديم – مكانة أرسطو فى إتقان النقد الأدبى .

والحق أن تعبيرنا عن طه حسين بأنه كشف هذه النواحى فى أرسطو هو تعبير بعيد عن الدقة العلمية . والأولى أن نقول إن طه حسين قد نقل إلى القراء العرب المحدثين اكتشاف الباحثين الغربيين لنواح جديدة من الرجل الذى أطلق عليه العرب اسم : المعلم الأول .

وكذلك نقل طه حسين عن علماء الغرب قيمة أرسطو فى البيان والخطابة والتاريخ . ونستطيع أن نقرر فى اطمئنان أن الدكتور طه حسين بترجمته كتاب (نظام الأثينيين) كان أول من دلنا من المفكرين العرب على مكانة الفيلسوف أرسطاطاليس فى التاريخ .

---

(١) من الأدب التمثيلى اليونانى – ص ٣٣٣ .

ولا يهتم طه حسين فى الفكر اليونانى بالفلاسفة وحدهم ، فهو عظيم الاهتمام بشاعر مأسوى مثل سوفوكليس وينقل إلى العربية بضعا من تمثيلياته .

وهو عظيم الاهتمام بكاتب من كتاب السير والتراجم مثل « بلوتارك » -أو « فلوترخس » كما عربه طه حسين - صاحب كتاب (العظماء) : (الذى ترجم فيه لعظماء الرجال من اليونان ، والذى كان له فى العصر القديم ، وفى القرون الوسطى ، وفى أول هذا العصر الحديث ، أثر لا يكاد يعدله أثر ، والذى ما نزال نقرؤه الآن بلذة لا تعدلها لذة ، وعناية لا تشبهها عناية ....) (١) .

ومع تنبه الدكتور طه وتنبيهه إلى القيمة العلمية لكتابات بلوتارك فى التاريخ والتراجم ، فإنه فاته أن يشير إلى نزاهته التامة وحيدته المطلقة وهو يترجم للشخصيات الرومانية بجانب الشخصيات اليونانية . ومع أن الرجل كان يونانيا بأصله ومولده ، وكان يعتز بهذا النسب ، فأنه آثر النزاهة حين تحدث عن شخصيتين متوازيتين ، إحداهما يونانية ، والأخرى رومانية ، وكان يعقد بين كل شخصيتين موازنة دقيقة نزيهة فى كتابه المشهور : (حيوات متوازية) .

ولقد بلغ من شغف طه حسين بالثقافة اليونانية ، والأدب اليونانى ، واهتمامه البالغ بهما أنه استقبل مسرحية (براكسا ، أو مشكلة الحكم) للأستاذ توفيق الحكيم بترحاب بالغ عظيم . وفرح لأن الحكيم أخذ مسرحيته عن الأدب التمثيلى اليونانى ، وحمد الله على محنة توفيق الحكيم - فى عصر من عصور الاستبداد فى مصر - لأنها أنتجت للأدب العربى مثل هذه المسرحية فى زمن كانت حرية الفكر فيه معطلة عند المصريين . ولنتركه فى نص عبارته يقول عن هذه المسرحية : (فلنحمد لمحنة الأستاذ توفيق الحكيم هذه اليسيرة ، فضلها على الأستاذ وعلى قرائه ، وعلى الأدب العربى الحديث ، الذى أخذ يتصل بالتمثيل اليونانى المضحك هذا النحو الخصب القيم من الاتصال . ولنتمن

---

(١) قادة الفكر - ص ٧ ، ٨ .

على الله أن يزيد هذا الاتصال ويقويه ، وأن يكثر أمثال هذه القصة دون أن تدعو إلى ذلك محنة يسيرة أو عسيرة للأستاذ أو لغيره ، فى حرية الرأى ، وإن كان كل شىء يدل على أن حرية الرأى لم تأمن بعد شر الامتحان ، وعلى أن هذا الامتحان — مهما يكن مؤلما ثقيلا — فهو ينتج خيرا ، لأنه يدفع الأديب إلى التفكير ، ثم إلى التعبير ، ثم إلى النشر) (١) .

ثم أخذ الدكتور طه حسين بعد ذلك يستعرض قصة أرستوفان أعظم شعراء الملهاة عند اليونان ، ويستعرض قصة توفيق الحكيم التى جرى فيها على نهج أرستوفان. وندعه يقول فى هذا المعرض بنص عبارته : (فلنقف إذن عند هذه القصة القصيرة ، بل لنقف قبل ذلك عند أصلها اليونانى . فقد طلب إلينا الأستاذ توفيق الحكيم أن نقرأ قصة أرستوفان قبل أن نقرأ قصته . وقد عدت إلى قصة أرستوفان بعد طول عهدى بها ، ثم قرأت قصة الأستاذ توفيق الحكيم ، فحمدت للأستاذ تواضعه واعتداله ، وإيثاره القصد ، واعترافه بأنه لايستطيع أن يقيس قامته إلى قامة أرستوفان ...) .

وأخذ طه حسين بعد ذلك يبين مرامى أرستوفان وأهدافه من هذه القصة ، التى أراد بها أن يسخر من الديمقراطية ومن الفلسفة معا ، وأن يجعل أهل أثينا يضحكون من أحب الأشياء إليهم ، وآثرها عندهم — أى من الفلسفة والسياسة . فسخر من أفلاطون وجمهوريته التى تمناها وتمثلها فى كتابه (الجمهورية) ، وسخر من سقراط فى قصة السحاب ، وسخر من النظم الديمقراطية القائمة وقتها فى بلاد اليونان .

وأخذ طه حسين — بعد ذلك — يبين مرامى توفيق الحكيم من قصته وهى فى الحق مرام واضحة لم تكن فى حاجة إلى تفسير ...

وبلغ من إعجاب الدكتور طه حسين بالثقافة اليونانية أنه كان يستحضر حوادثها ومروياتها ومأثوراتها فى الاستشهاد بها فى معرض الرد على خصومه حين يخاصمونه على القضايا التى كانت تشغل الناس فى وقته . فحين ناقشه

(١) فصول فى الأدب والنقد لطه حسين · ص ١٣٨ ·

المرحوم المؤرخ الجليل رفيق العظم على صفحات صحيفة « السياسة » سنة ١٩٢٣ -حول آرائه حول الشاعر أبى نواس ومن فى طبقته من شعراء المجون بأنهم كانوا مثالا صادقا للعصر العباسى الذى عاشوا فيه ، وأن أخبارهم صحيحة لا غبار عليها ، وأكد له أن هذا التصديق المطاق لكل خبر لا يصح للمؤرخ الممحص أن يسلم به، أو يسكت عليه – حين نشر رفيق العظم هذا الكلام رد عليه طه حسين بمقال فى السياسة أيضا يذكر له فيه رسالة صغيرة قرأها للمؤرخ اليونانى « بلوتارك » – وقد رسمه طه حسين هذه المرة على هذه الصورة بدلا من : فلوترخس ، الذى رسمه عليها فى كتابه : قادة الفكر ، – يقول فيها : (ولقد أذكر رسالة صغيرة قرأتها للمؤرخ اليونانى « بلوتارك » Plutarque قصد بها إلى نقد « هيرودوت » Herodote واتهمه فيها بالكذب والافتراء . وكان لهذه الرسالة فى العصر القديم شهرة أساءت إلى « أبى التاريخ » ، فظن فيه الناس الظنون ، لأنه اتهم قدماء اليونان وأبطالهم فى الحرب الفارسية اليونانية بالنقائض المختلفة ، فوصف بعضهم بالخيانة ، وبعضهم بالغدر ، وبعضهم بالجبن ، وبعضهم بالرشوة ونهض بلوتارك للدفاع عن هؤلاء الأبطال ، فزعم أن « أبا التاريخ » «كاذب وأن هؤلاء الأبطال أرفع مكانة ، وأعلى منزلة ، وأجل خطرا من أن يقعوا فى مثل هذه الآثام . وفتن اليونان بهذا النقد ، لأنه يبرىء الآباء والأجداد من هذه النقائص . فلما كان العصر الحديث ، وكان استكشاف الآثار اليونانية وكان استكشاف مناهج النقد الحديثة فى التاريخ، ظهر أن «هيرودوت» لم يكذب ، ولم يتكلف ، وأن «بلوتارك» هو الذى تكلف تقديس الناس وتبرئتهم مما لا يبرأ منه الناس. وليس هذا بغريب، فقد عاش «أبو التاريخ» فى أيام مجد اليونان وعزتهم ، فلم يكن يؤذيه ، ولم يكن يؤذى اليونان ، أن يصف أبطالهم بما لا يسلم منه الناس من العيوب. وعاش «بلوتارك» أيام ذلة اليونان وانحطاطهم السياسى ، فكانت هذه النقائص تؤذيهم ، وكانوا محتاجين إلى المبالغة فى مجدهم التليد حين أعوزهم المجد الطريف ..)(١)

---

(١) حديث الأربعاء لطه حسين – جزء ٢ ص ٦٥ ، ٦٦ .

ونحن هنا لا نثير هذه القضية لنكشف عن صواب ما ذهب إليه طه حسين من رأى أو خطئه ، فلذلك مقام غير هذا المقام ، وقد تولاها المرحوم رفيق العظم بك بالدفاع المجيد عن وجهة نظره التى اتفق الناس فى حينها على أنها وجهة صحيحة . ولكننا سقناها هنا للتدليل على استفادة الدكتور طه حسين من مسائل الفكر اليونانى والتاريخ اليونانى ليدافع بها عن وجهات نظره أمام خصومه فى الرأى .

وليس أدل على سلامة وجهة نظر المرحوم المؤرخ رفيق العظم من أن المرحوم إبراهيم عبد القادر المازنى دخل طرفا آخر فى القضية المثارة بين الرجلين ، وحمل على طه حسين حملة شديدة غير هينة ولا رفيقة ، وتساءل لماذا يحاول الدكتور طه أن يجسم فضائح عصر من أزهى عصور الحضارة العربية والإسلامية بدعوى أنه يجرى على نحو من أنحاء الأدب الغربى — بالغين المعجمة — ولماذا يختار هذه الجوانب المنحطة من الحياة العربية ، ويترك الجوانب المشرقة الوضيئة ، إلا إذا كان ذلك عن عمد مقصود لا مجال فيه للتأول والإحالة على مجرد المصادفات والاتفاق (١) .

وكثيرا ما بلغ إعجاب الدكتور طه حسين بالثقافة اليونانية واللاتينية حدا نادى فيه نداء عاليا مجلجلا بوجوب تعلم لغة اليونان والرومان القدماء ، لا فى المعاهد العالية والجامعات وحسب ، بل فى التعليم العام ، ويعنى به التعليم الثانوى . وفى هذا الشان صرح بقوله : (أنا مؤمن أشد الأيمان بأن مصر لن تظفر بالتعليم الجامعى الصحيح ، ولن تفلح فى تدبير مرافقها الثقافية الهامة ، إلا إذا عنيت بهاتين اللغتين ، لا فى الجامعة وحدها ، بل فى التعليم العام قبل كل شىء ، لأن اللاتينية أساس من أسس العلم والتخصص ؛ ولأن التعليم العالى الصحيح لا يستقيم فى بلد من البلاد الراقية إلا إذا اعتمد على اللاتينية واليونانية ، على أنهما من الوسائل التى لا يمكن إهمالها والاستغناء عنها ...)(٢) .

---

(١) قبض الريح — لابراهيم عبد القادر المازنى .

(٢) طه حسين بين أنصاره وخصومه — ص ١٩٩ .

والدكتور طه حسين - رحمه الله - حر فى أن يرى من وجوب تعلم اللغات الأجنبية ، القديمة والحديثة ما يشاء ، ولكنه غير حر حين يرى أن يزحم التلاميذ فى التعليم العام ، والطلاب فى الجامعات العربية بلغتين قديمتين فوق زحمتهم بالإنجليزية والفرنسية ، مع إمكان التخصص لمن يشاء من الطلاب .

وبالطبع لم تقابل وجهات نظر طه حسين فى هذا المجال بالقبول عند كثرة من الباحثين والمثقفين العرب. فقد تصدى للرد عليه ومناقشة آرائه جماعة منهم المرحوم الأستاذ ساطع الحصرى ، مؤسسا رده على أن اللغتين اليونانية واللاتينية قد سادتا أوربا - حتى بعد انقراض حضارة الأغريق وحضارة الرومان - لعوامل كثيرة ليس لها مجال فى بلادنا العربية ، ولا ضرورة لها ، ومن تلك العوامل أن (اللاتينية كانت لغة روما فى القرن الأول ، غير أنها صارت بعد ذلك لغة الطبقة المدبرة والمستنيرة فى جميع أنحاء أوربا الغربية عندما دخلت تحت حكم روما ، كما أصبحت لغة الدين والصلاة فى تلك البلاد عندما اعتنقت الديانة المسيحية ، وأخيرا صارت من دعائم الكنيسة الكاثوليكية عندما تكونت الكنيسة المذكورة ، وأخذت تبسط سلطاتها على جميع الدول والدويلات التى تدين بها . أما اليونانية فقد حافظت على كيانها فى معظم البلاد التى انتشرت فيها بالرغم من استيلاء الرومان عليها ، كما أنها أصبحت لغة الدولة بعد انفصال الشرق من الغرب ، وتكون الأمبراطورية الشرقية مستقلة عن الأمبراطورية الرومية الغربية ، كما أصبحت لغة الدين والصلاة فى العالم الأرثوذكسى عندما اعتنقت الإمبراطورية المذكورة الديانة المسيحية . وأخيرا ، وبهذه الصورة ، تقاسمت اللغتان اللاتينية واليونانية السيطرة على الحياة الدينية فى أوربا المسيحية ، فأصبحت الطقوس والصلاة المسيحية تحت احتكار اللاتينية فى أوربا الغربية فى جميع البلاد التى اعتنقت المذهب الكاثوليكى ، وتحت احتكار اليونانية فى أوربا الشرقية فى جميع البلاد التى اعتنقت المذهب الأرثوذكسى . أما الحياة الأدبية فى القرون الوسطى فمن المعلوم أنها لم تجد من يزاولها ويهتم

بها إلا من بين رجال الدين ، فعاشت وترعرعت تحت ظلال الكنائس ..)(١)

ولم يسكت الدكتور طه حسين عن المطالبة مرة ومرة بتعليم اللغتين اليونانية واللاتينية ودرسهما فى المعاهد . فحين أصدر كتاب (نظام الأثينيين) الذى ترجمه عن أرسطو كتب له مقدمة طويلة أبدى فيها أسفه وخجله لأن الأصل المخطوط لهذا الكتاب اكتشف فى مصر سنة ١٨٩١ م مكتوبا على البردى باللغة اليونانية القديمة ، ولكن قراءة هذا الأصل غير ميسورة ولانافعة إذ ليس من طلبة الجامعة المصرية من ألم بهذه اللغة . . . . . . (فمالى لا أفسر لهم ترجمته العربية ، إذا كان الشقاء قد قضى علينا ألا نعنى باللغات القديمة ، ولا نحفل بدرسها) (٢) .

وهكذا نرى الدكتور طه حسين يعد عدم تعليم اليونانية واللاتينية فى معاهد مصر شقاء يدعو إلى الخجل والحسرة . . .

ولم يقف طه حسين عند اليونانية واللاتينية بالقدر الذى بلغه فى أثناء دراسته بجامعتى باريس ومونبلييه ، ولم يجعل لما درسه منها نهاية يقف عندها ، بل أخذ منذ عودته من فرنسة يصل متابعاته القراءة لما استجد من الدراسات والكتب فى هذا الميدان . ففى سنة ١٩٢٥ – أى بعد عودته من أوربا بست سنوات – يكتب كتابه « قادة الفكر » – كما سلف القول – ونقرأ نحن فى سطور هذا الكتاب أنه مشغول بكتاب ظهر فى تلك الأيام موضوعه تاريخ الفكر اليونانى لأستاذ من علماء هذا الميدان فى فرنسة اسمه المسيو « ليون روبان » ، ويعلن أن (هذا الكتاب الضخم القيم ليس أول كتاب ظهر فى هذا الموضوع ، ولن يكون آخر كتاب ، بل ليس هو الكتاب الوحيد الذى ظهر فى هذه الأيام من نوعه . وإنما هناك كتب كثيرة ظهرت ، وتظهر وستظهر فى هذا الموضوع ، لأن الأوربيين يتخذون هذه القاعدة قانونا لهم ، وهى أن ليس إلى فهم الحياة الحديثة على اختلاف وجوهها من سبيل إلا إذا فهمت مصادرها الأولى ومصادرها الأولى هى الحياة اليونانية من جهة ،

---

(١) طه حسين بين أنصاره وخصومه – ص ٢٠٠ .

(٢) نظام الأثينيين ص ٨ .

والرومانية من جهة أخرى ، أوقل : هى الحياة اليونانية ، لأن حياة الرومان كانت — من أكثر وجوهها — متأثرة بالحياة اليونانية (١) .

وقد يقول قائل ، أو يعترض معترض ، بأنه مالنا — نحن المصريين أو العرب — بالحياة الحديثة التى تأثرت بعصلرها الأول فى الحياة اليونانية ؟ وقد فطن الدكتور طه إلى أن سؤالا مثل هذا قد يقوم فى نفس القارىء فقال مرسلا الحديث : (وإذا كنا قد أخذنا فى هذا العصر الحديث نسلك سبيل الأوربيين لا فى حياتنا العقلية وحدها ، بل فى حياتنا العملية على اختلاف فروعها أيضا، فليس لنا بد من أن نسلك سبيل الأوربيين فى فهم هذه الحياة التى استعرناها، أقول : إننا أخذنا فى هذا العصر الحديث نسلك السبيل الأوربية فى جميع فروع الحياة، ونعدل عن حياتنا القديمة عدولا يوشك أن يكون تاما . وأحسب أنك لن تطالبنى بالدليل على ذلك ، فأنت فى المدرسة تتعلم العلم الأوربى ، وأنت إذا قرأت تقرأ العلم الأوربى ، وإذا فكرت فعلى النحو الأوربى ، وأنت فى بيتك وفى صلاتك المختلفة تسلك المسلك الأوربى ، وأنت فى حياتك السياسية وفى نظامك الأدارى والاجتماعى تنهج المنهج الأوربى . وما أحسب أننا نكتفى من هذه الحياة بتقليد القردة، وإنما أعلم أننا نريد أن نتخذها حياة لنا عن فهم وبصيرة . وإذن فلنفهمها قبل كل شئ ، ولنتبين — إذا كان الأمر كذلك — كيف كانت حالة الفكر فى تلك العصور اليونانية الخصبة ، وكيف كانت قيادة الفلسفة إياه . ولنبدأ من هؤلاء الفلاسفة الذين أشرفوا على قيادة الفكر اليونانى ولا يزالون يشرفون على قيادة الفكر الإنسانى بأبيهم وزعيمهم جميعا : سقراط (٢) .

وبمناسبة الحديث عن (قادة الفكر) ، وموضوعه قادة الفكر عند اليونان والرومان ، نستطرد قليلا ، ونستأذن القارىء الكريم فى هذا الاستطراد لنتحدث عن المنهج الذى اتبعه الدكتور طه حسين فى الترجمة لقادة الفكر ، فهو لم يسلك المذهب الفردى الذى يتصل بحياة الأشخاص والأفراد اتصالا مطلقاً ، ويهمل نواحى المجتمع الذى أنجبهم وعاشوا هم فيه ، لأن الآراء

(١) قادة الفكر — ص ٥٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٤ ، ٥٥ .

والآداب على اختلافها ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية ، أى أنها أثر من آثار الجماعة التى نبتت فيها أكثر من أن تكون أثرا من آثار الفرد الذى اتخذها .

وهو لم يسلك المذهب الجماعى الذى يغالى فى تقدير الجماعة والمجتمع ويضيف كل أثر إليها وحدها ، حتى ليكاد الفرد يضيع أو ينسى فى خلال الجماعة نسياناً تاماً . . .

ولكن طه حسين سلك مذهباً بين الاثنين ، فلم يهمل المجتمع على حساب الفرد ، ولم يغفل عن الفرد على حساب الجماعة .

وكان من الفضل لطه حسين فى هذا المجال أنه تأثر به قوم من كتاب التراجم والسير المعاصرين ، فاعتدلت كفتا الميزان فى أيديهم بين تقدير الفرد وتقدير المجتمع .

ومن الحق أن نقول إن الدكتور طه حسين فى مؤلفاته التى عالجت موضوعات الفكر والأدب والثقافة اليونانية على العموم قد أثار كثيراً من المسائل التى تتصل بهذا المجال ، وخاصة فى ميدان الشعر وتطوره إلى غناء وقصص وتمثيل ، وفى تحول الفكر اليونانى من عبادة الأشياء ورهبتها إلى محاولة فهمها ، وفيما أخذته اليونان عن الشرق القديم من حضارة واعترافها بجميله ، وفى فضل الحكام الفاتحين من أمثال الاسكندر المقدونى ، ويوليوس قيصر الرومانى على الفكر العالمى ، بمحاولة التقريب بين الشرق والغرب ، وفى التعرض للحديث عن شخصية هوميروس صاحب الألياذة ، وهل هو شخصية حقيقية أم خرافية ، وغير ذلك من أمثال هذه المسائل التى شغف بها القارىء العربى الذى لم يكن يعرف عنها شيئاً .

ففى مجال الحديث عن الشاعر اليونانى هوميروس يعرض لنا طه حسين عن صنوه فى العاهة صورتين : أولاهما يونانية ، تمثل لنا هوميروس بطلا أسطورياً من الأبطال نشأ من علاقة زواج بين نهر من أنهار آسيا الصغرى وبين امرأة من عامة النساء ، وتقص علينا من أخباره قصصا تثير الإعجاب

ولكنها لا تحمل على التصديق بها . وثانيتهما صورة أخرى صورتها أوربا فى القرن التاسع عشر لهذا الشاعر ، تمثله رجلا عادياً من الرجال وواحداً من البشر ، لا مجال للأسطورة فيه . على أن آخر ماتمثله أوربا من الصور لهوميروس هو إنكار شخصيته تماما ، وأنه ما هو إلا تجسيد للأمة اليونانية كلها فى مرحلة بداوتها . وأن الألياذة والأوديسة ليسا من عمله وإنما من عمل الأمة اليونانية كلها .

وفى مجال الحديث عن بداوة اليونان وبداية الشعر فيها يحدثنا الدكتور طه حسين فى كتابه (قادة الفكر) عن نشأة الشعر فى اليونان وعن الشعراء الذين كانوا قادة الفكر فى أثناء البداوة اليونانية ، كما كانوا فى بلاد العرب قبل الإسلام . وكيف كان الشاعر فى قصصه يغنيه ويلحنه، وكيف كان الناس يستمعون إليه فى لذة واستمتاع ، وكيف كانوا يروون عنه أناشيده الجميلة الرائعة وهم فى مرحلة البداوة من حياتهم ، إلى أن تحضرت البلاد ، فأخذت حكوماتها المنظمة تعنى بهذه الأشعار الملحنة المغناة وتهتم بتلوينها . . .

وتطور الشعر القصصى فى بلاد اليونان إلى شعر غنائى يتغنى بالعواطف الأنسانية المختلفة ، ولا يقتصر على القصص ، ثم تطور القصص والغناء فى الشعر وبالشعر إلى التمثيل فى الملاعب . ولم يجد الناس صعوبة فى إيجاد شعر جديد يصلح للتمثيل على المسارح ، فلجأوا إلى الشعر القصصى القديم ووجدوا فيه استجابة لمطالبهم .

وتطور الشعر والغناء والتمثيل بتطور الأمة إلى فلسفة وحكمة ، ولكن هذه الفلسفة لم تطرد الشعر القصصى القديم ، ولم تجعل الناس ينصرفون عنه ، لأنه كان مستودع المثل العليا فى الأخلاق والحياة الإنسانية الساذجة البريئة ..

ومازال الناس فى الغرب إلى يومنا هذا يلتمسون نماذجهم عند شعراء اليونان ، فإذا هم ينشئون قصصهم وقصائدهم على نحو ما كان يفعل اليونان متأثرين بالألياذة والأوديسة ، ولم يكتف الأوربيون فى زماننا هذا بهذا

التقليد والأخذ ، بل أخذوا يترجمون القصص اليونانية القديمة إلى لغاتهم ويمثلونها على مسارحهم . . . (١)

ولم يفت الدكتور طه حسين فى معرض الحديث عن هذه المسائل اليونانية والرومانية ، أن يتحدث عن العلاقة بين اليونان والشرق المتحضر، فقرر أن الشرق كان قد بلغ درجات عالية من الحضارة الراقية فى الوقت الذى كانت فيه اليونان أمة بدوية ساذجة تستمع إلى الشعر القصصى والغنائى وتعجب به ، وتطرب له .

وكان تبادل الأفكار والعلوم والثقافات متبادلا بين الشرق القديم وبلاد اليونان القديمة وخاصة حين أخذت هذه فى أسباب الحضارة والمدنية على سنة الأمم دائما حين تأخذ من غيرها وتعطى .

(فأخذ اليونان عن الشرقيين أشياء كثيرة ، ولكنها عملية مادية كما قلنا، أخذوا عنهم — مثلا — نظام النقد ، وأخذوا عنهم نظام المقاييس، وأخذوا عنهم شيئا من الموسيقى ، وتعلموا منهم فنونا عملية كالحساب والهندسة . ولكنهم لم يأخذوا عنهم شيئا عقليا يذكر. فلئن كان البابليون قد رصدوا النجوم ووصلوا من ذلك إلى نتائج قيمة ، فهم لم يضعوا علم الفلك ، وإنما هذا العلم يونانى ، لم ينشأ عن النتائج البابلية ، وإنما نشأ عن البحث اليونانى والفلسفة اليونانية . ولئن كان المصريون قد وصلوا إلى نتائج قيمة من الهندسة العملية والآلية ، فليس المصريون هم الذين وضعوا علم الهندسة ، وإنما اليونان هم الذين ابتكروه ابتكارا . . . .)(٢) .

ولكن كان عند اليونان شيء آخر غير الفنون العملية ، امتازوا به ، وخصوا بهم وحدهم من دون أمم الأرض جميعا ، كان عندهم (المذاهب الفلسفية المختلفة التى حاولت منذ القرن السادس قبل المسيح فهم الكون وتفسيره وتعليله ، ثم نجد عندهم هذه الفلسفة، فلسفة مابعد الطبيعة ومانشأ عنها من أنواع البحث التى نظمت العقل الأنسانى ، ولا تزال تنظمه إلى الآن .

(١) قادة الفكر ص ٢٢ الى ص ٢٨ .

(٢) قادة الفكر ص ٤٨ ، ٤٩ .

ثم نجد عندهم هذه الفلسفة الخلقية التى أنشأت علم الأخلاق والتى لم يعرفها العالم القديم من قبل . .) (١) .

ويضيف الدكتور طه حسين إلى ماعند اليونان من أشياء لاتوجد فى الشرق القديم (هذا التطور السياسى الخصب ، الذى أحدث النظم السياسية المختلفة فى المدن اليونانية من ملكية وجمهورية وأرستقراطية وديمقراطية معتدلة أو متطرفة ، والذى لايزال أثره قويا فى أوربا إلى اليوم والذى أخذ الشرق يتأثر به فى نظمه السياسية أيضا . . .) (٢)

وعلى حين كانت هذه النظم السياسية المختلفة متعاقبة على بلاد اليونان أو سائدة فيها ، كان الشرق القديم يسوده نظام سياسى واحد يخضع له تمام الخضوع لم يتغير ولم يتبدل ، وهو نظام الملكية المطلقة المستبدة الذى لابقاء معه لحرية الأفراد والجماعات ، بل تذوب فيه قدرة المحكوم ومقدراته فى سلطان الحاكم .

والحق أن اليونان وثقافتها المتنوعة وأدبها وتاريخها وفنونها ظلت تراود فكر طه حسين منذ دراسته التاريخ القديم فى فرنسة وحتى عودته منها ، وبعد عودته واستقراره فيها بزمان طويل . وقد لانعدو الحق إذا قلنا أنها ظلت تراوده طول حياته .

فى رحلة للدكتور طه حسين إلى أوربا فى ربيع سنة ١٩٤٨ طاف ببلاد كثيرة فى طريقه إلى فرنسة وإيطالية . وفى جوازه ببلاد اليونان وقف عند القلعة فى مدينة أثينا عاصمة تلك البلاد ، وقضى فيها ساعتين استحضر فيهما كثيرا من الذكريات عن ماضى اليونان خلال ثلاثة قرون من عمر الزمان . وخشية أن يفسد الاقتباس ما نريد أن نرويه من كلام طه حسين فى هذا الصدد، فإننا نؤثر نقله كاملا بنص عبارته ، حتى يبقى للقارئ وجها لاستمتاع به . وما أرق الدكتور طه حسين وهو يحدثنا عن هذه الأطلال اليونانية قائلا : « ... وقضينا فى القلعة ساعتين، عشنا فيهما ثلاثة قرون كاملة . فاعجب أن شئت لثلاثمائة سنة

---

(٢) المصدر نفسه ص ٤٩ ، ٥٠ .

(١) المصدر نفسه _ ص ٥١ : ٥٢ .

تختصر فى ساعتين ، فهذه خصلة خص بها الإنسان، تتيح له أن يختصر الزمان أن شاء أن يختصره ، وأن يتجاوز الزمان إن أراد أن يتجاوزه ، وأن يخلص للماضى أو لقطعة من الماضى إن أحب أن يخلص لها ، وأن يمضى فى المستقبل إلى غير غاية ، وعلى غير هدى ، وأن يقف فى الحاضر لايعدوه إلى أمام،ولا إلى وراء، وأن يجمع إن شاء بين هذا كله فيغرق نفسه تغريقا . وقد تركنا المستقبل لمن بيده المستقبل ، وتركنا الحاضر للذين يشغلون بالحاضر ، وألغينا من الماضى ثلاثة وعشرين قرنا وأهملنا من الماضى قرونا أخرى لا تحصى سبقت هذا العصر الذى اخترناه ووقفنا عليه هاتين الساعتين . وألغينا من آماد المكان مثل ما ألغينا من آماد الزمان ، فتركنا الأرض القريبة والبعيدة ، وتركنا البحر والمحيط ، وتركنا الجو الذى يغمر البر والبحر ، ووقفنا عقلنا وشعورنا وحسنا على هذه القطعة الصغيرة من الأرض، فى هذه القطعة الصغيرة من الدهر وجعلنا نسعى مبطئين مترفهين ، ونقف متأملين متفكرين بين هذه الأطلال اليونانية ، لانعرف غيرها ، ولا تكاد هى تعرف غيرنا ، فقد سبقنا إليها أهل السفينة جميعا ، وبلغناها قبل أن يبلغها أحد ، فخلونا إليها وخلت ألينا ، وقلنا لها وقالت لنا ، وملأنا قلوبنا ، وانصرفنا عنها وقد ملأت علينا آفاق الأرض والسماء ، فذكرناها وسنذكرها مالمتدت لنا أسباب الحياة ، ونسيتنا هى وستنسانا كما نسيت أجيالا كثيرة وكما ستنسى أجيالا كثيرة مالمتدت لها أسباب البقاء . وكان الذين يكتفوننى من الأهل والرفاق يسعون من حولى وقد أخذت أبصارهم ، وسحرت عقولهم ، واستهويت قلوبهم ، وجعلت أفواههم وألسنتهم تنقل إلى بعض مايجدون بهذه الآهات الطويلة المتصلة ، وهذه الألفاظ القليلة المتقطعة التى ينطق بها المبهورون المسحورون حين يأخذ الأعجاب عليهم طريق الأبانة والأفصاح . وكنت أسمع لهم بإحدى أذنى ، أوبجزء يسير من إحدى أذنى ، وأعرض عنهم بعقلى كله ، وقلبى كله ، وضميرى . أتركهم لما يرون ، وأفرغ لما أجد وما أكثر ماكنت أجد ! وما أشد اختلاف ماكنت أجد ! فليس بالقليل على الأنسان المحدود أن يعيش فى هذه القرون الثلاثة فيشهد نشأة العقل ونمو الفن ، وحياة الشعور ، ويقظة الضمير . ويرى طريق الحضارة

والرقى ترسم للأجيال، وتقام فيها الأعلام تدفع إليها الإنسانية دفعا، ويقال لها هذه هي الطريق التي ستسلكينها راضية أوكارهة، راغبة أو راهبة ، لاتخرجين منها ولا تتحولين عنها ، مهما تلقى فيها من الخير والشر ، ومهما يعترضك فيها من النعيم والبؤس ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وحتى تطوى السماء كطى السجل الكتاب . . . .

فى هذه القرون الثلاثة ، وفى هذه القطعة الضيقة من الأرض التى يحيط بها الطرف فى أيسر الجهد ، ويطوف بها الأنسان فى أقصر الوقت ، عرف الإنسان أن له عقلا وشعورا وضميرا ، وأن له — من أجل ذاك كله — حقا فى أن يكون حرا كريما ، وأن عليه من أجل ذاك واجبا أن يرعى لنظرائه حقهم فى الحرية والكرامة والامتناع على الضيم .

فى هذه القرون الثلاثة من الدهر ،وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض نشأت الديمقراطية ، فعرف الأنسان أن سلطان الحكم لا يتنزل من السماء وأنما يخرج من الأرض ، وأن بين الحاكم والمحكوم عقدا اجتماعيا تصدره القوانين المكتوبة ، والمساتير التى تنقش فى القلوب أولا، ثم تكتب فى الصحف بعد ذاك .

وعرفت الإنسانية أن الناس سواء أمام القانون ،لايمتاز منهم فرد من فرد، ولا تتفوق منهم طبقة على طبقة ، ولا يتفاوتون فيما بينهم إلا بالعمل الصالح والبلاء الحسن .

واستطاع (سولون) أن يتغنى فى شعره الرائع بأنه حرر الأرض ، فلم تصبح وقفا على فريق من الناس دون فريق .

فى هذه القرون الثلاثة من الدهر ،وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض نظمت القوانين مايكون من الصلات بين الحاكمين والمحكومين، وردت القوانين إلى الشعب أمور الشعب ، وجعلت القوانين حكام الشعب خداما للشعب وفرضت القوانين على حكام الشعب أن يؤدوا إلى الشعب حسابا دقيقا عما نهضوا به من المناصب ، وما استقلوا به من الأعباء ، وما قاموا به من الأعمال

فى هذه القرون الثلاثة من الدهر ، وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض

نما الفن الرائع ، وزها الشعر البارع ، وازهر الأدب الرفيع وطوّف « سقراط » بفلسفته فى الشوارع والأزقة ، يعلم الناس — وهو يحاورهم — أن عليهم أن يعرفوا أنفسهم وأن يثقفوها وأن يهذبوها وأن يرفعوها من الصفو والعفو إلى حيث تطهر من دنس المنافع الوضيعة وتبرأ من أوضار الحياة الخسيسة ، وتعيش فى جو من الفضيلة لا تجد الرذيلة إليه سبيلا . ويعلم الناس — وهو يحاورهم — أن للأنسان ضميرا حرّا ليس لأحد سلطان عليه ، ولا ينبغى أن يكون موضوعا للمساومة ولا سلعة تعرض للتجارة . وأن حرية الضمير ، وحرية التفكير ، وحرية التعبير هى التى تجعل الأنسان إنسانا . فلما امتحن سقراط فى فلسفته هذه صبر للمحنة ، وثبت للفتنة . وعلم تلاميذه — وهو يحاورهم — كيف يستقبل الإنسان الحر إلمام الخطب حين يلم ، وزيارة الموت حين يزور ، مبتسما للخطب لأنه زائل ، وساخرا من الموت لأنه عارض من ورائه الخلود وفى هذا الوقت نفسه كان « سوفوكل » ينطق « أنتيجونا » فى ملعب التمثيل بأن هناك قوانين خالدة وجدت قبل الإنسان ، وستوجد بعد الإنسان ، وهى قوام الخلق ، وملاك العقل ، فليس لأحد عليها سلطان ، وليس للمخلوق على الناس طاعة إن خالف عن هذه القوانين .

نعم ! فى هذه القرون الثلاثة من الدهر ، وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض عرف الإنسان عقله وقلبه وضميره ، ورسمت له فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس مناهج التفكير والشعور والسيرة ، وشقت له طريق الرقى وعلمته الطموح إلى الكمال ، والارتفاع عن النقص ، والتنزه عما يشين .

فى هذا كله وفى أكثر من هذا كله كنت أفكر ونحن نسعى فى هذه الأطلال اليونانية مستحضرا تلك الحقبة من الدهر ، متمثلا ما كان فيها من خير كثير وشر كثير ، وما كان فيها من صراع بين الحق والباطل ، وما كان فيها من اختصام بين العدل والجور ، وما كان فيها من جهاد بين الرفعة والضعة ، وما كان فيها من ثورة على باطل الحياة وزخرفها ومن سمو إلى المثل العليا . وكنت أشهد ملاعب التمثيل ، وأرى أصحاب المأساة يرفعون الأنسان إلى صف الآلهة ، وأصحاب الملهاة يضعون الإنسان إلى منزلة الحيوان ،

وكنت أسمع حوار سقراط ، وأرقى مع أفلاطون إلى مثله الأعلى ، وأعود مع أرسطا طاليس إلى بحثه المتواضع الرفيع ، وأشهد الأحداث الكبرى تحدث بعيدا عن أثينا ، وتحدث قريبا من أثينا ، وتحدث فى قلب أثينا . وأرى جماعة الشعب تحاور فى هذا كله ، وتقضى فى هذا كله ، تصيب حينا ، وتخطىء أحيانا ، ولكنها مستمسكة دائما بحقها فى السيادة والسلطان والاستئثار بتدبير أمرها من دون الطغاة »(١) .

لقد أطلنا هنا نقل كلام طه حسين فى ذكرياته عن اليونان القديمة وثقافتها وحضارتها فى أثناء إلمامه بأثينا فى ربع عام من الأعوام ، بعد أكثر من ثلاثين عاما منذ إحكام الود العلمى بينه وبين التاريخ القديم لليونان .

ولم نشأ أن نخرم من هذا الكلام حرفا ، أوننقص منه عبارة حتى لايضيع بهاؤه ورواؤه واتصال حلقات التفكير . وهو يؤكد لنا شغف طه حسين الباقى بثقافة اليونان وأدبها وفنونها وسياستها وفلسفتها ، مما كان ظاهرا فيه على مدار عمره .

ولعل وقفة الدكتور طه حسين هذه على أطلال اليونان وبقايا آثارها العظيمة التى كانت تموج بالحياة والرجال ، تحضر فى بالنا وقفة الشاعر البحترى على إيوان كسرى حين زاره وألم به فى القرن الهجرى الثالث ، كما تذكرنا بوقفة الشاعر أحمد شوقى على آثار روما فى قصيدته التى يقول فيها :

قف بروما وشاهد الأمر واشهد ... أن للملك مالكا سبحانه
دولة فى الثرى ، وأنقاض ملك ... هدم الدهر فى العلا بنيانه
مزقت تاجه الخطوب ، وألقت ... فى التراب الذى أرى صولجانه
طلل ، عند دمنة ، عند رسم ... ككتاب محا البلى عنوانه
وتماثيل كالحقائق تزداد ... وضوحا على المدى وإبانه
من رآها يقول هذى ملوك الد ... هر ، هذا وقارهم والرزانة
وبقايا هياكل وقصور ... بين أخذ البلى ودفع المتانه

(١) رحلة الربيع - لطه حسين - عدد رقم (٦٩) من سلسلة « اقرأ » ص ٥ الى ص ١١ .

حبث الدهر بالحوارى فيها وبيوليوس لم يهب أرجوانه
وجرت ههنا أمور كبار واصل الدهر بعدها جريانه
راح دين ، وجاء دين ، وولى ملك قوم ، وحل ملك مكانه

ويبدو أن الدكتور طه حسين قد قصد من الفصل الخاص بوقفته على أطلال أثينا واليونان فى خلال رحلة الربيع أن يكون قصيدة منثورة فيها من الخيال والشعور والعاطفة شىء كثير ، وفيها من الحقائق والمعارف عن اليونان شىء موجز كثير .

ويبدو أيضا أن طه حسين تذكر فى وقفته بأطلال اليونان سينيّة البحترى التى نظمها فى وقوفه على أيوان كسرى، فذكرها فى الفصل الثانى من « رحلة الربيع » وأشار إليها قائلا : « وأتغنى فى نفسى بسينية البحترى :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جبس

ولكنى أضع « يونان » « مكان » ساسان » وتتغنى نفسى الكئيبة ببيت البحترى على هذا النحو : .

أتسلى عن الخطوب ، وآسى لمحل من آل « يونان » درس

وإذا كانت وقفة طه حسين على أطلال اليونان قد امتازت بمعارفها كما امتازت بالبيان المشرق الذى عرضها فيه ، فإن هذا يذكرنا فى ختام هذا البحث بإعجاب الدكتور طه حسين بأدب أرسطو الخالد ، ويقصد به قوانين البيان التى استكشفها هذا الفيلسوف العظيم فى العبارة والشعر والخطابة، وأن هذه القوانين باقية خالدة، لأنها تمثل الصور الطبيعية لتعبير الإنسان عن آرائه وأفكاره، كما أن قوانين المنطق ، التى وضعها أرسطو أيضا ، هى الصور الطبيعية لتكوين هذه الآراء(١) . .

---

(١) قادة الفكر — ص ١٩١ ، ١٩٢ .

وبعد ! فقد عرضنا لموضوع ثقافة اليونان والرومان وأثرهما فى طه حسين وموقفه منهما ، ومشاركته فيهما بالتأليف تارة ، والترجمة أخرى . ولا شك أن الدكتور كان مغاليا فى انحيازه لهذه الثقافة وتعصبه لها ، مما أثار عليه مخالفين كثيرين ، وفتح عليه أبوابا من النقد لم تزحزحه عن موقفه . ولقد شارك فى مخاصمته حول هذه القضية حفنة من كرام العلماء والباحثين ، منهم رفيق العظم ، وساطع الحصرى كما سلف القول ، ومنهم الأمير شكيب أرسلان ، والدكتور زكى مبارك .

ولقد حملت مجلة الرسالة فى سنة ١٩٤٣ لواء مناقشة طه حسين متمثلة فى المقالات التى كتبها الدكتور زكى مبارك ملتمسا العذر للدكتور طه فيما ذهب إليه من أن الثقافة اليونانية هى مصدر الثقافة الإنسانية ، وأن الناس فى الشرق والغرب وفى جميع الأجيال والعصور مدينون للثقافة اليونانية . وتمنى الدكتور زكى مبارك لو أن طه حسين تريث قليلا ليعرف أن هناك كتبا أجنبية أخرى غير التى قرأها ولخصها الدكتور طه ترى أن المعارف اليونانية منقولة عن مصر ، وأن فلاسفة اليونان لم يكونوا إلا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء . . . . . .

وعلى الرغم من هذه المناقشات وهذا الحوار، فإن الأدب العربي الحديث والفكر العربى الحديث ، والمكتبة العربية الحديثة قد أثرى مما كتبه الدكتور طه حسين عن الثقافة اليونانية، وما نقله إلى العربية من أدبها وشعرها وتمثيلياتها ونظام الحكم فيها .

وإذا كان طه حسين قد غلا فى مادهب إليه من تقدير للثقافة اليونانية ، فإنه لاشك صاحب فضل لايجحد فى تنبيه أهل جيله إلى روائع الفكر اليونانى ومدى مشاركاته فى الفكر الإنسانى .

نظرية طه حسين فى الشعر الجاهلى

د. محمد عبد المنعم خفاجى

(١)

كتاب « فى الشعر الجاهلى » للدكتور طه :

فى عام ١٣٤٤ هـ – ١٩٢٦ م كان الدكتور طه حسين رحمه الله عضوا فى هيئة التدريس فى كلية الآداب بالجامعة المصرية – جامعة فؤاد الأول ثم جامعة القاهرة فيما بعد – وكان يقوم بتدريس مادة « تاريخ الأدب العربى » .

وفى العام نفسه أصدر كتابه المشهور « فى الشعر الجاهلى » الذى طبع فى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهره فى ١٨٣ صفحة .

وأثار الكتاب ضجة أدبية وسياسية كبيرة كان لها أثرها الضخم فى الحياة الأدبية والفكرية ، ومن غير شك كان الكتاب أساسا للدراسات الأدبية الحديثة، بل إننا نعده بدء مرحلة جديدة فى دراسة الأدب العربى. ولقد عزز الكتاب المنهج الحديث الاستشراقى فى دراسة الأدب ونقده ، وفتح الباب على مصراعيه لتأثر كبير فى مجال الدراسات الأدبية بالمناهج الجديدة ، وقد صدر فى نقد الكتاب كتب كثيرة كان فى مقدمتها » : –

١ – النقد التحليلى لكتاب الشعر الجاهلى للأستاذ محمد أحمد الغمراوى.

٢ – الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفى جمعه – صدر عام ١٩٢٦ .

٣ – نقض كتاب « فى الشعر الجاهلى » للشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر فيما بعد .

وقد صدر عام ١٣٤٥ هـ عن المطبعة السلفية فى القاهرة .

٤ – محاضرات فى بيان الأخطاء التى اشتمل عليها كتاب « فى الشعر الجاهلى » للشيخ محمد الخضرى – نشرت فى مجلة القضاء الشرعى .

٥ – نقد كتاب « الشعر الجاهلى » لمحمد فريد وجدى – طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر – فى أكتوبر ١٩٢٦ .

٦ – نقض مطاعن فى القرآن الكريم للشيخ محمد عرفة .

٧ – الشعر الجاهلى والرد عليه لمحمد حسين .

٨ – مع زعيم الأدب العربى فى القرن العشرين ، للشيخ عبد المتعال الصعيدى .

٩ – نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى – الدكتور عبد الحميد المسلوت .

وعرض لنظرية الدكتور طه حسين فى انتحال الشعر الجاهلى كثيرون من دارسى الأدب الجاهلى وفى مقدمتهم : محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى (١) » ، ناصر الدين الأسد فى كتابه «مصادر الشعر الجاهلى » ، وشوقى ضيف فى كتابه « تاريخ الأدب العربى – العصر الجاهلى » ، كما عرض لها كتاب كثيرون نشروا بحوثهم فى مختلف الصحف والمجلات المصرية والعربية .

ولا شك أن هذه الموجة الضخمة من الكتب التى صدرت فى دراسة الكتاب والتعليق عليه ونقده ، كانت اعترافا بأهمية الكتاب وأثره ومدى ماأثاره من قضايا أدبية وتاريخية .

وقد صودر كتاب « فى الشعر الجاهلى » وطبع من جديد بعنوان « الأدب الجاهلى » بعد حذف فقرات منه كانت هى السبب الجوهرى فى مصادرته ، وهذه الفقرات كانت عن قصة إبراهيم واسماعيل ، حيث ذهب الدكتور طه إلى أنها « قصة متكلفة ومصنوعة فى عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية » ، ورأى أن ورودها فى الكتب الدينية

---

(١) ص ٢٨٩ – ٤٠٤ الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى – طبعة ١٩٤٨ .

لا يكفى لاثبات صحتها التاريخية (١) . وكانت هذه الفقرات بمثابة التحدى بل كانت مجازفة جريئة فى ميدان البحث العلمى أيضا . . . . وقد سبق أن جهر بعض المستشرقين بهذا الرأى من قبل ، وذلك من مثل « القس زويمر الذى ترجم إلى العربية كتاب « مقالة فى الاسلام » لمؤلفه جرجيس صال الانكليزى ، وألحق به ذيلا ردد فيه (فى ص١٠ إلى ٢٥) القول بأن قصة إسماعيل وسكناه مكة دسيسة لفقها قدماء اليهود العرب تزلفا اليهم ، وتذرعا بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة لهم فى بلاد العرب. ولما ظهر الرسول محمد رأى المصلحة فى إقرارها فأقرها. . . . (٢) هكذا قال زويمر وهو مبشر معروف فى الأوساط التبشيرية ، وكان يجهر بآراء شديدة التطرف وبمزاعم مجافية للاسلام .

إن كتاب الأدب الجاهلى يمثل كل آراء ونظرية الدكتور طه فى الشعر الجاهلى ، ويحتوى على نظرية الانتحال التى ذهب إليها ، وعرضها بتفصيل ، مبينا أدلتها ونتائجها التطبيقية ، حيث أفاض الدكتور فى شرح ذلك كله إفاضة واسعة .

(٢)

شرح الدكتور طه لنظريته فى الانتحال :

يرى الدكتور طه حسين أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدبا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء ، إنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهى تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهلية ، وما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جدا ، لا يمثل شيئا ، ولا يدل على شىء ، والعصر الجاهلى القريب من الاسلام إنما يمثله القرآن ، وتمثله الأساطير (٣) وعلى هذا فلا يصح الاستشهاد بهذا الشعر المنحول فى تفسير القرآن بل يجب العكس (٤) . . .

(١) ٢٥ – ٢٩ فى الشعر الجاهلى .
(٢) النص عن كتاب « مع زعيم الأدب العربى ص ٢٥ – ٤٨ .
(٣) ٦٤ و ٦٥ و ٧٠ الأدب الجاهلى .
(٤) ٦٦ المرجع نفسه .

والشعر الذى يضاف إلى الجاهليين يمثل حياة غامضة جافة بعيدة عن الدين ، والقرآن يمثل لنا حياة دينية وعقلية قوية ، مما كان عليه المستنيرون من العرب ، ويمثل لنا القرآن الكريم أيضا اتصال العرب بغيرهم من الأمم المجاورة ، كما يصور حياة العرب الاقتصادية من حيث يخلو الشعر الجاهلى من ذلك كله(١) . والأدب الجاهلى أيضا لا يمثل اللغة الجاهلية لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف ، والمأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروى باللغة العدنانية مع انهم لم يكونوا يتكلمون بها ، ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام ، كما حدث بعد الإسلام ، مما يدل على انتحال هذا الشعر وسواه من فنون الأدب على هؤلاء القحطانيين (٢) . كما أن اختلاف اللهجات العدنانية أمر ثابت لاشك فيه ، ولا نجد أثرا لهذا الاختلاف فى الشعر الجاهلى المأثور ، مما يدل على انتحال هذا الشعر ، وأنه قد حمل حملا على هذه القبائل بعد الاسلام .

ثم يحمل الدكتور طه حسين فى كتابه أسباب انتحال الشعر الجاهلى ، فيذكر البواعث الدينية والسياسية ، وأثر القصاص والشعوبية والرواة فى هذا الانتحال ، ثم يستعرض الشعراء ، مؤكدا ما ذهب إليه من أن أكثر ما يضاف إلى هؤلاء الشعراء الجاهليين منحول ، رافضا الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن ، لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش ، ويقول : إن هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا ، فالشعر الذى يضاف إلى « جرهم » — وسواهم من الذين عاصروا اسماعيل منحول ، وليس لليمن فى الجاهلية شعراء ، أما ربيعة وهى من عدنان ، وتسكن فى الشمال ، فشعرها دون شعر المضريين ، وأما مضر فكان لها شعراء يتخذون الشعر فنا ، فالشعر أصل فى مضر دون اليمن أو ربيعة ، فنظرية تنقل الشعر فى القبائل غير صحيحة ، فالشعر إنما كان فى مضر ثم انتقل إلى أقرب القبائل العربية إليها ، وهم ربيعة ، ثم إلى القبائل البعيدة ، كاليمن ، ثم إلى الموالى .. وليس كما

---

(١) ٧٠ — ٩١ الأدب الجاهلى .
(٢) ٨١ — ٩٥ المرجع نفسه .
(٣) ٩٦ وما بعدها المرجع لنفسه .
(٤) ١٢٢ — ١٨٦ الأدب الجاهلى .

يقول علماء العربية ، من أن الشعر كان فى اليمن ، ثم انتقل إلى ربيعة ، ثم إلى قيس من مضر إلى تميم،وشعراء المدينة ليسوا يمنيين، بل هم مضريون (١)

إن جملة آراء الدكتور طه حسين ترتكز على اساس واحد ، هو انتحال الشعر الجاهلى ، وتأكيد هذا الانتحال بأدلة كثيرة ، أهمها : —

١ — أن هذا الشعر المنسوب إلى الجاهلية لايمثل الحياة الجاهلية .

٢ — وأنه لايمثل اللغة نفسها .

٣ — كما أنه لايمثل اللهجات العربية .

هذه هى نظرية الدكتور طه فى انتحال الشعر الجاهلى كاملة، وهى نظرية كان لها دويها الشديد، وكان لها كذلك طابع الثورة العقلية، التى استمد أصولها الدكتور من دراسته فى فرنسا ، وعلى أيدى الكثير من المستشرقين ، وقد اعتمدت على ما تعتمد عليه مثل هذه الثورة من أدلة خطابية كثيرة .

(٣)

نظرية الانتحال قبل الدكتور طه :

وبلا ريب فإن لهذه النظرية مقدمات طويلة كانت هى مصادر الدكتور طه فيما ذهب إليه حولها : —

١ — فالمفضل الضبى (— ١٨٩ هـ) كما يروى أبو الفرج فى كتاب الأغانى يذكر عن حماد أنه « رجل عالم » بلغات العرب واشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله فى شعره ويحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولايميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ (٢)

ويروى أبو الفرج أن حمادا (— ١٥٥ هـ) اعترف فى مجلس الخليفة

(١) راجع ١٩٣ — ٢٠٨ الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين .

(٢) الأغانى لأبى الفرج ١٧٢/٥ — طبعة الساسى .

المهدى العباسى بأنه زاد فى شعر زهير ، وأن خلفا الأحمر (— ١٨١هـ) وغيره اخترعوا من الشعر ما لم يكن موجودا فى الجاهلية وكذبوا على الشعراء .

٢ — ويعد محمد بن سلام الجمحى البصرى (— ٢٣١ هـ) من قدامى الذين عرضوا للشعر الجاهلى وانتحاله فى كتابه « طبقات الشعراء » فقال (٢) : « وفى الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير ، لاخير فيه ، ولا حجة فى عربية ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسيب مستطرف ، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء » . ويذكر ابن سلام أن ماحمل على طرفة وعبيد بن الأبرص من الشعر كثير (٣) . ويرجع سبب الانتحال إلى : غفلة العلماء أوجهلهم بوضع الشعر وانتحاله ، أو اختلاط الأمر على بعض الرواة ، أو محاولة بعض القبائل التزيد من الشعر الذى قيل فى مآثرهم ، أو كذب الرواة وتلفيقهم رغبة فى الجوائز ، على أن أبا عبيدة (— ٢٠٨ هـ) والمفضل(— ١٨٩ —) ، والأصمعى (— ٢١٦ هـ (كانوا من ذوى العناية والتدقيق والضبط ، وكان حماد (— ١٥٥ هـ) من موالى بكر ، ولم يمنعه ذلك من رواية معلقة عمرو ابن كلثوم فى مفاخر قبيلته تغلب،وكما نعلم فان تغلب وبكرا كانا فى الجاهلية من أشد الأعداء بعضهما لبعض .

يثبت محمدبن سلام إذا الانتحال، ويرجعه إلى أسباب معقولة ، ولايسرف فى أمر هذا الانتحال فيجعله فى مواضع خاصة لايتعداها ، ومناسبات معينة لايتجاوزها .

---

(١) المرجع السابق أيضا ـ وقد سبق الى ذكر ذلك محمد لطفى جمعه فى « الشهاب الراصد » ص ٢٥ و ٢٦ ـ ويذكر ذلك د. المسلوت فى كتابه « نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى » أيضا ص ٧١ و ١٩٣ و ١٩٤ ؛ وينفى رواية ان حمادا جلس فى مجلس الخليفة المهدى ؛ لأن هذا الخليفة لم يجلس على عرش الخلافة الا عام ١٥٨ هـ ، بينما توفى حماد عام ١٥٥ هـ فى رواية ابن خلكان أو عام ١٥٦ هـ فى رواية ابن النديم فى « الفهرس » وقد ذكر ذلك نقلا عن الخضر حسين فى كتابه « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » ص ٢٧١ .

(٢) ص ٦ من مقدمة كتاب « طبقات الشعراء » بتحقيق الأستاذ محمود شاكر .

(٣) ص ٢٢ المرجع نفسه .

٣ — وابن هشام (— ٢١٨هـ) صاحب السيرة يذكر الكثير من المنحول على حسان وغيره من شعراء الرسول والسيرة .

٤ — وكذلك يذكر أبو الفرج الاصفهانى فى كتابه « الأغانى » الكثير من المنحول على الشعراء القدماء والمحدثين .

٥ — وعرض مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « تاريخ آداب العرب » المطبوع عام ١٩١١ للانتحال فى الشعر الجاهلى وأسبابه عرضا تفصيليا (١).

٦ — وكذلك عرض الدكتور أحمد ضيف فى كتابه « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » لأصول نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى وأسبابه ، مستدلا بكلام ابن سلام ، وسائرا فى ضوئه (٢) .

٧ — وممن أثار البحث فيها من المستشرقين : « نولدكه » ، و« رينيه بسيه «عميد كلية الآداب بجامعة الجزائر سابقا ، فى رسالة له عنوانها « الشعر العربى الجاهلى » — طبع باريس عام ١٨٨٠ ، وكذلك نيكلسون فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية . (٣)

٨ — وذهب مرجليوث إلى أن الشعر الجاهلى منحول كله بعد الاسلام وأضيف إلى أسماء جاهلية (٤) ، ويقول : إن فى لغة القرآن مشابه كثيرة من لغة الشعر الجاهلى(٥) كما يرى أن الشعر الجاهلى فى معظمه مصنوع، وضع على مثال القرآن(٦).وقد أكد ذلك فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية عام ١٩١٦ (٧). وقد تصدى للرد عليه السير تشارلس جيمس ليال فى مقدمة ترجمة «المفضليات للإمام المفضل الضبي — ١٨٩ هـ » المطبوعة عام ١٩١٨ ، ثم عاد مرجليوث

---

(١) ٣٦٥ — ٣٨٥ تاريخ آداب العرب للرافعى .

(٢) ٥٠ — ٦٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضيف — ط ١٩٢١ بالقاهرة .

(٣) ص ١١٣ و ١٢٨ و ١٣١ — ١٣٥ طبعة عام ١٩١٤ .

(٤) مادة محمد من دائرة معارف الأديان والعقائد .

(٥) كتاب محمد وظهور الاسلام لمرجليوث المطبوع عام ١٩٠٥ .

(٦) راجع ص ٣٥٢ مصادر الشعر الجاهلى .

(٧) ص ٣٩٧ — راجع ص ١٧ من كتاب نقض كتاب « فى الشعر الجاهلى » للشيخ الخضر حسين .

وكتب فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية عام ١٩٢٥ مقالا ذكر فيه أدلته على انتحال الشعر الجاهلى(١)

هذه هى جملة الآراء التى قيلت عن انتحال الشعر الجاهلى قبل أن يصدر الدكتور طه حسين كتابه « فى الشعر الجاهلى » ويتبنى هذه النظرية ويفصلها ، ويتوسع فى ذكر أدلتها فى كتابه « الأدب الجاهلى » .

(٤)

أهم أدلة الدكتور طه حسين على نظريته :

أولا : لايمثل الشعر الجاهلى حياة الجاهليين الدينية،ولا العقلية ، ولايصور لنا ماكان بينهم وبين غيرهم من الأمم المجاورة لهم من صلات سياسية ولايصور لنا حياة العرب الاقتصادية (٢) .

وقد يكون رأى نولدكه المستشرق المعروف مناقضا كل المناقضة لرأى الدكتور طه ، حيث ذهب إلى أن السبع الطوال أو المعلقات خالية بالتأكيد من التزييف أو التزوير فلا يشك فى صحتها .

ويؤكد رينان (٣) صحة الشعر الجاهلى وثبوت صدقه بلا قيد ولاحصر فان المعلقات وديوان الحماسة وكتاب الاغانى وديوان الهذليين قد قبلها العلماء ، وسلموا بأنها سابقة فى معناها ومبناها لمبعث محمد ، أى أن العلماء أقروا صحتها شكلا وموضوعا وأقروا انحدارها إلينا من العهد المتقدم على الإسلام ، أما فيما يتعلق بالمعانى فلا يجوز الشك فيها لأن هذه الأشعار تمثل لنا الحياة الجاهلية كما تمثلها مرآة كاملة ، وهذه القصائد تتعلق بشخصيات وحوادث حقيقية ولايوجد مايبيح لنا أن نفترض — كما افترض شولتنز — أن المسلمين قد أبادوا الأدب الجاهلى بسبب عداوتهم للوثنية ، فان افتراضا كهذا يتنافر

(١) ٣٥٢ مصادر الشعر الجاهلى ؛ ١٧ نقض كتاب « فى الشعر الجاهلى » للخضر حسين و ٧٥ نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى للمسلوت .

(٢) ٧٠ — ٨١ الأدب الجاهلى لطه حسين .

(٣) ٣٥٤ و ٣٥٥ تاريخ اللغات السامية لرينان نقلا عن ص ٣٠٢ من كتاب الشهاب الراصد .

مع النتيجة الثابتة التي تدل على أن الكتابة لم يشع استعمالها عند العرب إلا قبل محمد بقرن واحد تقريبا، ويجب علينا أن نمنح درجة أعلى من التصديق والصحة للمقطوعات الشعرية الصغيرة المثبتة فى كتب التاريخ والشعر الجاهلى ، فإن هذا هو فى الحق أقدم أنواع الشعر العربى . . . ثم يقول رينان أيضا : وفى الحق نعتقد أن العرب لم يغيروا فى الشعر الجاهلى شيئا عن قصد ، وأن الاختلافات التى وجدت هى من النوع الذى لا يمكن اتقاؤه فى حالة تداول النصوص بين افواه الحافظين لها ، دون معونة التقييد بالكتابة (١) .

وقال نيكلسون فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ص ١٣١ : كان(٢) الشعر الجاهلى محفوظا بالتواتر الشفوى ، وتساءل عن سر امكان ذلك وأجاب عن هذا التساؤل فى قوة وتأكيد لصحة هذا الشعر .

والحياة الجاهلية فى كل صورها وألوانها لا يمكن أن نجد وثيقة كبيرة تدل عليها إلا الشعر الجاهلى .

يقول «تين» فى مقدمة كتابه «تاريخ فنون الأدب عند الإنجليز» : إن الآداب صورة كاملة صحيحة من الأشخاص والزمن الذى يعيشون فيه (٣) . ويقول نيكلسون استاذ آداب اللغة العربية فى جامعة اكسفورد سابقا ومؤلف كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » — ص ١١ — من مقدمة الكتاب المطبوع عام ١٩١٤ : إن الشعر الجاهلى مرآة الحياة العربية . ويقول أيضا فى ص ٢٦ : إن مزايا العصر الجاهلى مرسومة صورها بأمانة ووضوح فى الاغانى والاناشيد التى نظمها الشعراء الجاهليون — ويقول كذلك فى صفحة ٢٧ : (إن الادب الجاهلى المنظوم منه والمنثور يمكننا من تصوير حياة تلك الأيام الجاهلية تصويرا أقرب مايكون من الدقة فى مظاهره الكبرى) .

ويقول ثور بيكه المستشرق الالمانى فى كتابه « عنترة أحد شعراء الجاهلية » : لانملك مصادر موثوقا فيها لتدوين تاريخ تلك الغارات البدوية سوى القصائد

---

(١) ٣٦٢ المرجع السابق .

(٢) هذا النص منقول عن كتاب الشهاب . الراصد ص ٣٠٤ .

(٣) ص ٣٩ الشهاب الراصد – محمد لطفى جمعه .

(٤) راجع ص ١٤ من الكتاب .

والمقطوعات المحفوظة عن شعراء الجاهلية » . وقال أيضا فى كتابه ص ٧٩ : « يمكن تعريف الشعر الجاهلى بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها » .

ويقول نولدكه المستشرق الهولندى فى كتابه « الشعر العربى القديم الجاهلى » ص ١٧ (١) : إن عادات العرب الجاهليين وأحوالهم معلومة لنا بدقة عن أشعارهم ، وفى الشعر الجاهلى مايفتن القارئ من أوصاف الحياة والعادات فى البادية .

إن الشعر الجاهلى فى رأينا نحن وثيقة خطيرة تصور حياة الجاهليين والوان معيشتهم ، وتصف البيئة الجاهلية بما فيها من حيوان ونبات وأرض وجبال وأشجار ووديان وقرى وصفا دقيقا وتعبر تعبيرا واضحا عن الامطار والرياح والجو ، وهى سجل لتاريخ الجاهليين وأيامهم — وأخبارهم » يقول محمد لطفى جمعة فى كتابه « الشهاب الراصد (٢) : « يدل الشعر الجاهلى على نفوس ناظميه وحياتهم — بل هو أصدق مثال لحياة العرب أنفسهم .

الشعر الدينى الذى يمثل الحياة الدينية عند الجاهليين كثير ومبثوث فى مختلف المصادر القديمة . ويرى جورجى زيدان أن منظومات العرب الجاهليين فى الناحية الدينية قد ضاعت فى أثناء الأجيال لعدم تدوينها لاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر ، فلما جاء الإسلام أغضى الرواة عنها لانها وثنية والاسلام يمحو ماقبله .

وفى الشعر الجاهلى دلالات واضحة كثيرة على اتصال العرب بغيرهم من الأمم وعلى الوان الحياة الاقتصادية التى كانت تظلهم ، ولكن هذا الشعر مفرق فى مختلف المصادر ، وليس مجموعا فى كتاب واحد .

ثانيا : ماذكره الدكتور طه من نفى وجود شعراء يمنيين ومن عكسه لما

---

(١) طبع عام ١٨٦٤ فى هانوفر — نقلا عن ص ٤٠ من كتاب الشهاب الراصد لمحمد لطفى جمعة .

(٢) الشهاب الراصد .

ذهب إليه الباحثون القدماء حول نظرية تنقل الشعر فى القبائل .. وهو إنما يعتمد فى ذلك على أدلة هى تصورات لاترتفع إلى درجة الحقيقة .

ثالثا : الشعر الجاهلى واللغة :

يستدل الدكتور طه على انتحال الشعر الجاهلى بانه لا يمثل اللغة العربية فالدكتور يرفض الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش ، ويشك فى هجرة اليمنيين إلى الشمال ؛ وليس من المعقول عنده أن يكون الشعراء قد هاجروا من اليمن ، ويقول : إنه ليس لليمن فى الجاهلية شعراء ، وكل مايضاف إلى « جرهم » — وسواهم منحول ، إن المأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروى باللغة العدنانية الفصحى ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الاسلام ،مما يدل — فى رأى الدكتور على انتحال هذا الشعر على القحطانيين .

ولا نسلم مع وجود فوارق بين الحميرية والعدنانية أنهما لغتان متميزتان بل لايزيد الخلاف بينهما على أنه اختلاف لهجات والفوارق الكبيرة التى يجسمها بعض العلماء بين الحميرية والعدنانية يمكن حملها على أنها صورة لحياة قديمة جداً قبل عمل عوامل التهذيب اللغوى فى الجزيرة العربية ، ولو سلمنا بهذه الفوارق الكبيرة بين اللغتين القحطانية والعدنانية ، فانه لايترتب على ذلك وجوب تمثيل القحطانية فى شعر الشعراء القحطانيين المروى شعرهم ، لأن القحطانيين فريقان : سبئيون وحميريون ، فالسبئيون نزحوا من الجنوب إلى الشمال قبل الاسلام بعد سيل العرم ، كما تؤكد ذلك جميع الوثائق التاريخية ومصادر كتب اللغة والأدب ؛ ومنهم اللخميون المناذرة ملوك الحيرة والغساسنة ملوك الشام، والأوس والخزرج سكان المدينة ، وسواهم أما «حمير» فهى التى كانت بأرضها فى ظفار وصنعاء وما جاورها ، وهى التى قال فيها أبو عمرو بن العلاء (١٢٤هـ) : مالسان « حمير وأقاصى اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا .

لقد قربت عوامل التهذيب اللغوى المتعددة بين لغات الجنوب والشمال ؛ وجعلت هجرة السبئيين إلى الشمال اللغة العدنانية لغة لهم ، وسكان الجنوب على

أية حال إنما يرجح أكثرهم إلى هجرات شمالية ، فقد ثبت للباحثين من أمثال موار ، وجلازر أن المعنيين أصلهم من عمالقة العرق بدو الآراميين الذين كانوا فى أعالى جزيرة العرب قبل الاسلام وقبل ظهور حمورابى بجملة قرون . والدولة الحميرية حكمت ستة قرون ونصف قرن (١٢٥ق م — ٥٢٥م وعدد ملوكها ثلاثون ملكا ، وقد فتح الأحباش اليمن فى عهد الملك الحميرى ذى نواس (٥١٥ — ٥٢٥ م) وقد قام الأمير الحميرى سيف بن ذى يزن بتحرير اليمن بمساعدة الفرس .

أما دولة سبأ فهى التى كانت قبل الدولة الحميرية وقد عاشت من القرن الثامن قبل الميلاد حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد أيضا وقد انتهت حضارة هذه الدولة وسيادتها بفعل عاملين كبيرين : —

الأول :انتقال التجارة إلى الطريق البحرى وانقطاع مرورها بسبأ .

والثانى : سيل العرم الذى حطم سد مأرب فأغرق البلاد ، وهاجر أهلها منها ، وتفرقوا فى أرجاء الجزيرة العربية .

وقد كانت هناك عوامل عديدة قربت على أية حال لغة السبئيين والحميريين من لغة العدنانيين ، واستمرت هذه العوامل تعمل عملها إلى ماقبل ظهور الاسلام ، وإلا فكيف كان يفهم ولاة رسول الله على اليمن لغة أهل اليمن ، وكيف فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لغة وفد اليمن الذى قدم المدينة عام الوفود ليسلم بين يدى الرسول صلوات الله عليه ؟ .

إن القحطانية والعدنانية فى الأصل لغة واحدة ، والخلاف بينهما لايرتفع عن مستوى كونه خلافا فى اللهجات .

وانكار شعر شاعر مثل امرئ القيس — بحجة أنه يمنى وان لغته تغاير اللغة العدنانية التى روى بها شعره لا يمثل لنا منطقا تاريخيا يرد على مانعرف من الاصول العدنانية لقبائل اليمن ، ومن هجرة قبيلة كندة إلى الشمال ونشأة امرئ القيس فى مواطن بنى أسد العدنانيين ، وليس من المعقول أن يكون ملكا على الشماليين ويتكلم بلغة غير لغتهم وهو بين أظهرهم ، ويقول سيديو فى كتابه المشهور خلاصة تاريخ العرب « : كان بين الاسماعيلية — العدنانية

والقحطانية تنافس المعاصرة المؤدى إلى اختلاف الكلمة ثم مالوا إلى الوحدة السياسية ورأوا الأشعار وسيلة لانتشار فخارهم ، وسبيلا إلى وصول مآثرهم وأعمالهم إلى احفادهم فأحيوها وعكفوا عليها ، لكن كلام شعراء نجد والحجاز لم يفهمه شعراء اليمن ، بل لم تتفق قبائل بلد واحد على لغة واحدة .

رابعا : الشعر الجاهلى واللهجات :

يؤكد الدكتور طه نظريته فى انتحال الشعر الجاهلى بأن اختلاف — اللهجات العدنانية أمر ثابت لا شك فيه ، ونحن لا نجد أثرا لهذا الاختلاف فى الشعر الجاهلى المأثور ، مما يدل على انتحال هذا الشعر ، وأنه قد حمل حملا على هذه القبائل بعد الاسلام (١) ، ويرى أن شعر الشعراء الذين ينتسبون إلى ربيعة منحول لأنه لا يمثل لهجاتهم التى كانوا يتكلمون بها .

ونحن نرد على ذلك بان اختلاف اللهجة لا يؤثر على وزن الشعر وقافيته، لأن اللهجة هى طريق أداء الكلام إلى السامع ويتمثل ذلك فى التفخيم والترقيق والامالة وعدمها ، والجهر والهمس ، مما لا يؤثر فى ذات الحرف ولا يستلزم العدول عنه أو عن الكلمة إلى غيرها ، فالجملة الواحدة نستطيع النطق بها مختلفة الهيئة مع بقاء حروفها وكلماتها فى كل صورة من صور النطق ، كما فى تلاوة القرآن الكريم بالقراءات المتعددة .

على أن المتباين المتناكر من اللهجات قد أزالته عوامل التهذيب اللغوى العديدة فى جزيرة العرب ، وسيادة لغة قريش ولهجتها قبل الإسلام ، وكان لمكانة قريش ولتنقلها بين القبائل والأمم ، ولشهودها مواسم الحج وأسواق العرب كثيرا من حروبهم ، كان لكل ذلك أثره فى صفاء لهجة قريش وعذوبة لغتها ، وتخيرها من لهجات ولغات غيرها ، مما جعل لهجتها تسود قبل الإسلام جميع لهجات القبائل ، وصارت القبائل المختلفة وشعراؤها يحاكونها فى بلاغتها وفصاحتها وسمو لهجتها ، وكانت صلات المصاهرة

---

(١) ص ٩٦ وما بعدها من كتاب الأدب الجاهلى .

والمجاورة والاختلاط بين القبائل تغطى على كل خلاف لغوى وتقضى على كل فرقة لغوية بينها .

إن اختلاف لهجات القبائل العربية أمر مسلم به ، ولكن هذا الاختلاف لا أثر له إطلاقا على الشعر ولا يخرج القبائل عن وصفها بأنها ذات لسان واحد ، ولغة واحدة .

(٥)

وبعد : فان نظرية الدكتور طه حسين فى انتحال الشعر الجاهلى تعد من أخصب النظريات الأدبية الجديدة ومن أشدها تكاملا ، ومن أقواها إثارة ، وأكثرها حوارا وجدلا .

وقد أحدثت أثرها فى تطور الدراسات الأدبية والنقدية ، وفى التمهيد للمناهج الجديدة فى دراسة الأدب ونقده ، وفى قيام حركة حوار رائعة خصبة لم تشهد الحركة الأدبية الحديثة والمعاصرة مثيلالها من قبل ولا من بعد.

ومهما قيل فى نقد هذه النظرية وفى التعليق عليها ، فإنها بلاريب تعد حدثا أدبيا فريدا فى عصرنا ، وتعد ظاهرة أدبية جديدة جديرة بالتسجيل والتفهم ، وتعد علامة على طريق البحث الأدبى والتجديد فيه ...

وقد كان الدكتور طه رائعا فى أسلوبه وجمعه بين الآراء المتباينة ليؤلف منها وحدة متكاملة . وكان فى إثارته ، وفى جدله وحواره ، وفى نقده وتعليقه شيئا فريدا غريبا .

وكان له من ملكاته ومواهبه وثقافته ومن ذكائه وألمعيته ، ومن ذوقه الأدبى الرفيع ، ما جعله يصعد إلى القمة ، ويسمو إلى الذروة ، ويجلس على أعلى مكان فى صرح الأدب ، حتى لقب بعميد الأدب العربى ، وكان هو فى النثر الأدبى والدراسة الأدبية كشوقى بين الشعراء ، كل منهما احتل منزلة العمادة ، هذا فى النثر ، فصار عميده ، وذاك فى الشعر فصار أميره .

وعلى الجملة فإن طه حسين ونظريته فى انتحال الشعر الجاهلى سيظلان موضع الإثارة والاهتمام على مرور الأيام ، وتوالى العصور ...

حياة المتنبي وشعره

دراسة في كتاب طه حسين ,,مع المتنبي"

د. ابراهيم عبد الرحمن محمد

> « فمهما احاول ان اكون عالما ، ومهما احاول ان اكون موضوعيا .. فلن استطيع ان استحسن القصيدة .. الا اذا لاءمت نفسي ووافقت عاطفتي وهواى ؛ ولم تثقل على طبعي ولم ينفر منها مزاجي الخاص .. »
>
> طه حسين : فى الأدب الجاهلى

(١)

حرص الدكتور طه حسين فى مقدمة كتابه «مع المتنبى» على أن يوضح أمرين : أولهما أنه لايحب المتنبى ، ولا يحرص على دراسة شعره ، وثانيهما أن هذه الفصول ليست دراسة منهجية ، ولكنها خواطر وآراء أراد بها معاندة نفسه وصرفها عن العناية بما اعتادت أن تعنى به من قراءة مااستحدثه الكتاب والنقاد فى فرنسا كلما ذهب إليها زائرا .

ولا يعنينا كثيرا ماإذا كان « طه حسين » يحب حقيقة المتنبى أو يكرهه أو أن كتابه « مع المتنبى » دراسة أو مجرد خواطر وآراء عامة ، فللكتاب أن يقولوا عن أعمالهم مايشاءون ، وعلى النقاد والقراء وحدهم يقع عبء تحليل هذه الأعمال ودراستها والكشف عن طبيعة مافيها من آراء وأفكار ، ووضعها فى مكانها الصحيح من الحركة الثقافية ، والتاريخ الأدبى .

وعلى العكس مما يقول طه حسين ، فإنا نستطيع أن نكتشف منذ السطور الأولى لكتابه ، أنه كاف بشخصية المتنبى ، ومفتون بشعره ، وأن دراسته لهذه

الحياة وهذا الشعر تخضع لمنهج نقدى ، أخلص فى تطبيقه على حياة المتنبى وبيئته وشخصيته وشعره ، وربط بينها جميعا ربطا وثيقا ، وانتهى عن طريق هذا المنهج إلى هذه الآراء المختلفة التى تتردد فى كتابه عن شخصية المتنبي ومزاجه الفنى .

ونستطيع أن نحدد هذا المنهج ونحصر عناصره فى أن شخصية الشاعر نتاج لهذه الظروف المختلفة التى كان يعايشها : من البيئة ، إلى الوسط الاجتماعى الخاص والعام ، إلى العصر بكل ماضيه وواقعه الحضارى ؛ وأن شعر الشاعر هوالآخر نتاج هذه الشخصية التى شكلتها ظروف حياتها على هذا النحو أو ذاك . حين يعن للمؤلف أن يقف ، من حين إلى آخر ، فى خلال رحلته الطويلة مع المتنبي عند بعض أشعاره وقفة فنية خالصة ، فإنه يصطنع فى الحكم على هذه الأشعار منهجا تأثريا ، لايعلل فيه لأحكامه ، ولايحال فيه أشعار المتنبى تحليلا فنيا وجماليا خالصا ، على نحوماتقتضيه الدراسة النقدية المفصلة التى تكشف عن منابع الجمال والفن فى شعر الشعراء ، وإنما يحرص على تسجيل إعجابه بشعر المتنبي عن طريق الإعجاب « بمعانيه » . ومعنى ذلك كله أن « طه حسين » يصطنع فى دراسة المتنبي : حياته وشعره ، منهجا مركبا من عنصرين : الأول ، منهج النقد الطبيعى أو النقد التجريبى كما كان يعرف فى القرن التاسع عشر فى فرنسا والثانى : المنهج التأثرى ، الذى يصدر فيه صاحبه عن إحساساته الذاتية وذوقه الشخصى ، أكثر مما يصدر عن قواعد وأصول لغوية وجمالية فى استخلاص أحكامه النقدية وتعليلها .

وفيما يتصل بالعنصر الأول من منهجه النقدى ، فإنه يتابع فيه ما أخذ يجد على الحركة النقدية فى فرنسا منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر من تطور بسبب نمو الحركة العلمية وتطور مناهجها ، وما تركته من آثار على مناهج الأدب والنقد فى فرنسا ، فى تلك الفترة الخطيرة من حياة أوروبا الفرنسية ، فقد أفلت فى أواسط هذا القرن زمام المجتمع من الأدب وانتقل إلى العلم . وكان لنمو

الصناعة واتساع الثروات الخاصة ، وجنوح الأحداث السياسية بالعقول نحو المادية ، آثار واضحة على جيل الشبيبة الذين راحوا يعلنون عن إيمانهم العميق « بالعلم » وبما يحققه لهم من رفاهية ، مما أحدث رد فعل عنيف ضد المثال الرومانتيكي الأعلى . وقد تمخض هذا الاتجاه المادى عن مذهبين كان لهما آثارهما على الحركة النقدية والأدبية هما : المذهب الوضعي العلمى ، ومذهب الشك أو النزعة المادية العملية ، وقد تجرد الأدب نهائيا ، بسبب سيطرة العلم ، من قيادة التفكير العام ، ولكنه مع ذلك ، أخذ يحاول ، عن طريق النقد ، أن يظل قادرا على تلبية حاجات العقلية العلمية الجديدة عن طريق تطوير مناهجه، وباصطناع مناهج العلوم التجريبية،وعن هذا الطريق استطاعت حركة « النقد الطبيعي » أن تباشر دورها الخطير فى التأثير على النتاج الأدبي وتوجيهه طيلة النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فلم يعد النقد فى نظر الكتاب منبعا « للمثل الأعلى المطلق » كما كان فى العصور الماضية ، كما لم يعد « معيارا » للجمال الفنى الذى يجب على الكتاب أن يحققوه ، ويتخذوا منه وسيلة لتقويم نتاجهم ، وإنما انحصرت هذه الحركة النقدية العلمية فى « إرشاد الكتاب إلى مناهج التاريخ والفلسفة والعلوم ، وتعريفهم بجدواها » .

وقد حمل عبء هذه الحركة النقدية فى فرنسا اثنان هما : « سانت بيف » و« هوبليت تين » . أما « بيف » فقد كان لدراسته للطب فى بداية حياته واشتغاله بهذه المهنة فترة من الزمن ، أثر على صرامة اتجاهه العلمى فى النقد فهو يضع للنقد مفهوما جديدا يحدد له غاية موضوعية ، هى استيعاب ودراسة كل مايتصل بالعمل الأدبي من ظروف عامة أوخاصة ، معللا ذلك بأنه لا يمكن للناقد أن يتعرف على موهبة الفنان إلا من خلال تعرفه على تربيته وثقافته وحياته وأصله ، ذلك أن « مايثبت عنه من خلال كتاب أومؤلف ، إنما هو الإنسان نفسه : حياته وفكره وروحه » — وقد عبر « بيف » عن هذا الاتجاه النقدى تعبيرا واضحا فى هذين النصين اللذين نجتزئهما اجتزاء :

(١) « إن النقطة الجوهرية فى حياة كاتب كبير أو شاعر عظيم هى فهم واحتواء وتحليل هذا الرجل بأكمله فى الوقت الذى تتسابق فيه عبقريته

وموهبته وتربيته وثقافته والظروف المحيطة به ، لتدفع به إلى إنتاج أول عمل أدبي له . وإذا مافهمت الشاعر فى تلك اللحظة الحرجة ، واستطعت أن تحلل تلك العقدة التي سوف يرتبط بها منذ ذلك الوقت ، كل ما يدور فى نفس الكاتب أو الشاعر ، وإذا ماوجدت مفتاح تلك الحلقة الغامضة التى تربط حياته الثانية المشعة البراقة بحياته الأولى المظلمة المكبوتة والمهجورة ، تلك التى يحاول باستمرار أن يمحو ذكراها ، فإنك تستطيع حينئذ أن تقول إنك تمتلك شاعرك وأنك تفهمه . . . .

(٢) « وإذا بحثت فى طبائع العقول المختلفة ، ظهر لك أنها تنتمى إلى نماذج وأصول بعينها . فمعرفة واحد من كبار المعاصرين تشرح لك وتبعث أمامك طبقة من الموتى ، لما بينه وبينهم من تشابه واضح ، ومن وجود بعض خصائص للأسرة الفكرية التى ينتمون جميعا إليها . وهذا مطابق تماما لما فى علم النبات بالنسبة للنباتات ، وما فى علم الحيوان بالنسبة لأنواع الحيوانات . فهناك ، إذن ، تاريخ طبيعى للأسر الطبيعية » .

وواضح من هذين النصين أن « بيف » كان شديد الاهتمام بحيـــاة الكاتب أو الشاعر الشخصية والعامة ، وما يتصل بها من التفاصيل الدقيقة ، ليتخذ منها ، آخر الأمر ، طريقا إلى تحقيق أمرين : أولها فهم أعماله الأدبية والحكم عليها ، وثانيهما ، وضعه فى مكانه من حركة التاريخ الطبيعى للأسر الفكرية ، وكتابة ما كان يعتقد به ويسعى إلى تحقيقه ، من تقسيم المواهب الأدبية إلى أسر على نمـــط ما كان يفعل علماء الحيوان والنبات . وقد انتهى به هذا الاتجاه الطبيعى إلى أن تصبح دراساته مجرد « سير للأدباء والشعراء » دون دراسة أعمالهم ، واتخاذ هذه الأعمال طريقا إلى تفصيل القول فى هذه السير ، دون أن يتخذ من دراسة سير هؤلاء الأدباء وسيلة إلى تفسير أعمالهم ودراستها . أو على حـــد تعبير « مارسيل بروست » إن طريقته النقدية جعلته يجهل أن أعمال الكتاب تصدر عن شخصية أخرى متميزة تمام التمايز من شخصيته الأولى التى يعيش بها فى مجتمعه .

وقد خطا « تين » بآراء « سانت بيف » خطوة جديدة ، تطور فيها بهذا المنهج ، وخلع عليه من روحه الفلسفية ما خفف من علميته الصارمة ، وزاد إليه بعضا من روح النقد الجمالية – ولكن النقد لم يخل هو الآخر ، بسبب طغيان هذه النزعة الفلسفية عليه ، من خطر آخر لايقل فسادا للنقد عن خطر الاتجاه الطبيعي عند «سانت بيف»، ذلك أنه كان يضع فروضا ويحاول تحقيقها وإثبات صحتها،عن طريق جمع المعلومات عن الظواهر الصغيرة الهامة والمختلفة فى حياة كاتبه وبيئته ، وهي ظواهر كان « تين » يجمعها لغرض بعينه هو التدليل على صحة فروضه كما قلنا . وكان هذا من شأنه أن يحيل دراسته النقدية « إلى معمل تجريبي » ، تختبر فيه الفروض التعسفية التي كان يضعها هذا الناقد مقدما بحيث نشعر فيما يقول « لانسون » « بأننا مدفوعون بقوة لا سبيل إلى مقاومتها نحو نتيجة سبق تحديدها . فقد كان « تين » مقتنعا بأنه فى إمكان الدارس أن يتنبأ بما ستكون عليه الشخصية الإنسانية من خلال ملاحظة هذه الظواهر ذات التأثيرات المتبادلة حين يتركب بعضها مع بعض . وهو فى هذا متأثر بقانون « الحتمية العلمية » . وتعتمد نظرية « تين » على ثلاثة أصول عامة يتحدد فى رأيه على أساسهاطبيعة الأدب والفن بعامة هي : الجنس والبيئة والعصر.

ويقصد « تين » بالجنس تلك الخصائص الفطرية التي تميز مجموعة من الناس انحدرت من أصل واحد – «فإذا أخذنا جنسا بشريا ما كالجنس السامى أو الآرى ، وجدناه ذا صفات عضوية خاصة به ، ووجدناه يتميز ، تبعا لها ، بخصائص فكرية تظهر فى إنتاجه العقلى والفلسفي والفنى ، مهما تفرقت بأبنائه البيئات، ومهما توزعتهم نظم الحكم المتنوعة،ومهما اختلفت فيهم درجة المدنية . وهذا العامل فى رأى « تين » من أقوى العوامل الثلاثة وأشدها تأثيرا فى الإنتاج الفكرى – ذلك أن أى جنس بشرى قد خضع فى تاريخه الطويل ، لظروف بيئية وطبيعية وسياسية وثقافية واحدة مما كان له آثاره على اكتساب هذا هذا الجنس أو ذاك ، « صفات مشتركة نزلت به منزلة الغرائز الفطرية التي لاسبيل إلى محوها » . ويتخذ « تين » من هذا الفرض العلمي وسيلة

إلى التمييز بين أجناس البشرية المختلفة من حيث خصائصها الفطرية : كالجنس السامي (وينتسب إليه الجنس العربي والعبرى والآشورى والبابلي) ، والجنس الآرى (ومنه مجموعة الشعوب الأوربية الهندية) — وقد حاول « تين » التمييز بين هذه الأجناس فى خصائصها النفسية والفطرية ، فيرى فى الجنس « الأنجلوسكسونى » مثلا قوة فى الخيال ، وحبا للطبيعة ، وقوة فى الإرادة ، وعمقا فى الاعتقاد بحياة أخرى، ويرى فى الشعوب السامية ، ضعفا فى الخيال وتعلقا بالعقائد الدينية وعمقا فى الاعتقاد بالحياة الأخرى » ، كمايرى فى نتاجها الأدبى صورة لهذه الخصائص ويعال لعدم معرفتها «بالمسرح » بعدم قدرتها على فهم الفنون التركيبية أو استساغتها .

وتمثل « البيئة » فى نظرية « تين » هذه العوامل المختلفة : من طبيعية وسياسية واجتماعية ، وهى عوامل يرى أنها تحدث تأثيرها على « الجنس » من خارجه . وإذا كان هذا الناقد ، يعتقد بدوام تأثير العوامل الطبيعية والإقليمية على الأجناس تبعا لبيئاتها المختلفة ، فإنه يعتقد بتغير تأثيرات عناصر البيئة الأخرى لاختلاف هذه العناصر وتغيرها من عصر إلى عصر: فحال الثورات السياسية غير حال الاستقرار وحال الحياة العلمية يختلف من عصر إلى عصر ، ويختلف لذلك تأثيرها على الجنس البشرى تبعا لما تحرزه من تقدم وتطور : فإن « بوالو » و« راسين » و« بوسويه » على اختلافهم وتميز كل منهم عن الآخر ، يتفقون فى خصائص تبين عن طابعهم الفرنسي . وهى خصائص عصر تركز كل ما فيه حول ملكية مطلقة ، جمعت حولها النبلاء ، وسنت لهم فى حياة مترفة سننا من التقاليد ، فبلغ سلطان العادة والخضوع للتقاليد أوجهما ، تجاريهما فى ذلك نزعة خطابية ، وتحفظ خلقى مشوب بنزعة أرستقراطية » .

ويعنى « تين » بالعصر تلك القوة الموجهة ، أى ذلك التطور الذى تحقق فى الماضى ، وما يترتب عليه من تأثير الماضى فى الحاضر ، وإذا أردنا أن نحدد ذلك تحديدا أكثر دقة ،قلنا إنه يعنى بالعصر ذلك التراث الثقافى والأصول الفنية التى ورثتها الأجيال الحاضرة من الأجيال الماضية — واتخذت منها نماذج تحاكيها وتطورها لتخلق منها شيئا جديدا .

(٢)

وقد أطلنا الوقوف عند هذين الناقدين ، ووصفنا الأسس العامة التى تحكم اتجاههما « العلمى » فى النقد ، لأننا نعتقد أن « طه حسين » قد تأثر بهما تأثرا واضحا ، واتخذ من آرائهما النقدية وسيلة لدراسة المتنبى : حياته وشعره . وقد مزج « طه حسين » بين هذه المبادئ جميعا ، وصنع من هذا المزيج هذا المنهج المركب الذى أشرنا إليه فى مستهل هذه الدراسة .

ونستطيع أن نصف الدراسة التى بين أيدينا ، بأنها محاولة لكتابه « سيرة أبى الطيب المتنبى » فى إطارها التاريخى والنفسى ، على نحو ما كان يفعل « سانت بيف » فى دراساته النقدية المعروفة .

وقد عرض المؤلف لتاريخ هذه السيرة فى خمسة فصول طويلة ، وقف فى كل فصل منها عند مرحلة زمنية ونفسية بعينها من مراحل حياة المتنبى ، واتبع فى سبيل تحقيق ذلك منهجا مركبا كما قلنا ، اتخذ فيه من شعر الشاعر أساسا لوصف هذه الفترة أو تلك ، وحشد بين يدى هذا الشعر فى كل مرحلة طائفة من الأدلة التى ترجح هذا المعنى أو ذاك من معانى شعره ، وتميل به إلى مفهومات بعينها ، تكشف ، فيما يرى المؤلف ، عن مكنونات نفسه ، وتفضح أفكاره السياسية والمذهبية ، تلك التى كان يحرص الشاعر على أن تظل « متخفية » فى أعمق نفسه . وكان « طه حسين » حريصا على استخراج هذه البراهين من بيئة الحياة الإسلامية فى آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع فى أشكالها المختلفة : السياسية والاجتماعية والثقافية وهى تلك الفترة المضطربة التى شهدت مولد المتنبى ووفاته ، كما كان حريصا على أن يربط ربطا وثيقا بين هذه البيئة وبين ظروف المتنبى النفسية ، يقول « طه حسين » :

« . . . . إن الحياة العراقية خاصة والإسلامية عامة كانت تنحل إلى ثلاثة أشياء كل منها خليق بالتفكير الطويل العميق ، لأن لكل منها أثرا بالغا فى أحداث ذلك العصر على اختلافها :

الأمر الأول ، فساد السياسة . . . . وكل كتب التاريخ ، وكل كتب

الأدب تصور لك ماكان من انهيار سلطان الخلفاء وانحلال أمرهم ، وخضوعهم المطلق لعبث الجند ، وقادة الجند ، ولسلطان الخدم والنساء وما نشأ عن ذلك كله من عجز السلطان المركزى فى بغداد عن أن يجمع أطراف الدولة ويحزم أمرها . . . . . ثم مانشأ عن هذا كله من استقلال الأطراف وطموح الولاة إلى الملك ، وظهور القوميات الوطنية فى الشرق والغرب ، ونشوء عهد الإقطاع فى أوربا أثناء القرون الوسطى . .. . وفساد هذه السياسة الإسلامية قد استتبع من غير شك فساد الاقتصاد الإسلامى : فمادام السلطان المركزى مضطربا عاجزا ، كثير التقلب ، فشئون المال فى الدولة مضطربة مختلطة كثيرة الارتباك . وإذن فجباية الضرائب ، وملء الخزانة كل ذلك مضطرب أيضا . وإذن فدافعو الضرائب على اختلافهم وتباين طبقاتهم ، معرضون لألوان من الظلم لا يمكن إحصاؤها ، وإذن فالتعاون بينهم وبين السلطان منعدم ، وسوء الظن قائم مقام هذا التعاون ... ومن هنا يوجد الأغنياء الذين لا تحصى ثروتهم ، والفقراء الذين لا يتصور فقرهم ، والمضطربون بين الغنى والفقر الذين يواتيهم الحظ فيبلغون أقصى النعيم ، ثم تخافهم الأمانى وعودها فيهبطون إلى قرارة البؤس . . . .

أما رقى العقل فى هذا العصر فليس أقل ظهورا وجلاء من فساد السياسة والاقتصاد ، فهو العصر الذى نضجت فيه الحضارة الإسلامية ، وأدركت رشدها ، واستكملت قوتها ، وأخذت تؤتى ثمرها طيبا الذيذا فى كل فرع من فروع العلم والفلسفة والأدب والفن .

وكان العراق بالضبط أخصب مركز لهذه الحضارة الناضجة الراشدة والمثمرة : فيه التقت أكثر الأجناس التى تتألف منها الدولة الإسلامية . . . . فيه كان العرب ومعهم تراثهم التليد والطريف من الأدب والدين ، وفيه كان الفرس ومعهم حضارتهم الساسانية المعقدة التى تمتاز بالترف المادى والعقلى معا . وفيه كانت أخلاط الساميين الذين نقلوا تراث اليهود ، وتمثلوا تراث اليونان ».
ويمضى طه حسين فى هذه الصفحات الطويلة فيصف الحياة السياسية وفسادها والحياة العقلية ورقيها ، والحياة الاقتصادية وما أخذ يدخل إليها من الفوضى والنظام

وما ينشأ عنها من ثراء طبقات بعينها على حساب طبقات أخرى أرهقتها الضرائب الباهظة التى كان يفرضها السلطان وأعوانه من الجنود والخدم . وكان لابد أن يؤدى هذا كله ، فيما يرى طه حسين ، إلى « حرب متصلة وصراع مستمر وطموح لاينقضى ، وآمال لاتحد ، وجشع لايرضى » ، وأن تقع الثورات التى وقعت : كالثورة البابكية ، وثورة الزنج ، وثورة القرامطة . وكانت هذه الثوارت جميعا تقصد إلى تغيير الحياة الاجتماعية وتحقيق العدل والمساواة بين الأفراد والجماعات « وتقوية الشخصية الفردية ، وتحريرها من القيود والأغلال التى فرضها عليها النظام الدينى والاجتماعى . . . . وفى هذه البيئة المنكرة . . ولد المتنبى ، وأكبر الظن أن مولده كان أثرا من آثار هذا الفساد العظيم ، أو أنه لم يخل من تأثيره على كل حال . ولد المتنبى فى بيئة كان الدم يصبغها من حين إلى حين . . ولم يكن الدم وحده يصبغها وإنما كان يصبغها صبغ آخر ليس أقل نكرا من سفك الدم ، هو النهب والسلب ، واستباحة الأعراض وانتهاك الحرمات ، والاستخفاف بقوانين الخلق والدين »(١) .

كان المتنبى إذن ، فى رأى طه حسين ، ثمرة لهذا الاضطراب السياسى والفساد الاقتصادى والاجتماعى ، كما كان عقله وفنه ثمرة لهذا الرقى العقلى الذى امتازت به البيئة الإسلامية عامة ، والعراقية خاصة ، فى آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع الهجرى . وقد حاول المؤلف أن يفصل ما أجمله فى هذه الصفحات القليلة التى اجتزأنا سطورا منها ، فراح يتتبع المتنبى فى رحلته الطويلة التى اضطرب فيها بين العراق والشام ومصر ، ثم فى عودته إلى العراق مرة أخرى حيث قتل وهو فى طريقه إلى أميره « سيف الدولة » فى الشام . وقد وقف معه فى كل مرحلة من مراحل حياته وقفة طويلة ، راح فيها يرمم له صورة أخذ يلملم أجزاءها من مصادر مختلفة : شعره وظروف البيئة التى نزل بها ، فى الشام أو العراق أو مصر — وما طرأ على نفسيته

---

(١) لقد فصل « طه حسين » هذه الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية تفصيلا شديدا فى كتابه ٢٦ — ٣٣ .

من تحول . وأول ما نلاحظه أن هذه الصورة قد اختلفت أو قل تغيرت هذه الصورة فى المراحل التاريخية والبيئات المختلفة ، بفضل ما أخذ يدخله المؤلف عليها من تحويرات وتغييرات ، كانت فيما يرى أثرا من آثار هذه البيئة أو تلك . ونحب قبل أن نشرع فى نقد هذا المنهج ، أن نصحب « طه حسين » فى رحلته مع المتنبى ، لنرى إلى أى مدى اختلفت الصور التى رسمها له ، والتى كان مصدره الأول فيها ، شعر الشاعر وظروف حياته .

(١) وتختص الصورة الأولى بالمتنبى فى هذه الفترة المبكرة من حياته ، فترة الصبا والشباب — وهى فترة خطيرة ، بل هى إذا شئنا تحديدا دقيقا أخطر فترات حياته كلها : فقد تشكلت ، على أساس من ظروف حياته النفسية والاجتماعية والعقلية فى هذه المرحلة ، صور حياته فى المراحل التالية . وفى عبارة أكثر وضوحا ، إن ما أخذ يطرأ على شخصية المتنبى وتفكيره وسلوكه من تطور وتغير فى ظل أمراء الشام والعراق ومصر ، إنما كان صدى لهذه الظروف التى أحاطت بنشأته فى صباه ، ونتيجة لهذه الكوارث التى نزلت به فى شبابه .

وقد حدد « طه حسين » هذه الظروف التى أثرت فى حياة المتنبى وشكلت شخصيته وانتهت به إلى الكارثة ، بثلاثة أحداث رئيسية فى حياته المبكرة ، هى ضعة نسبه ، وفقر أسرته ، واعتناقه المذهب القرمطى الذى نشأ فى البادية على أيامه .

وقد حرص المؤلف فى تأييد شكه فى نسب المتنبى على أن يعتمد على شعره أولا وأخبار الرواة عن حياته ثانيا، وأن يفسر الشعر بالأخبار . أو قل انتهى من هذا كله إلى أن المتنبى لم يكن يعرف لنفسه نسبا عربيا مستقيما ، لا من جهة أبيه ولا من جهة أمه ، فيقول :

« وقد تعود الناس أن يؤمنوا بأن المتنبى رجل عربى خالص النسب ، ينتمى من قبل أبيه الى جعفى ومن جهة أمه إلى همدان ، وهما حيان من أحياء اليمن ، فيما يقول المؤرخون والنسابون. وجائز جدا أن يكون المتنبى عربيا وجائز أن يكون من عرب الجنوب ، جعفى الأب ، همدانى الأم ، ولكن

الشيء الذى ليس فيه شك هو أن ديوانه لايثبت هذا ولا يؤكده، بل لا يسجله ولا يذكره. ومن يدرى! لعل ديوانه ينفيه، ولعله ينفيه نفيا هو إلى الصراحة أدنى منه إلى الإشارة والتلميح »—وقد راح « طه حسين » يقابل بين الشعر والأخبار كما قلنا، ويتخذ من هذه الأبيات وثيقه على أن الشاعر لم يكن يعرف أباه، ولم يكن يستطيع، على أقل تقدير أن يفاخر بأسرته كما اعتاد الشعراء على أيامه وقبل أيامه، أن يفعلوا :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البـــــاحث والنجل بعض من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم   من نفروه وأنفدوا حيله
فخرا لعضب أروح مشتمله   وسمهرى أروح معتقلـــه
وليفخر الفخر إن غدوت به   مرتدياً خيره ومنتعلـــــه
أنا الذى بيّن الإله به الـ   أقدار : والمرء حيثما جعلـــه
جوهرة تفرح الشراف بها   وغصة لا تسيغها السّفله
إن الكذاب الذى أكاد به   أهون عندى من الذى نقله
فلا مبال، ولا مداج ولا   وان، ولا عاجز ولا تكله
ودارع سفته فخر لقى   فى الملتقى والعجاج والعجله
وسامع رعتـــه بقافيـــة   يحـــار فيها المنقح القـــوله
وربما أشهد الطعـــام معى   من لا يساوى الخبز الذى أكله
ويظهر الجهـــل بى وأعرفه   والدر در برغم من جهله !

والمتنبى فى هذه الأبيات لا ينسب نفسه، فيما يرى طه حسين، إلى أب كآباء الناس، وإنما ينسب نفسه إلى متجزئ له بعض يمتاز من كله، وبعضه هذا يفوق آباء الباحثين عن نسبه، المتقصين لأمره . . . . . « هو ينتسب إلى البأس والشدة، إلى المروءة والنجدة، وإلى ارتفاع الهمة وبعد الأمل وحسن البلاء : به يفخر السيف ان اشتمل السيف، وبه يفخر الرمح إن اعتقل الرمح وبه يفخر الفخر إن اكتساه ثوبا أو احتذاه نعلا » ! وحين يتساءل « طه حسين » عن هذا الكذاب الذى فزع منه الشاعر على هذا النحو، والذى يراه يمس نسبه وأسرته، لايجد عند المتنبى جوابا عنه، ولا يقف المؤلف عند ملاحظته هذه

الأمور وحدها ، ولكنه يضيف إليها أمرا آخر ، كانت له خطورته وآثاره على حياة المتنبي وشخصيته فيما بعد ، هو هذه النفس المعقدة التي يختلط فيها الشعور بالضعف بالشعور بالقوة اختلاطا شديدا : « فهو يشعر بالضعف بسبب ضعة نسبه ، وفقر أسرته ، ولكنه يحس بالقوة والتيه ، بسبب قوة إيمانه بنفسه وصدق معرفته للناس وشدة ازدرائه لهم واستهزائه بهم » . وقد كان لهذه المفارقة الاجتماعية الحادة بين طبقات المجتمع في أيامه آثارها الشديدة على نفسه، فقد رأى أثناء إقامته في بغداد مالم يره في الكوفة أو البادية من مظاهر الترف وألوان النعيم ، وفنون العبث واللهو وهي أمور زادت من سخطه على النظام الاجتماعي ، ومن حنقه على توزيع الثروة بين الناس . وعلى الرغم من أن الشاعر لم يسجل ، فيما يقول « طه حسين » شيئا مما رأى أو سمع في شعره الذي وصل إلينا، فإن في هذا الخبر الذي حفظه لنا رواة أخباره ، ما يصور هذه المفارقة الحادة بين الطبقات الفقيرة والطبقات الثرية في بغداد على أيامه وهي مفارقة تركت في نفس المتنبي وغير المتنبي من أوساط الناس ، مرارة وحقدا على النظام الاجتماعي الفاسد ونمت لتأخذ فيما بعد ،على يديه ويدي غيره من القرامطة والخرمية والزنج، شكل ثورات دموية عنيفة. ينقل « طه حسين » عن هؤلاء الرواة « أنه كان يمشي مرة في بغداد ومعه خمسة دراهم، فرأى بطيخا أعجبه لأنه كان باكورة ، فساوم فيه صاحبه حتى عرض عليه دراهمه الخمسة ، ولكنه لم يبلغ منه شيئا . وقف الفتى حزينا ينظر إلى البطيخ وإلى الدراهم وإذا تاجر يخرج من خن مقابل لبائع البطيخ، فهض البائع إليه متلطفا مبالغا في التملق ، يدعو له ويعرض عليه بطيخه ، والتاجر يأبى ويمتنع ، والرجل يهبط بالثمن شيئا فشيئا ، حتى سمح التاجر وطابت نفسه عن شراء البطيخ بدرهمين اثنين ، وأمر البائع أن يحمله إلى داره ، فلما انصرف التاجر أظهر المتنبي عجبه لصاحب البطيخ من هذه الحماقة التي حملته على أن يرفض خمسة دراهم كان يعرضها عليه ، ويقبل من التاجر درهمين ، لم تطب نفسه عنهما إلا بعد المساومة والعناء. فقال له التاجر : ويلك ! إنه يملك مائتي ألف دينار »! ويزعم الرواة ، فيما يقص المؤلف ، أن المتنبي أحب المال منذ ذاك الوقت وكلف بالغنى ، وحرص على أن يملك مائتي ألف دينار » !

(٢) وكان لابد أن تنتهى هذه الظروف بالمتنبي إلى البحث عن وسيلة لخلاص نفسه وبيئته . وقد وجد هذه الوسيلة فى مذهب كان قد أخذ ينتشر فى البادية على أيامه ، ويجمع حوله أنصارا متعطشين إلى العدل الاجتماعى الذي تفتقر إليه البيئة الإسلامية عامة ، والعراقية خاصة . ويرى «طه حسين» أن هذه القرمطية قد جاءته من طريقين : الأول نشأته الشيعية الغالية التى استحالت إلى قرمطية خالصة . والثانى ، رحيله إلى البادية حيث اتصل هناك بداع من دعاة القرامطة الذين كانوا يجولون فيها ، هو « أبوالفضل » الذى مدحه بقصيدة يقول فيها :

يأيها الملك المصفى جوهــرا من ذات ذى الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوتيـــه فتكاد تعلم علم ما لن يُعلمــا
ويهم فيك إذا نطقت فصاحة من كل عضو منك أن يتكلما
أنا مبصر ، وأظن أنى نائم من كان يحلم بالإلــه فأحلما
كَبُرَ العيـــان على حتى أنه صار اليقين من العيان توهما

ويرى « طه حسين أننا فى هذه الأبيات بإزاء رأى صريح فى الحلول ، فالمتنبي يرى صاحبه ملكا قد صفى من ذات الملكوت ، وأن روحه قبس من ذات الله ، » وهو يرى أن هذا القبس نور لاهوتى قد استقر فى صاحبه فكاد يظهره على الغيب ، وهو يكبر مايرى ، فهو يقظان يرى الله ، وهو يظن أنه نائم ، ثم ينكر أن يكون نائما ، لأن الله لا يرى فى الأحلام ، وهو يكبر هذا العيان ، ويرى أنه أعظم وأجل من أن يثبت له أمثاله ، فيرتاب فيما يرى ، ويكاد يتهم نفسه بالخيال والوهم » . وهذه الأفكار ، فيما يرى « طه حسين » صريحة فى انحراف المتنبى عن الجادة الدينية ، واندفاعه إلى هذا اللون من ألوان الفلسفة التى هى إلى الإلحاد أقرب منها إلى أى شيء آخر » !

وقد انتقل المتنبي من هذه القرمطية النظرية ، إلى القرمطية العملية إن صح هذا الوصف . فقد أخذ يصرح بالثورة ويدعو الناس إلى سفك الدماء ويؤلبهم على حكامهم ، فى شعر لا نشك فى أنه قد دنا به من الخطر دنوا شديدا وانتهى به إلى السجن آخر الأمر . وهذا الشعر الثورى أو الذي يدعو فيه

إلى الثورة ، كثير متنوع ، ولا نستطيع أن نقف عنده جميعا فى هذه الدراسة — ولكنا نتخير أبياتا من قصيدة طويلة ، يقول فيها :

لم الليالى التى أخنت على جدتى ... برقة الحال ، واعذرنى ولا تلم
أرى أناسا ومحصولى على غنم ... وذكر جود ومحصولى على كلم
ورب مال فقيرا من مروءته ... لم يثر منها كما أثرى من العدم
سيصحب النصل منى مثل مضربه ... وينجلى خبرى عن صمة الصمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها ... حتى كأن بها ضربا من اللمم
قد كلمتها العوالى فهى كالحة ... كأنما الصاب مذرور على اللجم
بكل منصلت ما زال منتظرى ... حتى أدلت له من دولة الخدم
وكلما نطحت تحت العجاج به ... أسد الكتائب رامته ولم يرم
تنسى البلاد بروق الجو بارقتى ... وتكتفى بالدم الجارى عن الديم
ردى حياض الردى يانفس واتركى ... حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذرك على الأرواح سائلة ... فلا دعيت ابن أم المجد والكرم
أيملك الملك والأسياف ظامئة ... والطير جائعة لحم على وضم
من لو رآنى ماء مات من ظمأ ... ولو مثلت له فى النوم لم ينم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدى بها لهم ... وإن تولوا فما أرضى لها بهم

ولايهم أن نختلف أو نتفق مع القدماء فى طبيعة هذه الثورة وفى مداها ، أكانت ثورة سياسية حقيقية ، أم كانت تنبؤا دفع المتنبى إلى السجن على نحو ما تقص روايات القدماء — فإن مثل هذا الشعر على اختلاف مقاصده وتنوع معانيه ، كان خليقا بأن يخيف السلطان منه ، ويدفعه دفعا إلى أخذه وإلقائه فى غيابة السجن .

(٢) وقد تركت هذه المحنة صداها فى قلب المتنبى ونفسه وسلوكه وفنه الشعرى أيضا : فقد طال عهده بالسجن حتى نهكه وأضناه ، وتعرضت

حياته للتلف والهلاك وطال إهمال السلطان وأعوانه له حتى اضطرت نفسه إلى التخلي عن هذا الكبرياء الذى رأيناه يملأ أشعاره الثائرة ، فاستسلم الشاعر إلى اليأس الذى اضطره إلى نسيان آماله وأمانيه فى الثورة على هذا الواقع الاجتماعى وتغييره ، وإشاعة العدالة المطاقة بين الناس . وتحول المتنبى فى أشعاره التى كان يبعث بها من سجنه إلى الأمراء ، إلى مادح شاك مستعطف ذليل ، وعلى الرغم من أن ديوان المتنبى لم يحفظ لنا كثيرا من هذا الشعر ، فإن ما انتهى إلينا منه على قلته ، يصور هذا كله تصويرا حسنا . يقول المتنبى :

بيدى أيها الأمـــير الأريب لا لشىء إلا لأنى غريـــب
أو لأم لها إذا ذكـــرتنى دم قلب بدمع عـــين يذوب
إن أكن قبل أن رأيتك أخطأ تُ فإنى على يديك أتـــوب
عائب عابـــنى لديك ومنـــه خلقت فى ذوى العيوب العيوب

(٣)

(٣) ولم تكن حياة المتنبى بعد خروجه من السجن ، فيما يرى طه حسين بأقل بؤسا وشقاء واضطرابا من حياته الأولى قبل أن تلم به الكارثة على نحو ما رأينا ، ولكن شقاءه وبؤسه فى هذه المرحلة الثانية لهما أسباب أخرى غير تلك الأسباب التى أشقته وحطمت كبرياءه : فقد كان المتنبى « فى حياته الأولى شقيا بالأمل ، وهو فى حياته الثانية شقى باليأس . وقد كان فى حياته الأولى يتحرق شوقا إلى عظائم الأمور وجلائل الأعمال ، وهو فى حياته الثانية يؤثر العافية وما يكاد يظفر بها ... وقد كان فى حياته الأولى شديد الثقة فى نفسه عظيم الإيمان بعزمه ، وهو فى حياته الثانية شاك فى نفسه أشد الشك ، قانط من عزمه أشنع القنوط . وقد كان فى حياته الأولى ساخطا على ماضيه ، متبرما بحاضره ، طامعا فى مستقبل باسم ، فيه الرضا وتحقيق الآمال ، وهو فى هذه الحياة الثانية نادم على ماضيه الذى جحده ، ملتاع على مستقبله الذى يئس منه ، ضيق بحاضره مع ذلك أشد الضيق . . . . »

وبهذه الروح اليائسة والنفس المضطربة ، وفد « المتنبى » مضطرا على

أمراء المسلمين فى شمال الشام ليستأنف معهم هذه الحياة التى كان يبغضها أشد البغض : حياة التكسب بالشعر عند قوم لايقدرون الشعر ، ولا يعرفون حق الشعراء ! ولايهمنا كثيرا أسماء الذين اتصل بهم الشاعر فى هذا الطور المظلم من أطوار حياته ، وإنما يهمنا ما أخذت تتركه حالته النفسية تلك على ما كان يقوله من الشعر من آثار : وأول مانلاحظه أنه لم يعد يجهر بقرمطيته ، ولم يعد يسرف فى الحديث عن بأسه وشجاعته ، أو قل إذا أردت أن تلخص سلوكه الفنى فى هذه المرحلة من حياته : أنه أخذ يصطنع الاحتياط الشديد فيما يقول ويفعل ويتكلفه تكلفا . ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من هذا الغناء الحزين الذى كان يلح بالرغم منه على صوره الشعرية ومعانيه ، ويصبغ مدائحه بهذا اللون المظلم . وهو حزن كما يصفه « طه حسين » ، « لا نكاد نحققه ولا نشخصه ولكنا نحسه مع ذلك غامضا ظاهرا مكتوما مكظوما » .

وهو يظهر فى مثل هذه الأبيات التى قالها بعد أن سمع زئير الأسد حين مر بقنسرين :

أجارك يا أسد الفراديس مكرم	فتسكن نفسى أم مهان فمسلم
ورائى وقدامى عـــداة كثيرة	أحاذر من لص ومنك ومنهم
فهل لك فى حلفى على ما أريده	فإنى بأسباب المعيشة أعلم
إذن لأتاك الرزق من كل وجهة	وأثريت مما تغنمين وأغـــنم

وقوله من قصيدة طويلة يصور ما آل إليه أمره :

أوانا فى بيوت البدو رحلى	وآونة على قتـــد البعير
أعرض للرماح الصم نحرى	وأنصب حر وجهى للهجير
وأسرى فى ظلام الليل وحدى	كأنى منه فى قمر منير
فقل فى حاجة لم أقض منها	على تعبى بها شروى نقير
ونفس لا تجيب إلى خسيس	وعين لا تدار على نظـــير
وكف لا تنازع من أتانى	ينازعنى سوى شرفى وخيرى
وقلة ناصر جوزيت عنى	بشر منك يا شر الدهور

عدوى كلُّ شيء فيك حتى | لخلت الأكم موغرة الصدور
فلو أنى حسدت على نفيس | لجدت به لذى الجد العثور
ولكنى حُسدت على حياتى | وما خير الحيـــاة بلا سرور

(٤)

(١) ولم يمض على المتنبي فى شمال الشام وقت طويل حتى تهيأت له سبل الاتصال بسيف الدولة الحمدانى عند مجيئه إلى أنطاكية سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، فمدحه وانتقل معه إلى حلب ، حيث بقى إلى جواره تسعة أعوام كاملة ، « لم يمدح أثناءها أحدا غيره ، ولم يقل أثناءها شعرا إلاوهو يتمثل سيف الدولة . ويمتاز شعر المتنبي فى مديح الأمير الحمدانى بالكثرة والتنوع والرقى الفنى ، كما يمتاز بأمر آخر له خطره فى هذا الطور من حياة المتنبى هو أن ثقته بنفسه التى افتقدها بعد سجنه ، قد عادت إليه ، وكبرياءه التى تخلى عنها بسبب محنته قد أخذت هى الأخرى تفرض نفسها من حين إلى آخر على سلوكه ، وتظهر آثارها فى مدائحه . وكانت هذه الشخصية القوية وتلك الكبرياء سببا فيما آل إليه أمره فيما بعد حين ترك سيف الدولة وهرب إلى « كافور الإخشيدى » فى مصر ! . .

وكان كل من الشاعر والأمير ، فيما يرى طه حسين محتاجا لصاحبه ، كان المتنبي محتاجا لسيف الدولة ، لأنه يريد أن يقع على أمير عربى يهبه من ثرائه ويثير حماسته إلى تمجيد البطولة العربية ، ويعيد للعرب مجدهم القديم . وكانت حاجة سيف الدولة إلى المتنبي حاجة البطل المسلم إلى شاعر عظيم يغنيه أعماله ، ويقف فنه على تمجيد انتصاراته . وقد عرف كل من الأمير والشاعر حاجة صاحبته إليه وأحس بفضله عليه . واتصلت المودة بينهما تسعة أعوام قال فيها الشاعر أعظم أشعاره كما قلنا . وتصور أولى قصائده فيه هذا الشعور الذى وفد به المتنبي على أميره : شعور البهجة والغضب والتحدى لهذه البيئة القبلية الراقية ، بيئة حلب التى وفد عليها ، وهى عواطف رأيناها تفسد حياته فى العراق وشمال الشام ، وسوف نراها تفسد حياته

فى ظل سيف الدولة ، وسوف تحمله على الرحيل فيما بعد عن « كافور الإخشيدى » — وقد بدأ الشاعر قصيدته بهذا الغزل الرمزى الذى تعود أن يبدأ به مدائحه لهذا الأمير أو ذاك — وهو غزل يصور عواطفه الحقيقية نحو أميره الذى بهره ماضيه وجذبه إليه حاضره . وهو يعلن من خلال هذا الغزل أنه وفد على علماء هذه البيئة وشعرائها متحديا عواطفهم الزائفة نحو سيف الدولة ، وقصورهم الواضح عن تصوير خلاله الكريمة تصويرا يليق بعظمتها . وفى لغة القصيدة وصورها الفنية ما يقنعنا بأن المتنبى لم يتعمد إيذاء شعراء سيف الدولة وحدهم ، وإنما قصد إلى أن يبهر كل من كان فى بيئته من الفلاسفة واللغويين والعلماء . وهو يستخدم ، لتحقيق ذلك ، فى التعبير عن عواطفه تجاه أميره أساليب المناطقة ، ولغة الفقهاء . وهو يتعمد التعمية فى استخدام بعض المفردات اللغوية ، تعمية تخفى حتى على علماء اللغة المتخصصين الذين كانوا يملأون بلاط هذا الأمير الحمدانى . يقول المتنبى :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه	بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه
وما أنا إلا عاشق ، كل عاشق	أعقّ خليليه الصفيين لائمه
وقد يتزيّا بالهــوى غير أهله	ويستصحب الإنسانَ من لايلائمه
بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها	وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه
كئيباً توقانى العــواذل فى الهوى	كما يتوقى ريّضَ الخيل حازمه
قفى تغرم الأولى من اللحظ مهجتى	بثانية ، والمتلف المــال غارمه

. . . .

وما حاجة الأظعان حولك فى الدجى	إلى قمر ! ما واجد لك عادمه
حبيب كأن الحسن كان يحبــه	فآثره ، أو جار فى الحب قاسمه

ويمضى الشاعر فى هذا الغزل الرمزى الذى يتخذمنه وسيلة لتسجيل عواطفه تجاه بيئة سيف الدولة ومن فيها من الشعراء والعلماء ، حتى يصل إلى مديح أميره ، ويتلطف إلى هذا المديح بهذه الأبيات التى يتحدى فيها شعراءه ويهزمهم ويتهمهم بالقصور والتقصير ، فيقول :

سلكت صروف الدهر حتّى لقيته على ظهر عزم مؤيدات قوائمه
مهالكَ لم تصحب بها الذئبَ نفسه ولا حملت فيها الغراب قوائمه
فأبصرت بدراً لا يُرى البدر مثله وخاطبت بحراً لا يَرى العبر عائمه
غضبت له لما رأيت صفاتـــه بلا واصف ، والشعر تهذى طماطمه
وكنت إذا يممت أرضاً بعيدة سريت وكنت السر ، والليل كاتمه

وكما كانت بيئة سيف الدولة ، فيما يرى « طه حسين » سببا فى هذه النقلة الفنية التى حققها شعره ، بفضل ثقافتها اللغوية والفلسفية والدينية ، فقد كانت هذه البيئة نفسها بما زرعه فيها من الغيرة والحسد ، سببا فى فساد صلته بأميره ورحيله عنه آخر الأمر إلى عدوه « كافور الإخشيدى » فى مصر .

(٥)

(٢) ونمضى سريعا إلى المرحلة الأخيرة ة من « سيرة أبى الطيب المتنبى » أعنى حياته فى مصر فى ظل حاكمها « كافور الإخشيدى » . ويظهر مما يرويه الرواة عنه وما يسجله هو فى شعره ، أنه وفد على « كافور » مضطرا ، وأنه هجر « سيف الدولة » آسفا . وبعبارة أخرى ، أن المتنى عندما نزل بكافور ، كان قد ترك قلبه وعواطفه فى « حلب » . وقد كان لهذا الأسف الذى يملأ نفسه ، آثاره الخطيرة على شعره فى مديح كافور ، فقد ظهر حبه لأميره الحمدانى أكثر من مرة فى قصائده التى كان يقولها فى كافور ، وأخذ هذا النغم الحزين ، نغم الأسى والندم يفرض نفسه على مطالع قصائده ، بل على صوره الشعرية ونظراته الفلسفية فى الحياة والناس . وتعد أولى قصائده فى مديحه المفتاح إلى فهم نفسية المتنبي وتفسير أشعاره فى كافور ، بل المفتاح إلى تفسير صوره الشعرية فى هذه المرحلة ،الفنية والنفاذ إلى مايسمى « بالمعنى الداخلى » لقصائده . وفى عبارة مختصرة إنها تمهد الطريق الى الكشف عن رموزه الشعرية .

ويستعير « المتنبى » فى هذه القصيدة كما كان يفعل فى مديحه لسيف

الدولة ، أساليب الغزل وصورة لوصف عواطفه . وهو أسلوب تكشف صوره عن هذه العواطف المعقدة التى كانت تصطرع فى نفسه : عواطف الندم على ترك سيف الدولة ، وعواطف الخوف من لقاء « كافور » . وقد رمز الشاعر عن « كافور » بالموت ، وراح يتهم نفسه بالشذوذ والمرض حين توهم خلاصه فى الموت ، أو قل حين جعل من لقاء « كافور » غاية وخلاصا . وهو يعتذر لنفسه بأنه فعل ما فعل مضطرا ، حين أعياه أن يجد صديقا يصفيه وده ، بل عدوا يخدعه ويداريه فى عداوته . ولعل أروع ما فى هذا الغزل ، هذه الأبيات التى تفضح عواطف المتنبى الحقيقية ، وتكشف عن تعلقه « بسيف الدولة » ، وتؤكد لأميره الجديد، أن « المتنبى » قد ترك قلبه فى « حلب » ، وأن الصلة بينهما يجب أن تحكمها المصلحة المتبادلة : يمدح المتنبي ويعطي «كافور» ! ولا نستطيع الوقوف عند القصيدة جميعا ، ولكننا نختار منها هذه الأبيات :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى ... صديقاً فأعيا ، أو عدوا مداجيا
إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة ... فلا تستعدّنّ الحسام اليمانيا
ولا تستطيلن الرماح لغارة ... ولا تستجيدن العتاق المذاكيا
فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ... ولا تتقى حتى تكون ضواريا
حببتك قلبى قبل حبك من نأى ... وقد كان غداراً فكن أنت وافيا
وأعلم أن البين يشكيك بعده ... فلست فؤادى إن رأيتك شاكيا
فإن دموع العين غدر بربها ... إذا كن إثر الغادرين جواريا

....

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

وقد طرأت على شخصية المتنبي وحياته وفنه، فيما يلاحظ « طه حسين » تحولات خطيرة ، كانت ثمرة لهذه البيئة المصرية التى وفد إليها ، وهى بيئة كانت تختلف عن بيئة « حلب » أيام سيف الدولة اختلافا كبيرا : فقد أقبل على « كافور » وضيعا ذليلا هان على نفسه فهانت نفسه على أميره وعلى

الناس ، أو كما يقول « طه حسين » : « قد ماتت نفسه أوكادت تموت ، ولم يبق منها إلا رمق ضئيل لم يكن خير ما بقى منها ، وإنما كان شر أجزاء نفسه وأهونها على الناس ... وبهذا الرمق الذليل ، أقبل الشاعر على أميره فمدحه ورغب إليه وطمع فيه . ومن هذا الرمق نفسه انصرف الشاعر عن « كافور » راغبا عنه ، زاهدا فيه ، هاجيا له ، كافرا بأنعمه ، مشيعا عنه الفحشاء ، مذيعا فيه السوء » . وذنب « كافور » أنه كان يعرف حقيقة المتنبي ، وأنه رأى فيه شاعرا يبيع المدح والثناء ، فاشترى منه المدح والثناء ، وأنه كان يراه « أحمق يجهل قدرنفسه ، فجاراه فى هذا الحمق ليصرفه عن خصمه ، وليحمله على أن يكذب نفسه ، وينكر ما كان قد قال فيه ، ويمدحه بعد أن كان قد ذمه » .

(٣) وقد كانت سيرة « كافور » مع « المتنبي » تفرض عليه فراغا طويلا ، وتملأ نفسه حقداً عليه وندما على تخليه عن صديقه « سيف الدولة » . وقد أتاح له هذا الندم وذلك الفراغ أن يعكف على نفسه ويطيل التفكير فى همومه ، وأن يتغنى بذلك كله فى أشعاره غناء حزينا غامضا ، لا نكاد نظفر بمثله فى أشعاره الأخرى التى كان يقولها فى العراق أو الشام أو حلب . وكان لهذه البيئة المصرية ، وما امتازت به من الهدوء والاستقرار فى أيام « كافور » آثار أخرى على شعر « المتنبي » . وهذه الآثار فنية خالصة ، فلم يكن « المتنبي » مضطرا إلى ارتجال الشعر على نحو ما كانت تضطره إلى هذا الارتجال ظروف البيئة الحمدانية القلقة ، التى تضطرب بالحرب الدائبة بين العرب والروم ، وتعانى من الانتفاضات القبلية المتكررة على سلطان الحمدانيين . ومعنى ذلك كله أن « المتنبي » قد استطاع أن يجود أشعاره ، وأن يطيل النظر فيها ، وأن يواجه بها هذه البيئة العقلية الناقدة فى « الفسطاط » ، وهى بيئة كانت حريصة على النظر فيما يقوله « المتنبي » من شعر فى « كافور » أو غيره من الأمراء . ولم يكن بد للمتنبي ، فيما يقول « طه حسين » من أن يحسب حساب هذا النشاط ، ومن أن يقدر أن شعره سيلقى فى الفسطاط بمثل ما كان يلقى به فى حلب من النقد والدرس والتحليل..

« وقد ظهر أثر هذا على « المتنبي » الذى لم يكن يظهر الشعر ولا ينشده إلا بعد الامتحان والابتلاء والتمحيص » ! .

وقد انتهى « المتنبي » بعد طول انتظار إلى اليأس من كافور وخيبة الأمل فيه ، فعزم على الرحيل بعد أن قال فى هجائه عددا من القصائد . وأيسر ما يدل عليه هذا الشعر أن « المتنبي » لم يكن ساخطا على « كافور وحده وإنما كان ساخطا على نفسه ، ذلك أنه قد انخدع بوعود « كافور » ولم تعصمه حكمته وتجربته من الوقوع فيما وقع فيه – ولعل فى هذه الأبيات التى جاءت فى واحدة من أهاجيه ، ما يصور هذا السخط الذى كان يملأ قلب المتنبي على نفسه أولا وعلى « كافور » ثانيا :

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا   وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا
أمينْاً وإخلافاً وغدرا وخسة   وجبنا ، أشخصاً لحت لى أم مخازيا
تظن ابتساماتى رجاء وغبطة   وما أنا إلا ضاحك من رجائيا

....

ولولا فضول الناس جئتك مادحا   بما كنت فى سرى به لك هاجيا
فأصبحت مسروراً بما أنا منشد   وإن كان بالإنشاد هجوك غاليا !

وقد خرج المتنبي إلى الكوفة حيث بقى بها زمنا ، واتصل من هناك « بابن العميد » ومدحه بعدد من القصائد . ثم اتصل « بعضد الدولة » فى شيراز، وبقى إلى جواره زمنا . ولكنه عاد فأزمع العودة إلى العراق فى طريقه ، فيما يقص الرواة ، إلى الشام ليلقى أميره القديم « سيف الدولة » . ولم يكد يمضى فى طريقه إلى بغداد حتى خرج عليه « فاتك الأسدى » فى نفر من الأعراب فقتله ، وقتل ابنه وغلمانه جميعا ، وأخذوا ما كان معه من متاع وكتب ومال .

(١) هذه هى حياة « المتنبى » كما يقصها « طه حسين » فى كتابه . وقد انصرفت عنايتنا فى الصفحات الماضية إلى تحقيق أمرين : أولهما ، الكشف عن منهج المؤلف فى كتابة هذه السيرة ، ورد هذا المنهج إلى أصوله التى استمد منها . والثانى ، تلخيص هذه الصور المختلفة التى كان المتنبى يتقمصها فى رحلة حياته التى اضطرب فيها بين العراق والشام ومصر .

ونريد الآن أن نتساءل عن القيمة الفنية والتاريخية لهذه السيرة . وبعبارة أخرى عن قيمة هذه النتائج التى انتهى إليها المؤلف عن حياة الشاعر وفنه .

والواقع أننا ننكر ، منذ البداية ، أن تكون لهذه السيرة قيمة تاريخية حقيقية ، يمكن أن يطمئن المرء إلى صحة أحداثها من حيث أنها صورة للواقع التاريخى والاجتماعى والنفسى الذى كان يعيشه « المتنبى » فى هذه الفترة المضطربة من حياته . ذلك أن « طه حسين » قد اعتمد فى رصد هذا الواقع على شعر الشاعر ، وعلى نصوص بعينها من هذا الشعر ، راح يوجه معانيها ، ويحلل رموزها على أساس من تلك الملاحظات والمعلومات عن بيئة الشاعر العامة والخاصة ، وعلى أساس ما ترسب فى نفسه من أحاسيس تعود إلى شعوره بضعة نسبه وفقر أسرته ، ومعاناته من الظلم الاجتماعى الواقع عليه وعلى معاصريه من أبناء الطبقات الفقيرة المضطهدة . ويحس قارىء هذه السيرة أن منهج « طه حسين » وما توصل إليه من خلال هذا المنهج من نتائج ، كان محكوما بما هو معروف فى النقد العلمى « بحتمية الظروف والملابسات ». وعيب مثل هذا المنهج أنه يصرف الدارس إلى العناية بحياة الشاعر دون شعره ، متخذا من هذا الشعر وثيقة تاريخية على حياته فى تفاصيلها وأشكالها المختلفة . وهذا بدوره يجرنا إلى سؤال بالغ الأهمية : ما قيمة الشعر التاريخية فى تصوير حيوات الشعراء ، وأيهما أجدى على الدراسة الأدبية : العناية بالشاعر أم العناية بفنه الشعرى ؟ والواقع أن الشعر أكثر من أى فن أدبى آخر ، من صفاته الأساسية أنه يعلو على التاريخ كما يعلو على الواقع الثابت ، ذلك أن قيمته

العظيمة تكمن فى « استاطيقا اللغة » التى تميزه من سائر الفنون الأدبية الأخرى – ومن ثم فإن مثل هذا « الفن اللغوى » إن صح هذا الوصف ، لا تشغله العناية الصارمة بتسجيل الواقع من حيث هو واقع حقيقى ، ولا تعنيه الأحداث التاريخية من حيث هى تاريخ ، ولكنه يعكس رؤية فنية بعينها لواقع الحياة من حوله ، ويتوسل إليها بطاقات لغوية وصور فنية مستمدة ، فى أغلب حالاتها ، من الخصائص الأسطورية للغة ، تلك التى تحيل الفن الشعرى فى صوره وأخيلته وأساليبه الفنية إلى بناء لغوى جمالى ، تثرى رموز اللغة معانيه ، وتعمق إحساس القارىء بجماله الفنى . وقد جعلت هذه الغاية الفنية من « الأنا » التى يصدر عنها الشاعر فى قصائده ، شيئا آخر غير تلك « الأنا » التى يعيش بها فى مجتمعه . كما جعلت من رؤية الفنان ومواقفه ، كما تتراءى لنا من خلال أعماله شيئا ضعيف الصلة بالواقع الحقيقى الذى نعايشه ويعايشه منا ، فهو لا يصور هذا الواقع كما هو فى حقيقته ، ولكنه يصدر عنه . وإذا كان الفنان يعرض علينا هذا الواقع كما يتراءى له من خلال أحاسيسه الذاتية ، فإن الذين يتلقون فنه يرونه بدورهم رؤى تتخالف وتتمايز باختلاف ذواتهم وتمايزها . ومغزى ذلك أن صورة « المتنبى » كما تتراءى لنا من خلال أشعاره ، ليست هى الصورة الحقيقية التى كان يواجه بها الحياة والناس فى عصره . ولكنها ، إذا شئنا أن نصفها وصفا دقيقا ، صورة « المتنبى » الشاعر كما يراها « طه حسين » ، وليست صورة « المتنبى » الإنسان كما كانت فى واقعها التاريخى . وهى صورة تختلف وتتنوع باختلاف الذين يقرأون شعره ، وتنوع أذواقهم الفنية . وهذا كله من شأنه أن يقودنا إلى أن ننظر إلى حياة المتنبى كما تتراءى لنا من خلال هذه الدراسة التى بين أيدينا نظرتنا إلى العمل الروائى ، الذى لا يقصد به صاحبه إلى مجرد تسجيل الأحداث التاريخية ، بقدر ما يقصد إلى استغلالها فى كتابة عمل روائى تكون الأحداث التاريخية فيه رموزا إلى قضايا ومواقف معاصرة يريد معالجتها . ومثل هذا المنهج الروائى الذى يستمد مادته القصصية من التاريخ الإسلامى ليس غريبا على « طه حسين » ، فقد اعتمد عليه فى كل الأعمال الأدبية التى

كتبها تقريبا ، من مثل: « الوعد الحق » و « على هامش السيرة » و « تجديد ذكرى أبي العلاء » ، « الفتنة الكبرى » و « على وبنوه » ، و « المعذبون فى الأرض » . بل نستطيع أن نقول، إنه قد اعتمد على هذا المنهج نفسه الذى يختلط فيه الواقع بالخيال اختلاطا شديدا ، فى كتابة سيرة حياته فى « الأيام ».

وقد اعترف المؤلف نفسه فى كتابه « مع المتنبى » بأن ما كتبه ليس تاريخا للمتنبى ، ولكنه رؤية استمدها من حياته وأحداث عصره ، فقال : « أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب إن صور شيئا ، فهو خليق أن يصورنى فى بعض لحظات الحياة أثناء الصيف الماضى ، أكثر مما يصور المتنبى ، وإنه لمن الغرور أن يقرأ أحدنا شعر الشاعر أو نثر الناثر ، حتى إذا امتلأت نفسه بما قرأ وبالعواطف والخواطر التى يثيرها فيه ما قرأ، فأملى هذا أوسجله فى كتاب ، ظن أنه صور الشاعر كما كان ، أودرسه كما ينبغى أن يدرس، على حين أنه لم يصور إلا نفسه ، ولم يعرض على الناس إلاما اضطرب فيها من الخواطر والآراء .... وديوان المتنبى إن صور شيئا فإنما يصور لحظات من حياة المتنبى ، لا أكثر ولا أقل ، كما أن هذا الكتاب الذى بين يديك إن صور شيئا فإنما يصور لحظات من حياتى ، لا أكثر ولا أقل . فكما أنك لا تستطيع أن تزعم أنك تستخلص من هذا الكتاب صورة صادقة لى تطابق الأصل وتوافقه ، بل لا تستطيع أن تزعم أنك قادرعلى أن تستخرج من كتبى كلها صورة صادقة لى تطابق الأصل وتوافقه . فأنت كذلك عاجز عن أن تخرج من دوان المتنبى صورة صادقة تلائم حياة المتنبى كما كانت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى » .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن المؤلف ينكر أن تكون لحياة المتنبى كما صورها فى كتابه قيمة تاريخية ، كما يدل على أن هذه الحياة فى صورتها الروائية هى التى كانت تشغله ، وتحمله على العناية بتسجيلها دون دراسة شعره . ومثل هذا العمل الروائى تكون قيمته « فنية » خالصة ، بمعنى أن هذه القيمة تكمن فى العمل نفسه : شخصياته وأحداثه وحبكته الروائية ، أكثر مما تكمن فى النتائج التاريخية التى يحتوى عليها . ذلك أن هذه

المادة التاريخية تستحيل إلى مادة روائية خالصة ، يصدق فى وصفها مايصدق فى وصف الأحداث الروائية من غلبة الخيال عليها وتميزها من الواقع الذى تسعى إلى تصويره . وقد حفلت هذه الرواية بشخصيات عديدة من الأمراء والثوار والعبيد ممن كان لهم دور فى حياة القرن الرابع الهجرى وأحداثه ، وقد لعبت شخصية « المتنبى » وهذه هى كل قيمتها ، المور الرئيسى فى أحداث هذه الرواية . وهى شخصية نامية حرص المؤلف على أن يطورها كلما انتقل بها من مرحلة إلى غيرها ، لتكون قادرة على تمثل الأحداث السياسية ، وتشخيص الجو الاجتماعى فى هذه البيئة أو تلك : فالمتنبى فى المرحلة الأولى من حياته ، صبى معقد النفس يعانى من ضعة نسبه وفقر أسرته ، وهو ، فى العراق ، فى آخر الصبا وأول الشباب ، ثائر ينشد العدل الاجتماعى ، ولكنه يفشل فى ثورته ويلقى به فى غيابة السجن . وهو فى شمال الشام ، فى بلاط سيف الدولة أميره المفضل ، عربى يجاهد بشعره وسيفه . وهو آخر الأمر فى ظل كافور طامع حاقد ذليل ، ينتهى أمره بالفشل ، ثم الهرب فالموت . ومعنى ذلك أن « طه حسين » يتخذ من هذه الشخصية التى تطور بها على هذا النحو ، رمزا على أحداث وقضايا ومواقف بعنيها ، كانت تشغل البيئة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . كما يتخذ من هذه الأحداث والمواقف عينها رموزا على أحداث معاصرة كانت تشغل البيئة العربية فى فى النصف الأول من القرن العشرين ، ونستطيع القول ، إذا أردنا تقويم هذه الشخصية وتحديد دورها ، بأن المتنبى كان رمزا فى صورته الأولى على هذا الفساد الاجتماعى والسياسى والاقتصادى فى بيئة القرن الرابع — كما كان فى صورته الثانية رمزا على هذا التوتر الدائب بين الحكام والرعية ، كما تمثل حياته فى ظل سيف الدولة هذا الجهاد العربى العنيف الذى كان يعيشه العرب منذ تألبت عليهم القوى الأجنبية . وهو فى ظل « كافور » رمز على هذا الفشل الذى انتهى بالمسلمين إلى الخنوع والذلة وفقدان الثقة إبان هذه الفترة المظلمة من تاريخهم السياسى . ونستطيع ، حين نتتبع شخصيات الرواية الأخرى ، من الأمراء والحكام والعبيد ، أن نكتشف عالما خصبا

حافلا بالرموز السياسية والاجتماعية والنفسية . وكما كانت حياة «المتنبى» وشخصيته ، كما قلنا ، رمزا على الفساد السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، فإن شخوص الرواية الأخرى كانت بدورها رموزا على قضايا ومواقف بعينها فى هذه البيئة : فشخصية « أبو طاهر القرمطى » وشخصية « بابك الخرمى » وغيرهما تعكسان هذا الشعور البدوى العنيف بالظلم الاجتماعى الذى كان يتمثل أكثر ما يتمثل فى هذه المفارقة الحادة بين حياة البادية وحياة الحاضرة . وهى مفارقة استحالت إلى انتفاضات ثورة استحلت دماء الناس وأعراضهم وأموالهم فى الكوفة وما جاورها من المدن والقرى ، فوقعت ، بسبب ذلك العنف ، فى أسر هذا الظلم الذى ثارت لمدفعه . كما يشخص « سيف الدولة » هذه الروح العربية التى ظلت على الرغم من الفشل والتفكك اللذين أصاباها ، قوية صامدة لا تكاد تهدأ حتى تثور .

(٢) وقد ترك هذا الحس الروائى الذى يميز أكثر ما كتبه « طه حسين » من الدراسات الأدبية ، آثاره على منهجه فى تفسير النصوص الشعرية ، واستخلاص النتائج ، والبحث فيها عن صورة المتنبى وبيئته وعصره .

ويطول بنا الأمر إذا حاولنا الوقوف عند كل ما عرض لتفسيره من الشعر ، وما خلص إليه من الأحكام ، ولكنا نختار من بين هذه المواقف الكثيرة موقفين ، يتصل أولهما بصحة نسب المتنبى وأثر هذا النسب على منهجه الفنى فى أهاجيه ومدائحه . ويتصل ثانيهما ، بمذهبه القرمطى ، وما انتهى به إليه من العنف والثورة حتى قاده إلى الكارثة الأولى فى حياته .

ويتخذ « طه حسين » من سكوت المتنبى عن الفخر بأبيه أو رثائه حين مات دليلا على عدم معرفته به ، أو على نفوره منه لضعة نسبه ، وفقر أسرته . ويرى أن هذه المكانة الوضيعة لأبيه وأسرته قد حملته على إيثار مذهب فنى بعينه ، كان يصطنعه فى الفخر بنفسه ومديح هؤلاء الموالى الذين شاءت ظروف العرب أن تمكن لهم من السلطة فى القرن الرابع الهجرى — ويتلخص هذا المذهب فى أن المتنبى كان يؤثر الانتساب « إلى البأس والشدة ، وإلى المروءة

والشجاعة وإلى ارتفاع الهمة وبعد الأمل وحسن البلاء : به يفخر السيف إن اشتمل السيف وبه يفخر الرمح إن اعتقل الرمح، وبه يفخر الفخر إن اكتساه ثوبا أو احتذاه نعلا »! وقد جاءت هذه المعانى على هذا النحو فى مقطوعة شعرية يبرأ فيها « المتنبي » من هذا الكذاب الذى كان يكاد به فى بيئة أبى العشائر (١) كما تكررت فى قصيدة أخرى يرثى بها جدته.

ويرى « طه حسين » أن افتخار « المتنبي » بالشجاعة والمروءة والنجدة والنبوغ على نحو ماجاء فى هذه القصيدة وغيرها يعكس حقيقة لها خطرها ، هى أن الشاعر قد وجد خلاصه فى الانتساب إلى هؤلاء الجدود الذين كان يخلقهم خلقا ويستعيرهم من المكارم والفضائل(٢) .

وعلى العكس مما يرى « طه حسين » فإن استقراء المعانى التى كان يذكرها « المتنبي » فى مدائحه على اختلاف الأمراء الذين اتصل بهم ، لتدلنا على أنه كان يصطنع هذا المذهب الفنى فى مديح الأمراء الذين كان لهم نسب معروف فى العرب ، كما كان يصطنعه فى مديح غيرهم من الموالى ، وإن هذا ليدل على أن منحى « المتنبي » فى الانتساب إلى الشجاعة والمروءة والنجدة وغيرها من القيم ، إنما هو منحى فنى خالص . وكان لهذا الاتجاه مايبرره، فقد اختلط العرب منذ الفتوحات الإسلامية بغيرهم من العناصر الأجنبية اختلاطا واسعا . ولم يكد يمضى وقت طويل على الدولة العباسية حتى نشأ جيل المولدين الذين لم تخلص نسبتهم إلى الدماء العربية ، مما مهد لهذا الاختلاط الواسع فى العصور التالية ، بين العرب وغيرهم من العناصر الأجنبية . وقد كان لهذا الاختلاط آثاره الحضارية والاجتماعية والسياسية الواسعة على البيئة العربية والإسلامية ، وهو الذى تسبب فى القرن الرابع ، إلى جانب الظروف الأخرى، بما نقلته هذه العناصر المولدة من ثقافات وديانات وفلسفات وثنية، فى هذا الاضطراب السياسى والاجتماعى والدينى الذى كان يعم البيئة العربية . وقد

(١) انظر ص ١١

(٢) كتب أستاذنا الدكتور مهدى علام بحثا عميقا عن فلسفة المتنبي عرض فيه هذه النضية وربطها بفلسفته فى الدنيا ، تلك التى يسميها « العصامية » راجع فلسفة المتنبي : ٢١ ـ ٣٦ .

ضعفت قيمة « النسب العربى » لضعف العنصر العربى . وأضحت القيم الخلقية والنفسية ذات مكانة عظيمة فى الشعر لافتقار الناس إليها فى هذا المجتمع المضطرب ، ولا ختلاط الأنساب وعدم جدوى العناية بها فى هذه العصور المتأخرة ، وإذا شئنا أن نفسر منحى « المتنبى » الفنى تفسيرا صحيحا ، قلنا إنه صورة من صور الرمز الفنى ، ينفذ الشاعر من خلاله إلى التعبير عن عواطفه وتسجيل مواقفه من الحياة وأحداثها ، والناس وسلوكهم فى بيئته ، بيئة القرن الرابع الهجرى . وبعبارة أكثر وضوحا ، إن « المتنبى » كان يتخذ من فن المديح ، وتغنيه بهذه القيم الخلقية والنفسية ، رموزا على ما كانت تفتقر إليه بيئته من الشجاعة والكرم والمروءة والوفاء — أن يخلق عالما مثاليا يتطلع إليه ويرى فيه خلاصه وخلاص بيئته ، وأيسر ما نستدل به على صحة هذا الفرض أمران : أولهما ، أن مدائح المتنبى ، إذا استثنينا أشعاره فى « سيف الدولة » تتصف بالمبالغة الشديدة فيما ينسبه إلى ممدوحيه من الفضائل ، بحيث نعجز عن تمييز هذا المديح أو ذاك ، ويستوى لدينا ، من حيث معانيه وعموميتها ، ما كان يقوله فى « أبى العشائر » و « بدر بن عمار » و « الأوراجى » و « ابن العميد » وغيرهم من الذين كان يتصل بهم من الأمراء والحكام والكتاب ، وما كان يقوله فى أوساط الناس الذين مدحهم .

والثانى ، أنه على كثرة ماقاله من الشعر فى مديح أميره المفضل « سيف الدولة » ، وهو حصيلة تسع سنوات قضاها إلى جواره ، ويكاد يملأ دفتى ديوان ضخم ، لم يكد يعرض فيه لآبائه وجدوده إلا فى أبيات قليلة كانت الإشارات فيها إلى هؤلاء الآباء والجدود تجىء عرضا ، فى الوقت الذى نراه يلح إلحاحا شديدا على مديحه بالشجاعة والقوة والمروءة والكرم ، بل ونسبته إلى هذه الصفات وغيرها من القيم على نحو ما كان يفصل فى مدائحه لغيره من الأمراء وأوساط الناس .

وكل ما نجده ، من اختلاف بين شعره فى « سيف الدولة » وشعره فى غيره من الأمراء الذين اتصل بهم ، أن حبه لأميره « سيف الدولة » وتعلقه به وإعجابه بانتصاراته كانت تملأ حياته وقلبه ، وتفرض عليه أن

يفنى ذاته فى ذات هذا الأمير العربى . ولعل مرد هذا الإعجاب إلى هذه العصبية العربية التى كان يؤمن المتنبى بها ، منذ أن وعى آثار هذا الاضطراب الذى كان يعم الحياة العربية بعد أن سقطت السلطة من أيدى العرب وانتقلت إلى أمراء الموىلات . وقد كان « المتنبى » يرى فى أميره فتى عربيا ينهض بما كان ينهض به الآباء من جهاد ، وكان يعتقد فى قدرته على أن يعيد للعرب مجدهم القديم ، و « للمتنبى » فى هذا الأمير العربى شعر لانستطيع أن نقف عنده ، فى هذه الدراسة ، لكثرته وتنوعه ، ولكنا نتخير منه هذه الأبيات التى نجتزئها من قصائد مختلفة لندلل على أن الشاعر لم يكن يحفل فيها بالوقوف عند نسب « سيف الدولة » ولم يكن يحرص على ذكر هذا النسب ، حين يذكره ، إلا ليتخذ منه طريقا إلى تأصيل مديحه بالشجاعة والمروءة والكرم وغيرها من الصفات التى كان يحرص على نسبة ممدوحيه إليها :

يا مليك الورى المفرق محيا ... ومماتا فيهم وعزا وذلا
قلد الله دولة سيفها أنـــت ، حساما بالمكرمات محلى

....

– وإذا اهتز للندى كان بحرا ... وإذا اهتز للوغى كان نصلا
ذى المعالى فليعلون من تعالى ... هكذا هكذا وإلا فلالا
شرف ينطح النجوم بروقيـــه وعز يقلقل الأجبـــالا
حال أعدائنا عظيم وسيف الدو ... لة ابن السيوف أعظم حالا
– والمسمون بالأمـــير كثير ... والأمير الذى بها المأمول
الذى زلت عنه شرقا وغربا ... ونداه مقابلى ما يـــزول
ومعى أينما سلكت كأنى ... كل وجه له بوجهى كفيل
– من تغلب الغالبين الناس منصبه ... ومن عدى أعادى البخل والبخل
ليت المدائح تستوفى مناقبه ... فما كليب وأهل الأعصر الأول
خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به ... فى طلعة الشمس مايغنيك عن زحل
إن الهمام الذى فخر الأنام به ... خير السيوف بكفى خيرة الدول
أنت الجواد بلا من ولا كدر ... ولا مطال ولا وعد ولا مذل
أنت الشجاع إذا ما لم يطأ فرس ... غير السنور والأشلاء والعلل

وحين يرثى أخت سيف الدولة « لاينسبها إلى آبائها ، ولكنه يكتفى بنسبتها إلى أخيها فى هذه الأبيات ، ولعل فى هذا مايذكرنا بما فعله فى رثائه لجدته ، فنسبها إليه :

يا أخت خير أخ ، يابنت خير أب ... كناية بهما عن أشرف النسب ،
أجلُّ قدرك أن تُسْمى مؤبنــة ... ومن يصفك فقد سماك للعرب
غدرت يا موت كم أفنيت من عدد ... بمن أخذت ، وكم أسكت من لجب
وكم صحبت أخاها فى منازلة ... وكم سألت فلم يبخل ولم تخب
فأنت حسام الملك والله ضارب ... وأنت أبو الهيجا ابن حمدان يا أبى

ولعل فى هذين البيتين اللذين اختتم بهما أرجوزته فى « عضد الدولة » ، مايصور رأيه فى العصامية ، فيما يقول أستاذنا الدكتور مهدى علام ، « بأن فخر الفتى بنفسه وأفعاله ، ينبغى أن يكون قبل فخره بأعمامه وأخواله ، وإلا كان كالقبيح إذا تحلى ، خير منه المعطال الحسناء :

ورب قبح وحــلىٍّ ثقــال ... أحسن منها الحسن فى المعطال
فخر الفتى بالنفس والأفعال ... من قبله بالعم والأخــوال

وفى شعر المتنبى مايدل على أنه كان « يجعل للرأى قيمة أعلى من السن كما جعل للمكارم قيمة من كرم المحتد » (١) :

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت ... منى بحلمى الذى أعطت وتجريبى
فما الحداثة من حلم بمانعــة ... قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب !

(٣) فاذا ما تركنا نسب المتنبى إلى مذهبه القرمطى، رأينا « طه حسين » يتخذ من هذا النغم الثورى الذى يغلب على بعض أشعاره ، ومن الخروج على جادة الدين أحيانا، دليلا على هذه القرمطية فى شكليها النظرى والعملى . وقد وقف المؤلف فى سبيل إثبات هذه القرمطية ، عند مقطوعتين من شعر

---

(١) فلسفة المتنبى : ٢٢ .

المتنبي » ، تدل أولاهما على أنه عاد من البادية « وهو قرمطي الرأى ، متحفز أن يكون قرمطي السيرة أيضا » :

إلى أى حين أنت فى زى محرم ... وحتى متى فى شقوة وإلى كم ؟
وإلا تمت تحت السيوف مكرما ... تمت وتقاسى الذل غير مكرم
فثب واثقاً بالله وثبة ماجد ... يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

وتدل الثانية ، وهي مديح لرجل يدعى « أبا الفضل » على تأثره بالمذهب النظرى للقرامطة وغلاة الشيعة : ففيها رأى صريح فى الحلول ، وانحراف عن الجادة ، واندفاع إلى هذا اللون من الفلسفة التى هى أقرب إلى الإلحاد منها إلى أى شيء آخر :

يأيها الملك المصفى جوهراً ... من ذات ذى الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوتيه ... فتكاد تعلم علم ما لن يعلما
ويهم فيك إذا نطقت فصاحة ... من كل عضو منك أن يتكلما
أنا مبصر ، وأظن أنى نائم ... من كان يحلم بالإله فأحلما
كبر العيان على حتى إنه ... صار اليقين من العيان توهما

وقد راح « طه حسين » فى فصول الكتاب المختلفة يلاحظ هذه الثورة وهذا الخروج عن « جادة الدين » ليردهما ، هنا وهناك ، إلى هذه القرمطية النظرية والعملية لأبى الطيب المتنبي . وحين نراجع هذه الأشعار التى جاءت فى كتابه نلاحظ أولا أن المبالغة تغلب على صورها ومعانيها وأخيلتها ، وهى مبالغة أغرته بتفسيرها على هذا النحو الذى راح يتخذ فيه من هذا الشعر وثيقة على قرمطية المتنبي . وهذه المبالغة إن دلت على شيء ، فإنما تدل على حدة فى الطبع ، وغلو فى تقدير الأمور والحكم عليها ، وهى صفات لازمت « المتنبي » فى سلوكه طوال حياته ، كما أنها غلبت على أشعاره جميعا على اختلاف موضوعاتها ونغمها الفنى ، ومعنى ذلك أن هذه المبالغة ، إذا أردنا أن نفهمها فهما صحيحا ، ليست سوى اتجاه فنى آخر كان المتنبي يصدر عنه فى شعره وسلوكه كما قلنا ، ولم يكن بدعا فى هذا الاتجاه فقد كانت المبالغة فى أشعار المديح صفة تميز هذا الفن عند شعراء العرب المختلفين ،

وفى عصور الأدب المختلفة ، من الجاهلية إلى الإسلام . والملاحظة الثانية أن « المتنبي » قد قال هذا الشعر فى سن صغيرة، فقد كان فى السابعة عشرة من عمره حين عاد من البادية، وهى سن لاتؤهله لمثل هذا التفكير النظرى المذهبى على نحو مايقص « طه حسين » ، فضلا عن أن اتصاله بغلاة القرامطة و دعاتها ليس سوى فرض يزكيه لديه هذا «الشعر الثورى » إن صح هذا الوصف، فلم يشر الرواة بشيء إلى قرمطية « المتنبى » ، فى الوقت الذى نراهم فيه يلحون إلحاحا غريبا على دعوى النبوة ! . ولو كان القدماء يعرفون عنه شيئا من ذلك لما سكتوا عن روايته . كما أننا نلاحظ أمرا آخر له قيمته ، هو أن « أبا الفضل » ، هذا الذى يراه « طه حسين » داعية قرمطيا اتصل به الشاعر ومدحه بمقطوعته الثانية ، شخصيه غامضة غموضا شديدا ، ولا نظن أن رجلا له مثلا هذا الخطر يمكن أن تخفى أخباره على الرواة . ونظن ظنا أنه واحد من أوساط الناس الذين كان الشاعر يتصل بهم فى هذه الفترة المبكرة من حياته الفنية ، قبل أن يحقق لنفسه هذه المكانة الشعرية الضخمة ويدخل إلى قلوبهم بمثل هذه المبالغات الشعرية .

ويحفل ديوان المتنبى بالقصائد والمقطوعات الشعرية التى كان يمدح بها هؤلاء المجهولين من أمثال أبى الفضل » . وعلى الرغم من أن « المتنبى » قد تخلى ، فيما يقول طه حسين ، عن هذه القرمطية . بعد خروجه من السجن واتصاله «بسيف الدولة » وغيره من الأمراء ، فإن الحدة والمبالغة والخروج عن جادة الدين ظلت تلون أشعاره ، مما يدل على أنها لم تكن وليدة مذهب بعينه ، سواء أكان هذا المذهب قرمطة أو تشيعا .

ولاتدل أشعار « المتنبى » التى بين أيدينا على أن خروجه ، فى بعض الأحيان ، عن الجادة الدينية كان وليد سلوك فلسفى بعينه ، أو بعبارة أخرى أنه يعكس فلسفة إلحادية متميزة ، فإن تقويم الشعر بهذا المقياس الدينى من شأنه أن يضطرنا إلى رفض كثير من الأشعار الجيدة التى ورطت المبالغة أصحابها فى هذا المعنى أوذاك ، وإن نظرة فيما وصل إلينا من دواوين الشعر العربى القـــديم فى العصور الإسلامية المختلفــة ، لكفيلة بإقناعنا بأن مثل

هذه المعانى التى تعد خروجا على « جادة الدين » كثيرة كثرة مفزعة فى شعر القدماء ، حتى عند هؤلاء الشعراء الذين صحت عقيدتهم الدينية — ولعل حقيقة المشكلة تنبع من خطأ أساسى فى النظر إلى « عالم الشعر » و « عالم الواقع » على أنهما شىء واحد ، وأن النص الشعرى يعكس ، بسبب ذلك ، صورة منشئه فى أخلاقه وسلوكه وعقائده ! وكما قلنا من قبل ، إن عالم الشعر متميز من عالم الواقع ، ومن ثم فإنه يجب أن ننظر إلى هذه الأشعار نظرة فنية خالصة ، وأن نقيسها بمقاييس فنية نكشف فيها عن غاياتها الحقيقية التى قصد الشاعر إليها . ونعتقد أنه ليس فى هذه الأبيات إلحاد أو خروج على جادة الدين ولكن فيها ، إذا صحت نظرتنا إليها ، مبالغة فنية خالصة ، يعبر الشاعر من خلالها ، عن إعجابه بهؤلاء الممدوحين . كما أن « المتنبى » كان مفتونا شأنه فى ذلك شأن شعراء هذه الفترة المتأخرة بالثقافات التى كانت تتميز بها بيئة القرن الرابع الهجرى على اختلاف موضوعاتها ، وقد فرضت هذه الثقافات المتنوعة نفسها على شعر الشعراء ، وكانت أوضح ما تكون فى شعر اثنين هما : المتنبى وأبو العلاء المعرى . ونحس ونحن نطالع مدائح « المتنبى » أنه لم يكد يترك شيئا من معارف عصره فى الفلسفة والمنطق واللغة والتصوف والديانات إلا ونقله إلى أشعاره ؛ وفى الحقيقة ، كان المتنبى مضطرا إلى هذا اللون من ألوان السلوك الفنى بسبب هذا التحدى الذى كانت تفرضه عليه طبيعة التكوين الثقافى لهذه البيئات المختلفة التى وفد عليها وعاش فيها أكثر حياته وقد رأينا فيما مضى ، كيف وفد على بيئة « سيف الدولة » متحديا لعلمائها على اختلاف شخصياتهم — وقد حفلت أولى مدائحه التى أنشدها بين يدى أميره بمصطلحات الفلسفة والمنطق والتشريع واللغة والنحو ، التى قصد أن يبهر بها علماء البيئة ويسوءهم فى علمهم وأنفسهم . والأبيات التى بين أيدينا لا تختلف عن أشعاره الأخرى التى جاءت فى قصائد المديح ، من حيث احتفاؤها الثقافى : وهى بذلك لا تصور إلحادا أو خروجا على جادة الدين ، ولكنها تعكس تطلع الشاعر إلى ارضاء ممدوحه ورغبته فى الإدلال بثقافته .

(١) رأينا فيما مضى أنه على الرغم من انصراف «طه حسين» فى دراسته إلى العناية بحياة المتنبي وشخصيته ، فإنه كان يعرض من حين إلى آخر لبعض أشعاره بالتحليل الفني . وقد رأينا أنه كان يخضع فى هذا التحليل للمنهج « التأثرى » — وهو منهج لا يصدر فيه أصحابه عن قواعد ومقاييس نقدية محددة ، ولا يحفلون فيه بتعليل أحكامهم . ولكن مرد هذه الأحكام عندهم فى غالب الأحيان إلى الذوق الفردى ، والقدرة الذاتية على تمييز الأساليب الأدبية وتذوقها . وليس هناك من شك فى أن ذوق « طه حسين » النقدى كان من أرقى الأذواق وأقدرها على تلقى الشعر والتمييز بين أساليبه المختلفة . كان ذوقا مرهفا ، تسنده ثقافة أدبية ونقدية واسعة ومتنوعة . ولعل إحساس «طه حسين» بقدرته على تحليل النصوص واعتزازه الشخصى بهذه الثقافة الرفيعة هو الذى حمله على إصدار أحكامه التأثرية تلك دون الاحتفال بالتعليل لها . ويحق لنا أن نسجل هنا حقيقة لها خطرها، هي أن أحكامه النقدية فى هذا الكتاب قد صيغت صياغة أدبية رفيعة ، أوهى ، إذا شئنا وصفها وصفا صحيحا ، قصائد شعرية أخرى ، لاتقل عذوبة وجمالا وأثرا فى النفس عن قصائد المتنبي « التى تفسرها . ومن ثم فإن درس « منهج طه حسين النقدى » يحتاج لكى يتسنى لنا وصفه وتقويمه تقويما صحيحا ، إلى أن نجرد هذه الأحكام النقدية من لغة طه حسين « العذبة » حتى لا تحول هذه العذوبة اللغوية بيننا وبين هذا الوصف وذلك التقويم . وأول ما نلاحظه أن مكونات هذا المنهج « التأثرى » قديمة ، تجرى على درب النقد العربى القديم كما يتجلى بصفة خاصة فى « الوساطة » ، « والموازنة » ، و « البيان والتبيين » وغيرها من كتب القدماء فى البلاغة والنقد والأدب . ونستطيع ، حين نحاول تجريد هذه المادة النقدية الواسعة التى تحفل بها كتب « طه حسين » ودراساته فى قضايا واتجاهات نقدية محددة ، أن نلاحظ أن منهج « طه حسين » وذوقه فى تحليل الشعر وتقويمه ، يحكمهما اتجاهان عامان كان يصدر عنهما فى كل مايعرض له بالدراسة التحليلية من الشعر القديم ، على اختلاف الشعراء

وتباين أنغامهم الفنية . فأما الاتجاه الأول ، فهو أن للشعر وظيفة اجتماعية وسياسية ، أوإذا أردنا وصف ذلك وصفا صحيحا ، أن للشعر قيمة تاريخية تتمثل فى أنه صورة لحياة صاحبهوعصره وبيئته فى أشكالها وظروفها المختلفة . والثانى ، أن للشعر قيمة أوقل وظيفة فنية يحققها الشاعر من خلال مايحشده من الصور الفنية والبلاغية للتعبير عن معانيه، وتتوقف هذه القيمة الفنية على مقدار مايحدثه هذا الشعر من أثر فى قارئه .

(١) وقد كان لاحتفال طه حسين بوظيفة الشعر التاريخية آثار عميقة على طريقته فى تحليل النصوص التى وقف عندها من شعر المتنبى ، وعلى طبيعة النتائج التى انتهى إليها . فقد دعاه ذلك إلىالمقابلة المعروفة بين عالم الشعر وعالم الواقع ، كما رأينا ، بغية استخلاص صورة حقيقية لحياة الشاعر وعصره ، من أشعاره ، كما دعاه إلى البحث الدائب عما يسمى بعنصر « الصدق » الواقعى فى الشعر ، وهو عنصر جعل له قيمة كبيرة فى دراساته عامة كما عول عليه كثيرا فى كتابه « مع المتنبى » خاصة ، فى استخلاص هذه الصور الروائية التى رسمها للشاعر وعصره . وسوفيطول الأمر بنا إذا حاولنا الوقوف عند كل ماوقف عنده المؤلف من هذا الشعر ، هذه الوقفة الباحثة عن حقائق التاريخ والواقع ، فهى كثيرة متنوعة ، كثرة شعر المتنبى وتنوعه ، ولكننا نتخير هذه السطور التى نجتزئها اجتزاء من تحليله المطول للامية « المتنبى » التى يقولها فى مدح « سيف الدولة » ووصف انتصاراته عندما اقتحم على الروم « ملطية » . وهى قصيدة يحتفل بها « طه حسين » احتفالا خاصا ، ويراها جمعت خصالا لم يرها اجتمعت فى غيرها من القصائد التى وصف فيها جهاد الأمير للروم — ويلاحظ فى القصيدة ظاهرتين تميزانها وهو لذلك يتخذ منهما مدارا لهذا التحليل النقدى الذى يقابل فيه بين عالم الشعر وعالم الواقع كما قلنا ، هما ، هذا الروح العذب الغريب الذى لا نستطيع وصفه ولا تصويره ، ولكننا نحسه إحساسا قويا ، وهو روح يشيع فى نفس قارئها خفة وطربا ؛ والثانى ، هذه الحركة النشطة السريعة ، وهذا الاندفاع العنيف الذى لا يحفل صاحبه بالمصاعب ، وإنما يقتحم كل

ما يعترضه ويكتسح كل ما يلقاه . وهو يرى أن الشاعر قد استعار ذلك كله من طبيعة الأحداث التى وصفها والحرب التى اشترك فيها مع أميره ، فقال :

« ... صاغ الشاعر هذه القصيدة على مثال لامية السموءل التى أولها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميـــل

فاصطنع الوزن نفسه ، والقافية نفسها واللغة نفسها أيضا ، بل هو استعار من هذه القصيدة طائفة من الألفاظ والمعانى والأساليب ، ولكنه لم يصنع ذلك تقليدا ولا احتذاء وإنما أعجبه هذا المذهب الشعرى ، فعارض السموءل ولم يتخذه إماما . وهو حين ذهب هذا المذهب الفنى أجرى فى القصيدة روحا عذبا غريبا ليس من اليسير وصفه ولا تصويره ، ولكنك تحسه إحساسا قويا ، بل أنت تقرأ القصيدة ، فاذا هذا الروح يسبق ألفاظها ومعانيها إلى قلبك ، ويشيع فى نفسك خفة وطرباً ، لا تجدهما حين تقرأ أى قصيدة أخرى من قصائد « المتنبى » .

« والغريب أن هذا الروح العذب الخفيف يحتفظ بعذوبته وخفته فى القصيدة كلها ، ولكنه مع ذلك يتخذ أشكالا ، وإن شئت فقل يتخذ ألوانا مختلفة تتباين بتباين المعانى والموضوعات التى يطرقها الشاعر فى هذه القصيدة . فهو على عذوبته حزين شاحب كئيب ، يثير فى نفسك الحنان والرحمة والألم الهادىء حين يتغنى الشاعر فى هذا الغزل الذى بدأ به القصيدة . فإذا انتهى الشاعر إلى المدح ووصف الموقعة خلع عن هذا الروح العذب الخفيف دائما حزنه وشحوبه وكآبته ، واتخذ ثوبا زاهى الألوان إلى أبعد حد ، يمسه ضوء الشمس ، فتضطرب ألوانه وتتموج تموجا ساحرا وإذا هو يغلبك على نفسك وإذا نفسك تتموج معه كما يتموج . والشاعر يصف الحرب وصفا دقيقا . وكانت الحركة النشيطة السريعة أخص ما تمتاز به هذه الحرب ، بل كانت هذه الحرب تمتاز بخصلة أخرى لعلها نتيجة لهذه الحركة وهى الجرأة التى لا تسمح بمهل ولا أناة ، ولا تبيح رؤية ولا تفكيرا ، وإنما هى اندفاع متصل إلى أمام ، يزداد عنفه من وقت إلى وقت ... يصعد حين تعترضه الجبال ، وينحدر حين ينتهى من القمة إلى السفح ، ويعود حين ينتهى إلى السهل :

حركة وجرأة هما أشبه شيء بنشوة النشوان الذى يأتى ما يأتيه عن فرح ونشاط ، لا سعة فيهما لتعقل أو تدبر .

وكذلك فعل سيف الدولة فى هذه الحرب ، فقد خطرت له فجأة فاندفع إليها من حران لا يلوى على شيء حتى أمعن فى بلاد الروم واقتحم ملطية . فلما أراد العودة من درب أرمينية وجد الدرب قد أخذ عليه ، وكان خليقا أن يتدبر وأن يقدر أنه قد أخذ من ورائه أيضا ، وأن يحتال فى اقتحام الدرب ، ولكنه أبى أن يضيع الوقت ، فكر راجعا فى سرعة الطير ، واقتحم ملطية مرة أخرى غير مبال بما كان العدو قد أعده له من أمامه ، وبما كان خليقا أن يلحقه من وراء . ثم انتهى فى هذه السرعة الجريئة الغريبة إلى مخرج من بلاد الروم فسلكه . وظن الروم أنه قد انصرف عنهم ، ولكنه لم يلبث أن عاد إليهم مرة أخرى ، فدمر وخرب ... ومضى حتى أدرك الفرات فاقتحمه اقتحاما على ظهور الخيل . ولم يكد ينتهى إلى آمد ويعلم بعبث الروم حول أنطاكية ، حتى خف وأغذ وأخذ الروم عند مرعش ، وهم قافلون فمزقهم تمزيقا ، وأضاف إلى ما كان عنده من الغنائم والأسرى ، وأخذ ابن القائد نفسه وعاد مظفرا .

وكان سيف الدولة نشوان قد أسكرته الحرب ، فمضى فيها لا يقف ولا يتدبر . وأتيح له النصر ، فإذا هذا النصر نفسه يسكر شاعره المتنبى ، وإذا هو ينشىء ، هذه القصيدة صورة دقيقة مطابقة كل المطابقة للأصل الذى أراد وصفه وتصويره . فأنت ستحس ، حين تقرأ هذا الوصف ، الحركة والنشاط اللذين أحسهما المتنبى حين تبع سيف الدولة فى غارته الجريئة السريعة تلك ، لا يكاد يطمئن ولا يستقر ولا يستريح . وستمضى أنت فى قراءة القصيدة متنقلا من مقام إلى مقام ، صاعدا مع الجيش حين يصعد ، ومنحدرا مع الجيش حين ينحدر ، ودائرا مع الجيش حين يدور حول العدو ، ثم هاجما مع الجيش حين يهجم على العدو . ثم إن هذا الروح العذب الخفيف على احتفاظه بعذوبته وخفته ، يخلع هذا الثوب ذا الألوان المشرقة المتألقة إذا فرغ من هذا الوصف ليتخذ ثوبا آخر .. حالكا بعض الشيء ، أو قل قاتما يكاد يمعن فى القتوم ..

وذلك حين يلتفت الشاعر إلى ما وراء سيف الدولة من بلاد المسلمين وإلى من حول سيف الدولة من ملوك المسلمين ، فلا يرى إلا ذلا وإلا ضعة وإلا خمولا وجمودا ، وإلا إقبالا على اللهو وعكوفا على اللذات وضجيجا وعجيجا لا غناء فيهما ولا طائل منهما . . . . . . » .

وواضح كذلك أن « طه حسين » لم يكن حريصا على إجراء هذه المقابلة بين عالم الشعر وعالم الواقع فحسب ، ولكنه كان حريصا على المقابلة بين عالم « المتنبي » فى هذه القصيدة ، وعالم الشعر القديم . وهذه المقابلة كما قلنا ، تغلب على دراسته النقدية عامة ، وقد اتخذت فى كتابه هذا صورا مختلفة فكانت مقابلة بين معانى شعره وواقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية كما يتمثل فى أشعاره التى كان يقولها فى أيام الصبا وأول الشباب ، وهى أشعار تعكس ثورته وحقده على ظروف الحياة من حوله . كما كانت مقابلة بين عالم شعره وواقع الحياة السياسية والحربية فى قصائده التى كان يمدح بها سيف الدولة ، ويصف فيها انتصاراته على الروم . كما كانت مقابلة بين عالمه الشعرى والنفسى فى مدائحه وأهاجيه لكافور الإخشيدى . ومثل هذه العناية . كما قلنا من قبل ، بالبحث عن قيمة تاريخية للشعر ، من شأنها أن تقيم سدا صفيقا بين الناقد وبين ملاحظة القيمة الفنية للشعر ، وتفرض عليه التسوية بين عالمين مختلفين بل متناقضين هما : عالم الشعر وعالم الواقع ، أو كما قلنا البحث عن الصدق الواقعى فى شعر الشعراء .

(٢) فإذا ماتركنا هذا إلى العنصر الثانى فى نقد « طه حسين » وهو البحث عن قيمة فنية للشعر ، ألفيناه لا يرى هذه القيمة فى البناء اللغوى والفنى للشعر ذاته ، ولكنه يراها فيما يحدثه من اللذة والمتعة لدى متلقيه حين يقرؤونه أو يستمعون إلى إنشاده . وفى عبارة أخرى ، أن « طه حسين » فى بحثه عن قيمة الشعر الفنية لا يعوّل كثيرا على « الصناعة الفنية » للشعر ، وإنما يعوّل على هذا الإحساس بالمتعة واللذة كما قلنا ، ومن ثم فإن مايقدمه من تحليل فى شعر المتنبي فى هذا الكتاب هو مجرد وصف ، لهذا الإحساس باللذة والمتعة اللتين كان يشعر بهما عند قراءة هذا الشعر ، وقد جاءت ملاحظاته ، بسبب

ذلك على لغة « المتنبى » وأخيلته وصوره ، ملاحظات عامة لا تكشف عن أسرار صناعته الفنية ، وهى صناعة لا نشك فى أنها تميز شعر المتنبى من غيره من الشعر العربى على طول الفترة الزمنية التى سبقته ، ولعل فيما يقوله « طه حسين » فى التعليق على هذين البيتين من قصيدة للمتنبى ، مايؤكد مانذهب إليه ، وهما :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام ... تكسرت النصال على النصال

فعلى الرغم من أنه يرى « أن أصل المعنى الذى قصد إليه الشاعر شائع مألوف لاطرافة فيه ولا ابتكار ، فكل الناس يحس إذا كثرت الأحداث عليه أنه قد استفاد من ذلك تجربة وصبرا ، ومرن على احتمال الالآم والأرزاء ، وإنما الطرافة فى هذه الصورة التى عرض المتنبى فيها هذا المعنى حين جعل الأرزاء التى ألحت عليه نبالا قد ثبتت فى قلبه ودارت من حوله ، حتى أصبحت له غشاء ووقاء ، وحتى أصبح قلبه يمأمن من أن تبلغه النبال » فإنه يعود فيرفض أن تكون لطرافة هذه الصورة قيمة فنية . وهو يصدر فى هذا الحكم عن ذوق شخصى محض فيقول : « ولست أدرى لماذا لا يبلغ هذا التصوير من نفسى شيئا ، ولا أرى فيه إلا براعة شاعر ، ومهارة فنان قد واتته طبيعته ، واستجابت له ألفاظه ، فجاء بصورة ربما تروق ، ولكنها لاتبلغ القلب ولاتؤثر فى النفس ، وربما كانت هذه الألفاظ التى تذكر بالحرب وتصورها قد أشاعت فى هذين البيتين من القوة والفتوة والجلد ، ما حببهما إلى الناس حين تلح عليهم النوائب ، وتأخذهم الأرزاء من كل مكان . . »

وهذه النظرة النقدية تجعل قيمة الشعر الفنية رهينة بما يحدثه من المتعة واللذة فى نفس قارئه . ويمكننا أن نلتمس آثارها فى منحى « طه حسين » النقدى الذى يفيض فيه على الذوق قوة سحرية غامضة ، فى انصرافه إلى العناية بالمعنى الشعرى وبيان أثره فى قارئه دون الوقوف عند البناء اللغوى للشعر وما يتصل به من الصور والأساليب والموسيقى . وقد استحالت بسبب ذلك هذه الصفحات الطويلة التى عرض فيها لتحليل بعض القصائد الشعرية

للمتنبي إلى تحقيق هذين الأمرين ورصد معانيها المختلفة ، وبيان أثرها في نفسه. ولعل في هذه العناية المسرفة بالمعاني وأثرها ما يعلل هذا الغموض الذي نلتقي به في كل مرة يتحدث فيها عن لغة القصيدة : فهو يفيض على الألفاظ أوصافا غامضة من تلك التي تتردد في النقد القديم ولا نستطيع تحديد معانيها تحديدا دقيقا ، كما أنه يفيض عليها ، في بعض الأحيان ، من الصفات الإنسانية ما يخلق منها كائنات حية ترى وتحس وتتكلم وكأنه يريد أن نرى فيها مايراه في الشعر : صورة منشئها حية نابضة . فهو يقول في تحليل إحدى مدائحه لكافور :

« . . . وانظر إلى هذه الأبيات العذبة التي يملؤها الحنان ، التي تصور أحسن تصوير وأبدعه وأروعه ما يكون من تواصل بعد تقاطع ، ومن مودة بعد حفيظة وضغن ، والتي نحس معناها بين حين وحين ، ونود لو نحسه في كل حين :

منع الودُّ والرعاية والسوء ... دد أن تبلغا إلى الأحقـــاد
وحقوقٌ ترقق القلب للقلـــب ولو ضمنت قلوب الجماد
فغدا الملك باهراً من رآه ... شاكراً ما أتيتما من سـداد
فيه أيديكما على الظفر الحـــلو ، وأيدى قوم على الأكباد
هذه دولة المكارم والرأ ... فة والمجد والندى والأيـادى
كسفت ساعة كما تكسف الشمــس ونورهـا في ازدياد!

أرأيت أجمل من هذا الكلام ومن وأبرع من هذا التصوير ، وأنفذ من هذه المعاني إلى ضمائر النفوس ، ودخائل القلوب ، في ألفاظ حلوة لينة جزلة رصينة ، ومع ذلك ترضى الذوق ولا تؤذيه ، وتقهر السمع ولا تشق عليه . أرأيت شعرا أصدق في تصوير اتفاق المصريين ، حين يتفقون برغم الكائدين والحاسدين ، من هذا البيت الذي يجمع الصدق والدقة وجمال اللفظ وعذوبة المعنى ، ومضاء الرأى ونفاذ البصيرة ورضاء النفس وتحدى العدو! » .

ووصف اللغة الشعرية بالعذوبة والطلاوة والجزالة والرصانه وغيرها من الصفات التى كانت شائعه فى لغة النقد العربى القديم ، لم تعدلها قيمة تذكر فى النقد الحديث ، لغموض هذه المعانى واحتفال هذا النقد بقضايا فنية ولغوية أخرى لا تكاد تتصل من قريب أو بعيد بهذه الأوصاف العامة .

ويحرص « طه حسين » بالإضافه إلى ما لاحظناه ، على أن يخلع على القصائد التى يحللها مايسميه « بالحركة » التى تشيع فى صور القصيدة ومعانيها و « الروح » الذى ينبث فيها ، وهذه الحركة قد تكون مادية خالصة كما تكون نفسية ، وهذه الروح تكون أحيانا عذبة راضية وأحيانا قاتمة يائسة ، ولكنهما : الروح والحركة رمزان عنده دائما على هذه الحيوية الدافقة التى يحرص على ملاحظتها فى كل ما يعجب به من الشعر : « فقد وفق المتنبى أحسن التوفيق للملاءمة بين جزالة اللفظ وسهولته ، وبين دقة المعنى وبراعته ، وأحسن اختيار الوزن فعمد إلى الوافر وهو كما تعلم يسير سهل سريع لا يكاد يتأتى فيه الوقوف ، وليس أقل من المتقارب ملاءمة للسير السريع فى الفضاء الواسع السهل الذى لا تقوم فيه الجبال ولاتنبث فيه العقبات ، ولا يريد من المغير إلا أن يجد فى الطلب ويخلى الأعنة للخيل . فإذا انتهى إلى المطلوبين أخذهم بهجوم لاعسر فيه من طبيعة الأرض ولا مشقة فيه تحتاج إلى أناة أومهل ، وإنما هو الانقضاض على العدو كما تنقض الصاعقة ، والاندفاع إليه كما يندفع السيل ، ثم الظفر به كأن لم تكن حرب ولا قتال » .

(٣) وقد ظل منهج « طه حسين » فى دراسة الشعر كما وصفناه يسيطر على الدراسات الأدبية لفترة طويلة انحل خلالها على أيدى تلاميذه ومعاصريه ، إلى مكوناته من عناصر السياسة والبيئة والجنس وشخصية الشاعر ونفسيته ، ليصبح كل منها أساسا لمنهج متميز يلح على التماس ناحية بعينها فيما يدرسه من الشعر : فكان مرآة للبيئة السياسية مرة والاجتماعية أخرى ، كما كان منهجا تاريخيا حينا ونفسيا أو جنسيا حينا آخر ، على نحو مانجد فى هذه الدراسات الخصبة التى كتبها أمثـــال « العقاد » و « النويهى »

و « شوقى ضيف » و « خلف الله » وغيرهم من الباحثين . ولكن هذه المحاولات على الرغم من جدتها وخصوبتها ظلت تدور فى فلك ذلك المنهج الذى اختطه « طه حسين » والذى يرى الشعر فى ضوئه نتاج ظروف معقدة بيئية ونفسية، ويرى قيمته الفنية موكولة إلى مايحدثه فى نفس قارئه من اللذة والمتعة. ولكن هذه المناهج ، على عكس منهج « طه حسين » التكاملى، أهملت الدراسة الفنية للشعر وانشغلت بالبحث عن هذه الظواهر المختلفة فيه — غير أن الحاجة دعت، بسبب ماأخذ يجد على الحياة الأدبية والنقدية من تطور، إلى نظرة جديدة ترى فى الشعر بناء لغويا جماليا مستقلا بذاته عما حوله من ظروف الحياة . وقد أثمر هذا المنهج ، على حداثته ، فى جانبه التطبيقى ، بعض الدراسات القيمة التى تفتح أبوابا جديدة على عالم الشعر القديم ، حاول فيها دعاته التدليل على قدرة هذا الاتجاه على الكشف عن قيم الشعر « الاستاطيقية » . ومهما يكن رأينا فى قيمة هذا المنهج ونتائجه ، وهو ما يحتاج منا إلى وقفة مطولة ، فإنا نحرص على إثبات أمرين :

الأول ، أن هذا المنهج اللغوى « الاستاطيقى » الجديد كان رد فعل عنيف لاتجاه « طه حسين » النقدى ، وما تفرع عنه من مناهج أخرى على أيدى تلاميذه ومعاصريه كما قلنا — وهى مناهج تسرف فى العناية بالشاعر وظروف حياته وبيئته دون العناية بفنه ، وخاصة عند أصحاب المنهج النفسى.

والأمر الثانى ، أننا نلاحظ مفارقة حادة بين الجانبين النظرى والتطبيقى فى هذا الاتجاه اللغوى الجمالى — ففى الوقت الذى يحشد فيه أصحابه أدلة وفيرة على ضرورة إيثار اللغة الشعرية بالتحليل الجمالى ، وينجحون فى زعزعة الاعتقاد الراسخ بمنهج « طه حسين » وغيره من المناهج الأخرى ، نراهم يقصرون عن هذا التحليل اللغوى الجمالى كما هو فى أصوله الغربية ، وفى دعوتهم الملحة إليه . فقد استحالت هذه المحاولة الجمالية على أيدى بعض الدارسين إلى مجرد بحث معجمى فى دلالات المفردات اللغوية التى يتألف منها بناء القصيدة اللغوى . وعلى أساس مما ترصده هذه المعاجم من المعانى المختلفة لهذه الكلمة أو تلك ، يتحدد المعنى الذى

يقصده الشاعر ، أوقل يتحدد المعنى الذى يختاره الناقد لهذا النص أو ذاك وهذا الاختيار يكون دلالة بعينها ترشح لها ظروف معينة عامة أو خاصة ، تتصل بالشاعر أو بظروف بيئته . وإذا شئنا أن نختصر ذلك كله قلنا إن التحليل اللغوى للشعر على هذا النحو ليس سوى بحث فى دلالات اللغة من خلال معانيها المعجمية . كما استحالت هذه المحاولة الجمالية على أيدى آخرين إلى بحث فى أسطورية اللغة ، أو قل إلى البحث عما يعرف « بالصور العليا » — وأصداء الأساطير العريقة التى كانت تتردد فى حياة البشرية الأولى وبقى صداها فى اللغة . وكلا الاتجاهين يوشك أن يصبح منهجا وصفيا خالصا لا يقدم تحليلا جماليا للغة الشعر على نحو ما تدعو إليه المناهج الحديثة ، عن طريق تحليل الأساليب الشعرية تحليلا يكشف عن الإمكانات الفنية التى تتركز فى الأسلوب واللغة والموسيقى والصور الشعرية وغيرها من القيم الخاصة بالشكل الشعرى . وإن نظرة فيما للدينامن دراسات لكفيلة بإقناعنا بأن المنهج اللغوى كما يجىء فى هذين الاتجاهين اللذين وصفناهما ، وتطبيقاته العربية ليس أكثر من بحث يلهث وراء المعنى الشعرى ؛ فلا نكاد نخطىء عند قراءة هذه الدراسات هذا الجهد المضنى الذى بذله صاحبه فى سبيل البحث عن هذا المعنى أو ذاك ، أيا كان أصل هذا المعنى : الدلالة اللغوية أو الدلالة الأسطورية . ونستطيع أن نزعم فى غير تعسف أن هذا المنهج على نحو ما استحال إليه ، فى هذه الدراسات التطبيقية ، لا يختلف كثيرا عن منهج « يونج » النفسى فى دراسة النصوص الأدبية ، سواء فطن أصحابه إلى ذلك أم لم يفطنوا .

ويحق لنا ، ونحن نختم حديثنا عن حياة المتنبى وشعره كما درسهما « طه حسين » أن نسجل حقيقة لا نعتقد أن أحدا يمارى فيها ، وهى أن حياتنا الأدبية لا تزال تعيش عالة على طه حسين فى آرائه وملاحظاته . وردود الفعل لهذه الآراء وتلك الملاحظات لا تزال عاجزة عن أن تبلغ ما بلغته آراؤه من الشهرة والذيوع ؛ وسوف تظل حياتنا الأدبية كما هى حتى يقيض الله لها رائدا آخر ، أو قل « طه حسين » آخر ، له عمق ثقافته وسعة علمه وإخلاصه فى أن يكون داعية للأدب العربى كما كان هذا الرائد العظيم .

حافظ وشوقي

للدكتور طه حسين

ا عامر محمد بحيري

(١)

[أصدر الدكتور طه حسين فى شهر مارس عام ١٩٣٣ كتابا جديدا فى النقد الأدبى ، بعنوان « حافظ وشوقى » . . وإذا راعينا التاريخ الذى صدر فيه الكتاب ، والتوقيت الذى راعاه المؤلف لذلك الإصدار ، تبين لنا أنه كان يريد أن يشارك الجمع الحافل من الأدباء والمثقفين فى مصر والبلاد العربية ، فى ذلك الوقت .. الحديث عن الشاعرين الكبيرين اللذين فقدهما الشعر فى العام السابق على إصدار الكتاب ، فى تاريخين متقاربين . حافظ فى الحادى والعشرين من يوليه ، وشوقى فى الرابع عشر من أكتوبر . من ذلك العام ، عام ١٩٣٢ . .

وربما بدا لنا لأول وهلة . أن الدكتور طه حسين ، أراد أن يصدر هذا الكتاب بعد وفاة الشاعرين العظيمين مباشرة . . أسوة بما فعله يومئذ الكثيرون من الأدباء والشعراء والنقاد ، مشاركة منه فى أداء هذا الحق ، أو هذا الواجب نحو الشاعرين اللذين كانت له بهما صلة فى حياتهما أى صلة . وكان له اهتمام بشعرهما من ناحيتين . الأولى ، قراءته لهذا الشعر ، واحتفاله به ، ومتابعته لما كان ينشر منه فى الصحف والمجلات ، وما كان يصدر منه مجموعا فى ديوانيهما الأولين ، باعتبارهما لسان الشعر الناطق فى هذه الآونة التى عاشها ، وعاصر فيها الحركة الأدبية منذ مطلع القرن العشرين إلى حين وفاتهما فى أوائل العقد الرابع منه . . والثانية مشاركته الفعلية فى الاهتمام بهذا الشعر ، ونقده

فى الصحف والمجلات ، ومجاهرته برأيه الحر من كل قيد ، الامايؤمن به من حرية الأديب ، وما يرجوه للأدب نفسه من تقدم وازدهار ، وهو يعرض لهذا الشعر ، ويحلله ، وينقده .

ولكننا حين نتصفح الكتاب . نجد أن المؤلف قد أراد ذلك حقا ، ولكنه أضاف إليه شيئا آخر ، أقتضته الظروف . كما دعت إليه الرغبة فى التعجيل باظهار الكتاب ، فى ذلك الحين .

فلقد كانت الرغبة الملحة فى التعجيل باظهار الكتاب ، فى هذا التاريخ ليدرك تلك الموجة الغامرة من حفلات التأبين ، التى تمثلت يومئذ فى تلك المهرجانات الأدبية الكبيرة ، التى أقيمت بعد وفاة شوقى خاصة ، لتأبينه والاعلان عن مناقبة وحده . . نعم وحده هو ، دون الاشارة إلى زميله حافظ ، الذى لم يسبقه إلى الرحيل إلا بأقل من ثلاثة أشهر ، لم تبد فيهما بادرة مشجعة إلى تأبينه ، والاحتفال بذكراه . اللهم إلا تلك القصيدة الرائعة البارزة وسط هذا المحيط من الجحود والصمت .: وهى التى نظمها شوقى نفسه فى رثاء حافظ . .وقال له فى مطلعها قوله المأثور :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى يامنصف الموتى من الأحياء !

كان حافظ إذا ، فى رأى شوقى نفسه ، وهو منافسه الخطير فى كل مراحل حياتهما الشعرية ، هو منصف الموتى من جحود الأحياء . .فهكذا أراد طه حسين أيضا ، أن يكون منصفا لحافظ ، من جحود معاصريه . . وقد ظهر له بما لا يدع مجالا للشك ، أن فراسة شوقى كانت فى محلها ، وأن أحداً لم يتقدم لرثاء حافظ ، خوفا من السلطان الذى كان قائما يومئذ ، والذى نقم على حافظ بعد خروجه إلى المعاش فى شهر فبراير من العام نفسه ، انضمامه إلى معسكر خصومه السياسيين ، وإلقاءه القصائد فى معارضة الوزارة الصدقية ، وحكم صدقى ، الذى كان قويا باطشا فى ذلك الوقت ، بمساندة القصر والاحتلال . وفى مقدمة ذلك قصيدته الميمية ، التى فقد أكثرها ، لعدم استطاعة الصحف نشرها . . والتى يقول فى مطلعهما :

قد مر عام ياسعاد وعام ... وابن الكنانة فى حماه يضام
صبوا البلاء على العباد فنصفهم ... يجبى البلاد ، ونصفهم حكام
أشكو إلى قصر الدبارة .. ماجنى ... صدقى الوزير ، وما جنى علام ..

ولعلنا نرى من قوله أشكو إلى «قصر الدبارة».. وهى دار المعتمد البريطانى فى ذلك الحين ، أنه يعرض بالقصر . . بينما كان الانجليز أنفسهم يزعمون أنهم على الحياد . فيوجه حافظ إليهم القول :

قل للمحايد هل شهدت دماءنا ... تجرى ، وهل بعد الدماء سلام ؟
سفكت مودتنا لكم ، وبدا لنا ... أن الحياد على الخصام لثام
إن المراجل شرها لا يتقى ... حتى ينفس كربهن صمام
لم يبق فينا من يمنى نفسه ... بودادكم .. فودادكم أحلام
أمن السياسة والمروءة أننا ... نشقى بكم فى أرضنا ، ونضام ؟
إنا جمعنا للجهاد صفوفنا ... سنموت أو نحيا ونحن كرام

ويقول لهم فى قصيدة أخرى . . متحديا :

حولوا النيل ، واحجبوا الضوء عنا ... وأطمسوا النجم ، واحرمونا النسيما
واملأوا البحر إن أردتم سفينا ... واملأوا الجو إن أردتم رجوما
إننا لن نحول عن عهد مصر ... أوتروننا فى الترب عظما . رميما

فاذا أضفنا إلى هذه القصائد ، التى أعادت عهد وطنيات حافظ الرائعة فى شبابه ، والتى راح ينظمها بين خروجه إلى المعاش وحتى وفاته ، وهى مدة لاتزيد على خمسة أشهر . . أنه شارك فى تكريم طه حسين نفسه ، حين أقصته الوزارة الصدقية عن الجامعة ، فى ذلك التاريخ . .فقال فى حفل أقامه الطلاب الجامعيون لعميد الآداب يومئذ :

قد أجدبت دار الحجى والنهى ... بعدك من آرائك النافعه
وأخصبت أرجاء مصر بمن ... صير مصرا .. كلها .. جامعه

أقول ، إذا أضفنا هذا التقدير من حافظ لطه حسين نفسه بعد الجحود

الذى لقيه من مواطنيه ، تحاشيا لمواقف سياسية لا يقدرون على مواجهتها . .
وبعد تلميح شوقى ذاته إلى أن حافظا هو منصف الموتى من ظالم الأحياء . .
عرفنا ماذا دفع طه حسين إلى المشاركة فى الاحتفالات والمهرجانات الشوقية ،
بتقدير منه مزدوج . لحافظ وشوقى معا .. بإصداره ذلك الكتاب عنهما ،
فى مارس ١٩٣٣ .. فى أعقاب تلك الاحتفالات والمهرجانات . . يخالفها
فى أنه كان أكثر تحريا للحق والعدل ، ممن قصروا تكريمهم على شاعر واحد
من الشاعرين . . دون سبب ظاهر ، غير الأهواء السياسية الممقوتة ، والأغراض
الشخصية المذمومة . .

(٢)

إذا نظرنا إلى هذا الثبت من مؤلفات طه حسين ، الذى نجده مطبوعا
بظاهر كتبه ، نجد أن تراث عميد الأدب يشتمل على أقسام عدة : فى المباحث
الإسلامية ، وفى الأدب والنقد ، وفى أدب التمثيل ، وفى القصة والرواية ،
وفى التراجم والسير ، وفى الاجتماع ، وفى التربية ، وفى سلسلة إقرأ . .

وإذا نظرنا إلى تراثه فى الأدب والنقد بخاصة ، وجدنا أن كتبه فى هذا
القسم تتكون فى أغلبها من مجموعات من الفصول والمقالات التى سبق له نشرها
بالصحف والمجلات ، فى فترة معينة من فترات حياته الخصبة . . فاذا كانت
كتبه فى الأدب الجاهلى ، وذكرى أبى العلاء ، ومع المتنبى مثلا ، يشتمل
كل منها على موضوع واحد أفرده بالتأليف ، فان كتبا أخرى مثل حديث
الأربعاء ، ومن حديث الشعر والنثر ، وفصول فى الأدب ، والنقد ،
وألوان . . كل هذه الكتب يتألف كل منها من مجموعة من المقالات التى
سبق نشرها ، ثم جمعت بعد ذلك فى كتاب . .

وقد لاحظت أن ناشر هذه الكتب — وهو دار المعارف — لا يثبت بينها
كتاب « حافظ وشوقى » . . مع أنه كتاب فى الأدب والنقد . . وهو عبارة
عن مجموعة مقالات كتبت حول هذا الموضوع ، فى فترة معينة ، ثم

قام المؤلف بجمعها فى كتاب أصدره بعد وفاة الشاعرين الكبيرين ، فى مارس ١٩٣٣ . . كما سبق القول . .

كما لاحظت أن كتاب « حافظ وشوقى » . قامت بطبعه أخيراً وزارة التربية والتعليم ، إذ قررته فى العام الحالى (١٩٧٣ – ١٩٧٤) على طلاب الثانوية العامة . .بعد أن اكتفت من كتب العبقريات للعقاد ، بما قررته من قبل . . عبقرية الصديق ، وعبقرية عمر ، وعبقرية خالد . .التى قررتها على أولئك الطلاب لسنوات ماضيات . .

ولقد سألت لأول وهلة ، هل هناك علاقة ما ، بين عدم وجود هذا الكتاب فى التقويم الذى أثبته الناشر لكتبه ، وبين اختيار وزارة التربية والتعليم له ، ليكون موضوعا لطلاب يقل مستواهم عن مستوى الأدباء والمثقفين بعامة الذين كان طه حسين يكتب لهم دون شك ؟ .

ربما كان فى هذا القول شيء من الصحة ، وربما لم يكن . وحينئذ يكون اسقاط الكتاب من بين كتب التراث المنشور لدار المعارف سهوا ، كما يكون تقريره للطلاب منظوراً فيه إلى ماحواه من موضوعات تهم الطلاب أكثر من غيرهم ، وتفتح أمامهم الطريق لتعلم الأدب والمعاصر منه خاصة . .بطريقة سهلة ميسرة ! .

فلننظر إذا فى كتاب « حافظ وشوقى » . . لنرى ما هو ؟ ومم يتكون ؟ وإلى أى غاية يهدف ؟ .

وأول مايقابلنا فى هذا الشأن قول المؤلف فى المقدمة الموجزة التى وضعها للكتاب عند نشره . .إذ قال :

« وإذا فلن أتردد فى إذاعة هذه الفصول ، التى نشرت فى صحف مختلفة وفى ظروف متباينة. . نشر بعضها فى « السياسة » ، وبعضها فى « الجديد » وبعضها فى « المقتطف » ، وبعضها فى الهلال » .. ونشر أقدمها منذ عشر سنين ، وأحدثها منذ سنه . . ونشر بعضها وأنا أجاهد الشعراء وأخاصمهم ونشر بعضها الآخر بعد أن استأثر الله بشاعرينا العظيمين حافظ وشوقى فبطل

الجهاد وزالت الخصومة ، ولم يبق لهما فى نفسى إلا المودة والذكرى والميل إلى الانصاف » .

فهذه الفقرة واضحة ، وهامة فى نفس الوقت . . إنها تشير إلى عدم وجود وحدة حقيقية تجمع بين فصول الكتاب . . لأنها فصول كتبت فى ظروف مختلفة ، ونشرت فى صحف ومجلات مختلفة .. ويمكننا أن نعجل فنضيف إلى ذلك أمرا خطيراً ، وهو أن هذه المجموعة التى تحمل اسم « حافظ وشوقى » .. والتى نشرت بعد وفاتهما ، لم تكن قاصرة على هذين الشاعرين وحدهما . .بل إنها لم تكن قاصرة على حديث الشعر وحده . . لقد كانت حديثا عن الشعر والنثر معا . . كما كانت حديثا عن شعراء مصر ، وأدباء فرنسا فى نفس الوقت . . ففى المجموعة حديث عن بودلير ، وترجمة لمقطوعات من شعره ، وفيها حديث عن النثر العربى فى نصف قرن ، يتحدث فيه طه حسين عن فن الكتابة العربية فى الخمسين سنة السابقة على كتابته المقال ، وما حدث له من التطور والتحرر ، من أثر الثقافة ، ومن أثر الصحافة ، ومن أثر هذه الحياة الأدبية المتشعبة ، التى فرضت عليه ذلك التطور ، والتحرر . .

نحن إذا أمام مجموعة من المقالات الأدبية التى كتبها الدكتور طه حسين فى الفترة مابين عامى ١٩٢٢ و ١٩٣٢ . . وتناول فيها بشكل رئيسى نقد مانشر يومئذ من قصائد معينة لحافظ وشوقى . .أضاف إليها مقالات كتبها عن النثر وعن ألوان من الأدب الفرنسى . . فلما استأثرت رحمة الله بحافظ وشوقى ، أضاف إليها فصلين قيمين .. كتبهما هذه المرة ، دون شك ، ليكونا جزءا من كتاب ، وليسا فصلا أو فصلين ينشران فى الصحف والمجلات .. وأرادبهما كما يقول فى الفقرة السابقة أن ينصف الشاعرين ، الذين كان يخاصمهما فأصبح لا يجد مندوحة من أن ينصفهما ، أو يميل إلى هذا الانصاف ، على حد تعبيره . .وربما كان هذان الفصلان هما خلاصة هذا الكتاب ، وخير مافيه . . أحدهما يتحدث عن المراثى عند حافظ إبراهيم ، وهو اختيار يدل بالفعل على رغبة فى الانصاف ، لأنه اختيار لهذا الجانب الذى امتاز فيه حافظ امتيازا واضحا . . والثانى موازنة جميلة وعميقة بين حافظ وشوقى ، من

حيث شخصية كل منهما ، وشاعريته وثقافته وما بلغ كل منهما من أداء رسالته التى حقق بها مجدا شخصياله ، ولمصر فى وقت معا . .

على أن هذين الفصلين على جودتهما ، لن يمنعا من أن نبدأ الكتاب من أوله . . وأن نعرض لما فى فصوله الأولى من أراء قيمة أملتها « الرغبة فى جهاد الشعراء ومخاصمتهم ، على حد تعبير طه حسين ، أو نقدهم وتوجيههم إلى الطريق السوى ، بتعبير آخر .

(٣)

ويشتمل كتاب حافظ وشوقى لطه حسين ، بخلاف المقدمة ، على أربعة عشر فصلا . . تحيط بالموضوعات التى سبقت الأشارة إليها . . تجرى عناوينها على الترتيب التالى : .

الأدب الجديد — مقدمات — المثل الأعلى — فى الذوق الأدبى — شعراؤهم — بودلير (الحرية والفن) — النثر العربى فى نصف قرن — البؤساء — الشعر : الشوقية الجديدة — النظم : قصيدة حافظ الأخيرة — شعراؤنا ومترجم ارسطاليس — شعر ونثر — الرثاء فى شعر حافظ وشوقى .

يتبين لنا من هذا العرض أن هناك موضوعات متداخلة ، ولذلك يمكن جمعها معا ، فتحصل لنا من ذلك أربعة مجموعات رئيسية هى :
الأدب الخالص : ويجتمع تحت هذا العنوان فصول : الأدب الجديد ، والمثل الأعلى ، وفى الذوق الأدبى .

الأدب الفرنسى . ويجتمع تحت هذا العنوان فصول : شعراؤهم ، وبودلير والبؤساء .

النثر . ويجتمع تحت هذا العنوان فصول : النثر فى نصف قرن وشعر ونثر ، ومقدمات .

الشعر . وفيه عدة فصول . أحدها عن شوقى ، وفيه نقد لبعض شعره الذى كان يظهر يومئذ ، وبخاصه قصيدته البائية فى انتصار الترك بقيادة

مصطفى كمال ، وقصيدته النونية فى توت عنخ آمون . وثانيهما عن حافظ وفيه نقد لقصيدته التى وجهها للملك فؤاد بقصر الزعفران وذكر فيها الدستور. ثم فصل ثالث فى الموازنة بين الشاعرين وشاعر ثالث لم يتحدث عنه طه حسين كثيرا وهو نسيم . وذلك حين وازن قصائد هؤلاء الشعراء التى وجهوها إلى الاستاذ أحمد لطفى السيد عند ترجمته كتاب الاخلاق لارسطاليس . يليه فصل رابع عن شعر الرثاء عن حافظ ، وقد كتبه المؤلف بعد وفاته فكان فيه أقرب إلى الانصاف منه إلى المخاصمة والجهاد .

ثم يأتى أخيرا هذا الفصل الجميل ، الممتع ، الذى كتبه طه حسين بعنوان « حافظ وشوقى » . فوازن بين الشاعرين ، وعرض لشخصيتيهما عرضا وافيا ، وأطال فى الحديث عنهما ، غير مقيد بذلك القدر المحدود الذى كانت تعرضه المقالة الصحفية : لأنه إنما كان يكتب هذا الفصل الأخير ، الذى استعار منه العنوان ، لينشىء من حوله كتابا مجتمعا . .

(٤)

يقصد طه حسين بالأدب الجديد ، هذه الحركة الأدبية التى ظهرت فى مصر فى أوائل القرن الحالى ، وبلغ فيها نثر الكتاب مبلغاً عظيماً فى الرقى والتقدم . بينما بقى الشعر متخلفا ، يتأثر بالقديم ولايضيف إليه حديثاً ، كما فعل النثر . ونرى أن الفوضى قد ضربت أطنابها فى ميدان الأدب ، وأصبح الأمر بحاجة إلى تنظيم ، كما أن الأدباء والشعراء أصبحوا بحاجة إلى من يدلهم على المثل الأدبى الأعلى ، حتى يحتذوه . .وأنه لابد لذلك أن ينشأ فى مصر رأى عام فى الأدب يدعو إلى الحرية الأدبية ، كما نشأ فيها رأى عام فى السياسة يدعو إلى الحرية السياسية . . ويتمنى أن يكون هو ذلك الكاتب الذى يشهر قلمه الحر ، ليتناول شعر النابهين من الشعراء فى مصر بالدراسة الحرة المفصلة التى لايقصد بها إلا وجه الأدب ، ولا يرمى من ورائها إلا إلى تكوين ذلك الرأى الأدبى العام من بعض الوجوه . .

سيهجم الكاتب الناقد إذاً على النابهين من الشعراء ، لينقد شعرهم : .

ولقد احتشد لذلك ، فجاء بدواوين الشعراء الثلاثة المتقدمين على غيرهم فى ذلك الوقت شوقى وحافظ ومطران .. ولكنه ما كاد يمضى قدما فى قراءة هذه الدواوين حتى حيل بينه وبين المضى فى قراءة ما احتوته من الشعر ، لأنه صادف فى أول هذه الدواوين « مقدمات » . . كل منها تفصح عن مذهب صاحب الديوان فى الشعر أو رأى كاتب المقدمة فى شعر صاحبه . .

أما مقدمة « الشوقيات » .. وأعنى الجزء الأول ، الذى صدر عام ١٩٢٦ .. فقد كتب مقدمته الدكتور محمد حسين هيكل .. وهيكل هو صديق طه حسين ، بل هو المشرف على تحرير جريدتى السياسة ، والسياسة الأسبوعية ، اللتين كان يكتب فيهما طه حسين مقالاته تلك .. ورغم مايعرف طه حسين فى صاحبه هيكل من قدرة على الدرس والتحليل ، إلا أنه لم يظفر منه بشئ صريح يوضح له العقيدة الشعرية عند شوقى .. فهل عجز هيكل عن فهم شوقى ، أم أنه ليس لشوقى عقيدة شعرية أصلا ؟

يقول طه حسين :

« الواقع إنى لاأعرف لأمير الشعراء عقيدة صريحة فى الشعر ، وما أرى أنه قد حاول أن يكون لنفسه هذه العقيدة . وما أرى أنه فكر فى الشعر إلا حين يقوله . . إنما هو — كما يقول هيكل فى شىء من الدهاء — مجدد حينا ، ومقلد حينا آخر . . وهو فى تجديده وتقليده لا يصدر عن عقيدة فنية واضحة ، وإنما يتأثر بالساعة التى يتهيأ فيها لقول الشعر ، وبالظرف الذى يقرض فيه الشعر ، ليس غير » . .

وثمة شىء آخر هام ، يلمحه هيكل فى شعر شوقى ، ويزيده طه حسين وضوحا وجلاء . . فشخصية الشاعر ثنائية . . بمعنى أنه مؤمن ، ومحب للحياة ولذاتها فى نفس الوقت . . أو هو زاهد ومستمتع معا . . ويرى طه حسين أن هيكلا حاول أن يعلل هذه الثنائية فلم يستطع . . وإنه لو نظر إلى الصناعة الشعرية التى تظهر للشعراء شخصيات مختلفة ومتميزة بعضها عن بعض . . لأمكنه أن يعلل تلك الثنائية . فشعراؤنا يعيشون العصر الحديث بكافة مظاهره ولكنهم حين ينظمون شعرهم يتأثرون القدماء ، ويحاكونهم ، وبذلك تظهر

للواحد منهم شخصيتان . . إحداهما مطبوعة ، والأخرى مصنوعة . . ويمضى طه حسين فى تحليله حتى يصل إلى نتيجة خطيرة حين يقول :

« وازدواج الشخصية الذى يلمحه هيكل فى شعر أمير الشعراء لايدل فى حقيقة الأمر إلا على أن أمير الشعراء يقلد المؤمنين ، والمستمتعين . . كمايقلد غيرهم من أصحاب الشعر » . .

أما مقدمة « ديوان حافظ » . . فيقول عنها طه حسين إنها « مريحة » . . وذلك . . « لأنها لاتشير إلى حافظ ولا إلى شعره بكثير أو قليل . . وإنما هى كلام فى الشعر ، من حيث يفهمه صاحب المقدمة ، وهو يفهمه على الطريقة العتيقة الصرفة . . وحسبك أنه يرى الشعر » ظرف الحكمة ، ومسرح الخيال ومغنى الفصاحة ، وخدر البلاغة ، ووعاء الحقيقة » . . ثم يقول طه حسين لقارئه « فان كنت قد فهمت من هذا الكلام شيئا فأنت موفق سعيد ! أما أنا فلا أرى فيه إلا ثرثرة وتكراراً ، والمقدمة كلها على هذا النحو ، كلام مرصوف ، ولفظ مصفوف ، لا مزية له إلا أنه منتقى مختار . . »

على أن هذه الفقرة التى استشهد بها ، قليل من كثير . . فقد اطلعت على ديوان حافظ ، فى طبعته القديمة ، الصادرة عام ١٩٢٢ ، فى ثلاثة اجزاء فوجدت الجزء الأول منها يشتمل على ثلاث مقدمات .. أولاها مقدمة موجزة ولكنها اخطرها جميعاً ، فكاتبها هو خليل مطران نفسه .. واذا كان مطران قد كتبها على طريقة رسم الشخصيات التى برع فيها ، وقدم منها نماذج كثيرة ، فى مجلة سركيس وغيرها . . إلا أنها كانت جديرة أن يقف عندها الناقد ، فهى خيرما يوضح مذهب حافظ الشعرى أوعقيدته الشعرية ، كما كان يسميها طه حسين ، ويحرص على البحث عنها فى شعر أولئك الشعراء الكبار . .

وأوثر هنا أن أنقل هذه المقدمة لخليل مطران فى حافظ ابراهيم . . قال :

« يقول الشعر فى كل مكان يتفق له فيه أن يخلو بنفسه.. ومن عادته دخول حديقة الأزبكية بعد الظهر طلبا لتلك الخلوة ، ولا يختلط عليه الفكر خلال الضجيج المحيط به .

يشعب فى قرض قريضه تعب النحات الماهر فى استخراج مثال جميل من حجره . يؤثر الجزالة على الرقة ، وله فيها آيات .

يطرق الموضوع فى الغالب من جوهره ، وربما نظم أكثر الأبيات قبل المطلع ، شأن الصانع القدير الذى يبدأ بأصعب ما بين يديه ، آمنا أن تهن عزيمته دون الإجادة بعد ذلك ، عالماً أن الكلام لابد أن يأتيه فى أى مقام طيعاً . ولو بعد حين ...

حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب، ينسج على منوالها ، «ويتخير نفائس مفرداتها ، وأعلاق حلاها .

إذا صب البيت فى قالب من العروض أعاده نغماً على سمعه ، مستشيراً بذلك ذوقه ، عن طريق أذنه ، وطالما صدقته الأذن بنصيحتها .. أما تغنيه فبدوى ، أخذه عن الشيخ الكاظمى ، وطريقته أن ينطق بالكلمات ماحنة تلحيناً ساذجاً من إطالة فى الحروف المعتلة ، ووجفة فى القرار كرة أربعة أنفاس وتقتضب .

له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى ، وفى أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى ، فاذا فاته الابتكار حينا فى التصور لم يفته الابتكار حينا فى التصوير .

أولع بالاجتماعيات فقال فيها ، وأجاد ما شاء .

كبير الآمال ، عاثر الجد .. تجد على أكثر منظومه أثراً من ألم النفس ، أو مسحة من الشكوى ، وتحمل بعض حروفه من بثه ما يلذع لذع النار الكامنة فى غير متقد .

فهو على الجملة أحد الثلاثة الذين هم نجوم الأدب العربى فى مصر لهذا العصر ، ولكل من تلك النجوم منزلته وإضاءته ، وأثره الخالد .

أما شعره فشعر البيان ... وإن من البيان لسحراً .. » اهـ .

هذه هى كلمة مطران مشتملة على وصف دقيق لشخصية حافظ ، ومذهبه الشعرى ، وطريقته فى النظم .. مع نقد حصيف لبق لكل ذلك .

تعقبها مقدمة أخرى تتحدث عن الشعر كفن قديم وجد مع الشمس ، وقد تركت غفلا من الإمضاء... وهي التي استخرج منها طه حسين تعريف الشعر بأنه « ظرف الحكمة ، ومسرح الخيال » الخ .. وهي في الواقع لا تتحدث عن حافظ بشيء .. إلا أن هناك مقدمة ثالثة سماها كاتبها « مقدمة الشارح ». وذيلها بتوقيعه..وهو الأديب المعروف في ذلك الحين محمد ابراهيم هلال.. وفي هذه المقدمة يشير الكاتب إلى أنه دفع حافظا إلى جمع ماتفرق من شعره في الصحف والمجلات، وأنه عاونه في ذلك ، كما تعب في شرح الديوان .. وبعد أن يستعرض الحركة الشعرية في مصر والشام والعراق .. يقول :

« نظرت في جميع تلك المنظومات العصرية ، وأدمنت النظر في مبانيها ، وأطلت التأمل في معانيها .. فلم أجد منها متانة في انسجام، وحسن تخيل وابتكار مع سعة اطلاع ، وكثرة رواية ... مثلما وجدت نظم ذلك الشاعر الكبير ، والكاتب المجيد ، محمد حافظ افندى ابراهيم .. فان شعره — كما يعلم الله ويشهد المطلعون عليه — نسيج وحده ، وفذ دهره ، في التفنن بضروب النظام ، والاقتدار على غريب المعاني .. وقلما خلا له شعر من نكتة أدبية ، أو نادرة تاريخية ، أو فائدة علمية » الخ ..

ويختم الشارح كلمته بقوله إنه طلب من حافظ صورة له ، مع نبذة عن تاريخ حياته يصدر بهما الديوان . . فما زاد حافظ على أن أجاب بقول البارودي .. شاعر الوقت :

أنا أبن قولي ، وحسبي في الفخار به   وان غدوت كريم العم والخال
فانظر لشعري ، تجد نفسي مصورة   فيه ، فحسن مقولي حظ تمثالي

وفي الجزء الثاني من ديوان حافظ نجد مقدمة بقلم الكاتب الكبير محمد المويلحي ، لا تخرج عن كونها حديثاً عن الفن الشعري ، والوحي الشعري ، والوساطة التي تقوم بها آلهة الشعر عند اليونان، أو شياطين الشعر عند العرب الأقدمين ..

وقد مرّ طه حسين بكل هذا على أنه لغو ، لا غناء فيه .

أما عن مقدمة ديوان خليل مطران .. فهى عند طه حسين متعبة ، وممتعة فى وقت واحد .. متعبة لهذا السجع المتكلف الذى رأينا منه مثلا فى عرضه لشخصية حافظ منذ حين .. وممتعة لأن مطرانا استطاع أن يعبر فيها عن رأيه فيما يريده من تجديد الشعر تعبيراً واضحاً .

على أن تعبير طه حسين عن مقدمة مطران .. يجمل هذه المقدمة ، أو هو يفصلها ويحللها .. ولأهمية ما قاله فى ذلك ، نورده فيما يلى :

« وأما مقدمة مطران فقصيرة ، ولكنها متعبة وممتعة فى وقت واحد . متعبة لما فيها من السجع الذى لا رشاقة فيه ، ولا ظرف ، ولا موسيقى .. وممتعة لأن صاحبها أراد أن يقول شيئا فقاله ، وهذا الشىء ليس بالتافه ولا باليسير .. وإنما هو شىء قيم له خطره وأثره البعيد .. فمطران ثائر على الشعر القديم ، ناهض مع المجددين .. وهو قد سلك طريق القدماء فلم تعجبه ، فأعرض عن الشعر ، ثم اضطر فعاد إليه ، وحاول أن يعود إليه مجددا لا مقلدا .. وهو ينبئك بأنه يعرض عليك فى ديوانه شيئاً من شعره القديم لتتبين به مقدار ما وصل إليه من التجديد . وهو متواضع لا يزعم أنه بلغ من التجديد ما يريد .. وإنما يترك ذلك للذين سيأتون من بعده . وهو شجاع لا يعتذر ، ولا يتلطف ، وإنما يعكس ثورته على القديم ، واغتباطه بالعصر الذى يعيش فيه ، وحرصه على أن يلائم بين شعره وبين هذا العصر . وهو معتدل فهو لا يرفض القديم كله ، وإنما يحتفظ بأصول اللغة وأساليبها فى حرية ، كما يتأثر القدماء فى إطلاق فطرتهم على سجيتها ، يكظم فطرته ، ولا يغشها بالأستار الخداعة الخلابة . وهو فنى له فى جمال الشعر مذهب إن لم يكن واضحاً كل الوضوح ، ولا مبتكراً كل الابتكار ، فهو على كل حال مذهب قيم ، لأنه يمثل شيئا من المثل الأعلى الفنى فى هذا العصر .. فهو يكره هذا الشعر الذى تستقل فيه الأبيات ، وتتنافر وتتدابر ، ويريد أن تكون القصيدة وحدة ملتئمة الأجزاء حسنة التأليف فيما بينها .. ثم هو فوق هذا كله مقتصد يرى أن الشعر ليس خيالا صرفاً ، ولا عقلا صرفاً ، وإنما هو مزاج منهما » ..

خليل مطران إذاً - فى رأى طه حسين - ثائر على القديم . ناهض مع المجددين ، مجدد غير مقلد ، متواضع ، شجاع ، معتدل ، فنى ، له فى جمال الشعر مذهب قيم ، وهو فوق ذلك مقتصد ..

على أن هذا الرأى الجليل ، الذى يكاد يصل بمطران إلى حد بلوغ المثل الفنى الأعلى فى الشعر ، الذى يهدف إليه طه حسين . والذى يكاد يضعه به فى مرتبة يسبق بها صاحبيه حافظ وشوقى .. لا نجد له أثراً بعد ذلك فى الكتاب كله .. فإن طه حسين .. بعد أن عرض مقدمات الدواوين الثلاثة ، للشعراء الثلاثة .. لم يحتفل إلا بنقد شاعرين فقط ، هما حافظ وشوقى .. وإنها لخسارة كبيرة أن نجد طه حسين ، بعد أن كشف عن الصلة الفنية التى تجمع بينه هو نفسه وبين مطران ، وهى الثورة على القديم ، والنهوض مع المجددين .. يعرض عن الحديث عن هذا الشاعر ، الذى كان له الأثر الكبير فى تجديد الشعر العربى فيما بعد ، وبخاصة فيما عرف بمدرسة أبولو ، وما بعدها من محاولات التأثر بالأدب الأوربى ، وفى مقدمته الأدبان الانجليزى والفرنسى .. وقد كان طه حسين ضالعا فى الأخير منهما ، يتحدث اللغة الفرنسية كأحد أبنائها .. ويروى الشعر الفرنسى ، ويترجمه إلى العربية ، فى نماذج رائعة ، نجد بعضها فى هذا الكتاب نفسه ، الذى نحن بصدد الحديث عنه الآن ..

(٥)

أما شوقى ، فقد نقده طه حسين . . فى قصيدتين هامتين .. أولاهما هى البائية التى نظمها عام ١٩٢٢ فى ثمانية وثمانين بيتاً بعنوان « انتصار الترك فى الحرب والسياسة » .. يهنىء فيها مصطفى كمال بانتصاره على اليونان ، فى ذلك الحين .. والثانية هى النونية ، التى نظمها شوقى فى أواخر عام ١٩٢٢ أيضاً ، عند كشف مقبرة توت عنخ أمون ، وما أثاره ذلك الكشف من ضجة عالمية كبرى حول مصر ، وحضارتها القديمة ، ومجدها التليد .. كما أن هناك قصيدة ثالثة لشوقى نقدها طه حسين ، ولكنه أشرك معه فيها شاعرين هما حافظ إبراهيم ، وأحمد نسيم .. عندما وجه ثلاثتهم بثلاث قصائد فى تحية

الأستاذ أحمد لطفى السيد ، بمناسبة ترجمته كتاب الأخلاق لارستطاليس.. وفى هذا المقال موازنة بين هؤلاء الشعراء ، فى موضوع واحد ، لا يخلو حديثه من طرافة .

أما القصيدة الأولى .. أو الشوقية الأولى .. فحديثها أهم الأحاديث فى كتاب طه حسين كله .. ولعلنا إذا ذكرنا كتاب « حافظ وشوقى » فى أى مجلس من مجالس الأدب ، والنقد الأدبى . لم يتبادر إلى أذهاننا إلا ماقاله طه حسين عن هذه القصيدة ، وما وجهه من النقد لشوقى حولها ..

ولعل نقد طه حسين لهذه القصيدة ، إذا ما ذكر فى مجلس من تلك المجالس ، أن يكون أول ما يثيره هو الشعور بالقسوة الشديدة على شوقى ، فى هذه القصيدة بالذات ، التى تعد بحق إحدى روائعه الخالدة ..

ولعلنا نشم بادىء ذى بدء ، أن طه حسين حين يهجم على شوقى ، وهو أمير الشعراء .. وعلى هذه القصيدة البائية بالذات ، وهى إحدى روائعه الخالدة . وطه حسين يومئذ شاب ، لا يزيد على الثالثة والثلاثين من عمره .. إنما يتابع السنة التى اصطنعها هو وغيره من الأدباء الشبان فى مهاجمة الشيوخ ، واختيار أصلب المعاقل وأمنعها ، لهجومهم وتصويب سهامهم ، إظهاراً للقدرة والشجاعة من جهة ، وطلبا للشهرة وذيوع الصيت من جهة أخرى .

على أن طه حسين فى نظرنا أكبر من ذلك فى الواقع .. ولا بد أن يكون فى نقده من الجديد ، ما يغنى ويفيد ..فلم يكن يومئذ بحاجة إلى شىء من الشهرة وذيوع الصيت ، إذ كان قد بلغ منهما مبلغا عظيماً ، ومضى يشق طريقه فى عالم الأدب قدماً ، بخطى ثابتة .. وهكذا لا يبقى إلا إظهار القدرة والشجاعة ..

كان طه حسين يتحدث إلى صديقه الدكتور هيكل عن الذوق الأدبى ، العام منه والخاص .. وكان يشير إلى أثر الثقافات المختلفة فى تكوين ذلك الذوق ، وتطرق الحديث إلى موقف سابق كان فيه نقد بائية شوقى فى انتصار الترك حديث الجماعة التى ضمت المطربش والمعمم ،والمصرى والسورى ، والمسلم وغير المسلم . وكانوا جميعاً متفقين على الإعجاب بهذه القصيدة .

فلما تفرق الجمع ، وخلا الصاحبان أحدهما إلى الآخر، راح طه يقارن بين هذه الشرقية ، وبين قصيدتين رائيتين من شعر الأخطل: يصور فيهما الحرب نصراً وهزيمة ... ويرتفع بالشعر القديم عن هذا الشعر الحديث الذى يراه لا يتفق مع ذوق المعاصرين، كما كان الأول يتفق مع ذوق الأقدمين .. وذكر هيكل قصيدة أبى تمام للمعتصم فى فتح عمورية.. فوجم له طه حسين — على حد تعبيره — ورأيا معاً أن شوقى قد اتخذ هذه القصيدة نموذجا يحتذيه .. فأبو تمام قدم له البحر، والقافية، والروى .. وقدم له القوافى، وقدم له غير قليل من الألفاظ والمعانى .. وهذا أول الحملة على شوقى .. وأكثرها ظلما.: فان بحور الشعر العربى قد حصرها الخليل فى ستة عشر بحراً .. والشاعر مقيد باختيار أحدها ، والبسيط من البحور المناسبة لهذه الموضوعات المتصلة بالحروب والمعارك .. وقد نظم فيه الأخطل قصيدته لعبد الملك ، ونظم فيه أبو تمام قصيدته للمعتصم ، ونظم فيه شوقى عدة قصائد فى مناسبات هامة سياسية ودينية .. كتصريح ٢٨ فبراير ، ونهج البردة .. فما الذى يمنعه من أن يختار البحر لقصيدته فى انتصار الأتراك على يد مصطفى كمال ؟ وقد نظم شوقى من بحر البسيط وقافية الباء المنصوبة قصيدته فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .. التى يقول فى مطلعها :

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا … وفاز بالحق من لم يأله طلبـــا

فما الذى يمنعه من أن يعود فى العام نفسه ، إلى البحر والقافية ، وهو قريب عهد بهما ، مع فارق واحد ، وهو اصطناع القافية باء مجرورة ، فى قصيدته لمصطفى كمال .. موضوع هذا الحديث .. التى يقول فى مطلعها :

الله أكبر ، كم فى الفتح من عجب … يا خالد الترك، جدد خالد العرب !؟

ويسخر طه حسين ، ويسخر معه هيكل « من تشبيه شوقى لمصطفى كمال بخالد بن الوليد ، قائد المسلمين فى حروب الإسلام الأولى .. فما الذى يمنع من هذا التشبيه ؟ وكيف يفوت قارىء هذا البيت الأول .. تلك التورية الرائعة فى استعمال لفظ « خالد » نفسه ؟ .. فقائد العرب « خالد » بعمله قبل اسمه .. وقائد الترك « خالد » بعمله كذلك ، لا باسمه .. وما الذى

يمنع من أن يشبه شوقى انتصار مصطفى كمال بيوم بدر ، ولماذا يعتبر ذلك اقتفاء لأثر أبى تمام فى قصيدته المشار إليها.. و قد كان مصطفى كمال فى حربه تلك ، إنما يحارب للمسلمين بالفعل .. وإن كانت الحرب فى ظاهرها بين الأتراك واليونانيين ؟ .. ومما يؤيد هذا الرأى أن شوقى نفسه ، عندما رأى مصطفى كمال يحيد عن جادة الإسلام والعروبة ، فيقصى الخليفة ، ويلغى الخلافة التى ثار لإصلاح شأنها . . ويتحول بالأتراك من الكتابة بالحروف العربية إلى الكتابة بالحروف اللاتينية .. لم يتوان عن مهاجمة مصطفى كمال هذا ، بقصيدة من أروع قصائده وأخلدها ، ليس فيها تأثر بالأخطل ، ولا بأبى تمام .. وإنما فيها شعر قيم ، ورأى مستقل ، وشخصيته معتدة بنفسها ..

يقول شوقى فى مطلع هذه القصيدة .. راثياً خلافة الإسلام .. والضمير للخلافة :

عادت أغانى العرس رجع نواح ونعيت .. بين معالم الأفراح
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الإصباح
شيعت فى هلع بعبرة ضاحك فى كل ناحية ، وسكرة صاح
ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ، ومصر حزينة تبكى عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس أمحا من الأرض الخلافة ماح ؟

ويتحدث عن الرجال الذين ما كادوا ينتصرون على أعدائهم فى الخارج حتى قضوا على الخلافة ، وهى مجلى عزهم وفخارهم فى الداخل ..

إن الذين أست جراحك حربهم قتلتك سلمهمو .. بغير جراح
هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم موشية بمواهب الفتاح

ويرى ما أتى به هؤلاء مخالفا للدين .. فيقول :

بكت الصلاة ، وتلك فتنة عابث بالشرع ، عربيد القضاء ، وقاح
أفتى خزعبلة ، وقال ضلالة وأتى بكفر فى البلاد بواح

ويتذكر شوقى أنه منذ حين قريب ، كان يمدح مصطفى كمال ، ويشعر

أن كثيرين سوف ينتقدوه لتغيير رأيه على هذه الصورة .. فيلتمس لنفسه العذر فى أشد المواقف وأشقها على نفسه .. فيقول :

أستغفر الأخلاق ، لست بجاحد ... من كنت أدفع دونه وألاحى
مالى أطوقه الملام .. وطـالما ... قلدته المأثور من أمـداحى ؟
أأقول من أحيى الجماعة ملحد ... أأقول من ردّ الحقوق إباحى ؟
الحق أولى من وليّك حـرمة ... وأحق منك بنصرة ، وكفاح
فامدح على الحق الرجال ، ولمهم ... أو خل عنك مواقف النصاح !

فشوقى إذاً لم يكن يمدح مصطفى كمال ، ولا يقلده المأثور من أمداحه عبثاً ! إنما كان يفعل ذلك دفاعاً عن الخلافة الإسلامية ، وعن الإسلام ، وعن بطل رآه يتقلد سيفه ويخرج إلى الميدان يحارب أعداء الإسلام ، وينتصر عليهم .. فلماذا بعد كل ذلك ، نأخذ عليه أن يشبه مصطفى كمال قائد الترك بخالد بن الوليد قائد العرب ؟ .. وأن يشبه انتصار الأتراك على اليونانيين فى موقعة سقاريا .. بانتصار المسلمين على المشركين يوم بدر ؟ .

وأظننى لو مضيت فى الدفاع عن شوقى على هذه الطريقة ، أن يمتد بى الحديث ويتشعب بما لا يمكن حصره فى نطاق الموضوع الذى نحن بصدده من عرض كتاب الدكتور طه حسين عن « حافظ وشوقى » .. وقد كان يكفينى فى هذا المجال أن أصنع ما صنع طه حسين نفسه ، بعد ذلك بنحو عشر سنوات .. حين وقف فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، يحاضر عن أبى تمام .. وهى محاضرة منشورة فى كتابه القيم « حديث الشعر والنثر ».. فاذا به يعرض لقصيدة أبى تمام البائية فى مدح المعتصم عند فتح عمورية .. وإذا به يكتفى بأن يلقى هذه القصيدة التى بلغت سبعين بيتاً إلقاء رائعاً ، جميل الجرس ، عالى الموسيقى ، أثار به حماسة السامعين ، وألهب أكفُّهم له بالتصفيق الحاد .. وهنا يقع الفارق بين الإلقاء الخطابى الموهوب ، والعرض المجرد المكتوب .. ولكننى ، وأنا أدافع عن هذه القصيدة ، أحب ألا يفوتنى ذكر مواضع جميلة رائعة منها ، لتكون على الأقل موازنة بين مدح شوقى وذمه ، لشخص واحد .. فى موقفين متعارضين ..

إن مدخل هذه القصيدة يصف موقفاً لمصطفى كمال والترك، يشبه موقف العرب من محاربة إسرائيل وانتصارهم عليها بعد السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣. حين تم الانتصار للعرب، والهزيمة الساحقة لإسرائيل، ثم كان العرب بعد ذلك أسمى خلقاً، وأظهر كرماً .. فقبلوا وقف القتال، وحقن الدماء، والنظر فى حل القضية كلها بالطرق السياسية فى مؤتمر جنيف .. فكذلك كان الموقف عام ١٩٢٢، فان الأتراك لم يقفوا الحرب حتى انتصروا على اليونانيين، ثم ذهبوا بعد ذلك للمحادثات السياسية فى مؤتمر لوزان ..

ويقول شوقى فى مدخل القصيدة مشيراً لذلك :

الله اكبر، كم فى الفتح من عجب ... يا خالد الترك، جدد خالد العرب
صلح عزيز على حرب مظفرة ... فالسيف فى غمده، والحق فى النصب
يا حسن أمنية بالسيف ما كذبت ... وطيب أمنية فى الرأى لم تخب
خطاك فى الحق كانت كلها كرما ... وأنت أكرم فى حقن الدم السرب
لم يأت سيفك فحشاء .. ولا هتكت ... قناك من حرمة الرهبان والصلب
سئلت سلما على نصر فجدت بها ... ولو سئلت بغير النصر لم تجب
مشيئة قبلتها الخيل عاتبـة ... وأذعن السيف مطوياً على غضب
أتيت ما يشبه التقوى وان خلقت ... سيوف قومك لاترتاح للقرب
ولا أزيدك بالإسلام معـرفة ... كل المروءة فى الإسلام والحسب

ثم ينتقل للحديث عن دور السياسة فى الموضوع، وأنه لا يقل شأنا عن دور الحرب .. وفى ذلك يشير إلى مهارة المفاوض التركى : عصمت إينونو .. الذى ادعى الصمم، حتى يسمع ما يقوله خصومه عن قرب، دون أن يظهر عليه أثر الغضب .. وذلك شأن السياسى الداهية المحنك .. يقول شوقى :

منحتهم هدنة من سيفك التمست ... فهب لهم هدنة من سيفك الضرب
أتاهمُ منك فى لوزان داهية ... جاءت به الحرب من حياتها الرقب

أصم ، يسمع سر الكائدين له ولا يضيق بجهر المحنق الصخب
لم تفترق شهوات القوم فى أرب إلا قضى وطراً من ذلك الأرب
تدرعت للقاء السلم أنقـــرة ومهد السيف فى لوزان للخطب
فقل لبان بقول ركن مملكة على الكتائب يبنى الملك لا الكتب

ويصف شوقى تلك الحرب .. فيقول :

ما كان ماء سقاريا .. سوى سقر طغت فأغرقت الإغريق فى اللهب
لما انبرت نارها تبغيهم حطبا كانت قيادتهم حمالة الحطب
سعت بهم نحوك الآجال يومئذ يا ضل ساع بداعى الحَيْن منجلب

وكان قادة اليونان قد حسنوا لجنودهم الحرب ، وزعموا لهم أنها نزهة سوف يرجعون منها بأوفر الغنائم .. فيقول شوقى فى ذلك :

هم حسنوا للسواد البله مملكة من لبدة الليث ، أومن غيله الأشب
وأنشأوا نزهة للجيش قاتلة ومن تنزه فى الآجام لم يؤب

ويصف الزحف الخاطف الذى قام به الأتراك ، فصدعوا الجيش اليونانى ، وأجبروه على الفرار .. وأخذ قائدهم أسيراً ،وهو يحاول الهرب، ولات حين مناص ..

زحفت زحف أتىّ ، غير ذى شفق على الوهاد ، ولا رفق على الهضب
قلمتهم بالرياح الهوج مسرجةً يحملن أسد الشرى فى البيض واليلب
هبت عليهم فذابوا عن معاقلهم والثلج فى قلل الأجبال لم يذب
لما صدعت جناحيهم وقلبهم طاروا باجنحة شتى من الرعب
جد الفرار فالقى كل معتقل قنـــاته ، وتخلى كل محتقب
ياحسن ماانسحبوا فى منطق عجب تدعى الهزيمة فيه حسن منسحب
لم يدر قائدهم لما أحطت بـــه هبطت من صعد أم جئت من صبب
أخـــذته وهو فى تدبير خطته فلم تتم ، وكانت خطـــة الهرب

ويرى شوقى أن « خيل الرسول » هى التى كانت تحارب فى صفوف الترك ، وتقطع المسافات الشاسعة ، وتثب على الحصون والمعاقل .. وهذا هو التمهيد الذى جعله يشبه هذه الحرب بغزوة بدر .. فيقول :

خيل الرسول، من الفولاذ معدنها ... وسائر الخيل من لحم ومن عصب
أفى ليال تجوب الراسيات بها ... وتقطع الأرض من قطب إلى قطب؟
سل الظلام بها: أى المعاقل لم ... تطفر ، وأى حصون الروم لم تثب؟
لما ولدتم على أعرافها ولدت ... فى ساحة الحرب ، لا فى باحة الرحب
حتى طلعت على أزمير .. فى فلك من نابة الذكر ، لم يسمك على الشهب
فى موقف وقف التاريخ يعرضه ... فلم يكذب، ولم يذمم ، ولم يُرب
يوم كبدر .. فخيل الحق راقصة ... على الصعيد ، وخيل الله فى السحب
غر ، تظللها غراء ، وارفة ... بدرية العود ، والديباج ، والعذب
نشوى من الظفر العالى ، مرنحة ... من سكرة النصر ، لا من سكرة النصب
تذكر الأرض ما لم تنس من زبد ... كالمسك فى جنبات السكب منسكب
حتى تعالى أذان الفتح .. فاتأدت ... مشى المجلى ، إذا استولى على القصب

والسكب ، اسم فرس من أفراس النبى عليه السلام .. فهل رأيت إلى هذا الوصف الرائع لهذه الخيل المسلمة ، التى شبهها بخيل المسلمين الأولين ، وهذه الفخامة التى أضفاها عليها شوقى ، واثبة بالعدو ، ومترنحة بجلال النصر ؟ فى هذا المقام إذاً ، ومن خلال هذا التشبيه الرائع ، جاء ذكر غزوة بدر ، وما كان من إقدام خيل المسلمين فيها ، وما كان من هذا المدد الإلهى الذى أمد الله به رسوله ، فلاح له جبريل فى السحب ، وهو يقود خيل الملائكة .. وقد ذكر شوقى بدراً فى موضع آخر ، وهو يتقدم إلى نهاية قصيدته الرائعة ، فذكر رضاء النبى عليه السلام ، ورضاء الرحاب المقدسة فى مكة والمدينة بهذا النصر الإسلامى الرائع ، الذى جاء فيه قائد الترك .. « ببدر من مطالعها » ..

ولكن الدكتور طه حسين ، والدكتور هيكل ، لا يعجبهما هذا الشعر الذى قاله شوقى فى مصطفى كمال ، فلبس له رداء الشاعر العربى القديم ، وتحدث فيه بموقعة بدر ، وخيل الرسول ..مع أنه يعيش فى العصر الحديث.. فهما شابان فى مفتتح العقد الرابع من عمرهما ، متأثران بالأدب الغربى ، ناهضان مع المجددين للأدب العربى ، بل هما طليعة أولئك المجددين.. ومثلهما الأعلى الذى يطمحان إليه هو ما يقرآنه من شعراء الإنجليزية أو الفرنسية ممن أعجبا بهم ، وأغرقا فى قراءتهم ودراستهم .. وشوقى عندهما آخذ من أبى تمام طريقته ، مستفيد بقوافيه ، سارق لمعانيه .. على خلاف بينهما فى الذوق والطريقة .. « وبخاصة هذا التشبيه — كما يقول طه حسين — الذى كان يلائم ذوق المسلمين وهم يجاهدون الروم بقيادة الخليفة المعتصم .. تشبيه يوم عمورية بيوم بدر .. لأن المعتصم خليفة الله ، وابن عم النبى ، وهو يجاهد للدين ، وبينه وبين بدر قرنان ليس غير ، وانتصاره بمعجزة كانتصار النبى يوم بدر ، أشرف له وأجدى عليه » .. يقول طه حسين « أخذ شوقى هذا التشبيه من أبى تمام فألصقه بمصطفى كمال. ولم يكن مصطفى كمال خليفة ، بل كان خارجاً على الخليفة ، ولم يكن يجاهد للدين بل كان يجاهد للوطن ، ولم يكن يجاهد بالسيف والرمح والخيل ، وإنما كان هذا أقرب أدوات الحرب خطراً » .. وهذا القول هو ما سبق أن رددت عليه حين قلت إن شوقى إنما مدح مصطفى كمال ، عندما كان قائدا إسلاميا ، يدافع فى نظره عن الدولة الإسلامية ، والقيم الإسلامية جميعاً ، ممثلة فى الخلافة .. فلما تبين له أن صاحبه عدو للدين ، ضالع مع أعدائه ، منشىء للدولة العلمانية فى تركيا ، تبرأ منه ، ونظم لذلك قصيدة مستقلة أنحى فيها عليه باللائمة . وهى القصيدة الحائية التى أشرت إليها من قبل .

لقد كان أجدى على الأدب فى نظرنا ، لو خفف الناقدان من غلوائهما ، وهما ينقدان هذه القصيدة الشوقية الرائعة على الأقل .. وهى التى تمثل أظهر جانب فى هذه المقالات التى احتوى الكتاب الذى ننقده عليها ..

وهناك القصيدة الثانية .. أو « الشوقية الجديدة » ، كما سماها طه حسين وقد سماها « الجديدة » لأنها كانت أحدث شعر ينشر لشوقى فى أواخر عام ١٩٢٢ .. ولا تدل التسمية على شىء أكثر من هذا .. إلا أن طه حسين وضع كلمة « الشعر » قبل هذه التسمية .. كما اختار قصيدة لحافظ ابراهيم نشرت فى حوالى ذلك التاريخ ، ألقاها حافظ أمام الملك فؤاد فى قصر الزعفران ، وذكر فيها إصدار الدستور .. وقد سماها طه حسين قصيدة حافظ « الأخيرة » .. وسبقها بكلمة أخرى هى كلمة « النظم » ..

هذا الوصف الذى أجمله الكاتب فى كلمتين ، من الخطورة بمكان .. وفيه مجمل رأى طه حسين فى الشاعرين العظيمين .. حافظ وشوقى . . فأحدهما « شاعر » وهو شوقى .. والآخر « ناظم » وهو حافظ .. وإذا كان طه يصف بالدهاء قول هيكل فى مقدمة الشوقيات ، إن شوقى مجدد حينا ، ومقلد حينا .. وهو يقصد أنه لا يعرف له « عقيدة » شعرية .. أو « مذهبا » شعريا ، على حد تعبيرنا نحن الآن .. فانه لا يقل دهاء فى نظرى ، أن يضع طه حسين هاتين الكلمتين .. « الشعر » قبل الشوقية .. ونلاحظ ما فى التعبير بالشوقية من تقدير لها ولصاحبها .. و « النظم » قبل قصيدة حافظ .. ونلاحظ أيضا ما فى التعبير المجرد بأنها قصيدة .. من محاولة الإقلال من شأنها ، دون الإقلال من شأن صاحبها ، الذى كانت بينه وبين الكاتب مودة وثيقة وصداقة متينة ..

وأول ما نلاحظه هنا أن طه حسين ظلم حافظاً .. بتسميته ناظماً ، وتسمية شعره بالنظم .. فاذا كانت قصيدته المختارة تقل حقا عن القصيدة المختارة لشوقى ، فليس ذلك ذنبه .. فقد كان موضوعا القصيدتين متباعدين كل التباعد .. كان شوقى يتحدث عن حادث تاريخى وثقافى عظيم هز العالم كله وقتئذ ، ولا يزال يشغله حتى الآن ، وهو اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون ، وما يتعلق بذلك من حديث الحضارة المصرية بصفة عامة . . وكان حافظ يتحدث فى موضوع محدد ، وهو إنشاء مدرسة ثانوية تحمل اسم الملك فؤاد ،

وكانت قصيدته ملحا مجردا ، وكان حديثه فيها متكلفا ظاهر التكلف .. حتى إن طه حسين ليلتمس العذر فى اختيار هذه القصيدة التى لا تمثل حافظاً فى رأيه .. بأنه ذكر فيها الدستور، كما ذكر شوقى الدستور فى قصيدته تلك .. وليس هذا كافيا فى نظرنا لوضع القصيدتين موضع المقابلة عند الناقد المنصف .. فاذا كان الناقد يريد أن يعرض لما قاله الشاعران الكبيران حول إصدار الدستور ، وهو فى ذاته حدث كبير من أحداث ذلك العام فى مصر ، فقد نظم فى ذلك شوقى قصائد مستقلة مثل قصيدة تصريح ٢٨ فبراير التى أشرت إليها منذ حين .. كما نظم حافظ قصائد مستقلة أيضاً . . إحداها فى تصريح ٢٨ فبراير نفسه .. وأخرى عند إعلان الاستقلال ، بعد ذلك بفترة من الوقت.. وكان من الممكن أن يجمع هذه القصائد ، لينشىء حول مادتها مقالا نقديا جديراً بالموضوع نفسه ..

إن وجه المقارنة بين القصيدتين كان ينحصر إذاً فى الحديث عن الدستور .. فماذا قال كل من الشاعرين فى ذلك ؟ .

أما شوقى فقال :

زمان الفـــرد يا فرعون ولّى	ودالت دولة المتجبرينـــا
وأصبحت الرعاة بكل أرض	على حكم الرعية نازلينا
فؤاد .. أجل بالدستور دنيا	وأشرف منك بالإسلام ديناً
وأهدى فى بناء الملك جهدا	وأجود والد فى المحسنينـــا
بنى الدار التى لا عز إلا	على جنباتها .. للماكثينا
ولا استقلال إلا فى ذراها	لمتبوع ولا للتابعينـــــــا
ترى الأحزاب.. مالم يدخلوها	على جهد الحوادث.. لاعبينـــا
وإن فقدت فأمر القوم فوضى	وإن وليته أيدى الراشدينـــا
إذا سارت به أيد شمالا	أتت أيد فسرن به يمينا
فعجل يا ابن اسماعيل .. عجل	وهات النور ، وآهد الحائرينا
هو المصباح ، فأت به وأخرج	من الكهف السواد الغافلينـــا

ملايين تجر الجهل قيدا وتسحب بالقليل المطلقينا
فداو به البصائر .. فهو عيسى وفلك براحتيه المقعدينا
ومن يردونه حقا .. فانى أراه وحده الحق المبينا

وأما حافظ فقال :

أيأذن لى المليك البر أنى أهنىء مصر بالأمر الكريم
فيا مصر آسجدى لله شكراً وتيهى ، وآقعدى طربا ، وقومى
فقد تم البناء .. وعن قريب تزف لك البشائر من نسيم
فدار البرلمان .. أعز دار تشاد لطالب المجد العميم
بها يتجمل العرش المفدى وتحيا مصر فى عيش رخيم
فشرفها بربك وآختتمها وآسعدها بدستور تميم
بآى محمد ، وبآى عيسى فعوذه .. وآيات الكليم
أبا الفاروق .. خذ بيد الأمانى وحققها على رغم الخصيم
أفقنا بعد نوم فوق نوم على نوم .. كأصحاب الرقيم
وأصبحنا بيمنك فى نهوض يكافىء نهضة النبت الجميم
فحطنا بالرعاية كل يوم تحفك بالولاء المستديم

وربما يظهر لنا الآن من هذا العرض الشامل ، للفقرتين المقصودتين بالمقارنة — وهو ما لم يعرضه الناقد كاملا شاملا — أن شوقى يتفوق على حافظ هذا التفوق الظاهر. وأنه بينما يرتفع شوقى فى بعض أبياته ارتفاعا ملحوظا ، إذا بحافظ يسف فى بعض أبياته إسفافا ملحوظاً أيضاً ..على أننى نظرت فى قصيدة حافظ فلاحظت شيئا ، ما كان ليفوت ناقداً كبيراً كطه حسين .. ولئن كان قد حضره هذا الرأى ، فانه ما كان ليستطع عرضه فى ذلك الحين .. ذلك لأن هذا النقد مرجعه إلى الممدوح نفسه ، وهو الملك فؤاد .. وليس إلى الشاعر .. فمن الذى كان يستطيع أن يقول للملك ، الذى بلغ أوج سلطانه ، وقد أصدر الدستور الذى طالما حارب الشعب من أجله .. إنه أقل

مستوى من أن يحيط بهذا الشعر العربى الذى يوجهه إليه كبار الشعراء فى عصره ، وهو ــ مهما يكن من أمره ــ ذلك الحاكم التركى ، الدخيل ، الغريب بأسرته ، ولهجته ، ولغته ، وكل شىء من مكونات شخصيته .. عن شعبه الذى يحكمه ؟ .

إن نقاد الأدب ــ وفى مقدمتهم طه حسين عميد الأدب دون شك ــ ليعلمون أن الشعر قد يختلف عند الشاعر الواحد ، باختلاف المناسبات التى يقال فيها ، وباختلاف الأذواق التى يوجه إلى أصحابها ، والثقافات والعقول التى منحتهم إياها طبيعة تكوينهم ونشأتهم .. وإن هؤلاء النقاد ــ وفى مقدمتهم طه حسين ــ ليروون على مسامع تلاميذهم هذا المثل الذى يضرب عن بشار بن برد .. الذى يقول فى الحرب وصفه الرائع :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا .. ليل تهاوى كواكبه !

ثم يتحدث إلى جارية صغيرة تقوم على شئون بيته .. فيقول لها ملاطفا :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت !

فاذا انتقد النقاد قوله الأخير ، وضعفوه من أجله .. قال لهم : مهلا ! ولتذكروا لمن أوجه القول الأول من المثقفين ، الذين يعرفون تصريف الكلام .. وإلى من أتلطف بالقول الآخر ، الذى لا أريد به إلا أن أبعث السرور فى نفس جارية صغيرة ، لا علم لها بفن القول ، ولا حاجة لها به ، بقدر ما هى بحاجة إلى ما يسعدها ، ويضحكها ، وينشطها على أداء مالديها من أعمال البيت ، وهى فرحة مزهوة !

وإنما ذكرت كل ذلك ، لأقول إننى لاحظت أن حافظ ابراهيم ، وهو متورط فى موقف المديح للملك فؤاد ، والقاء القصيدة أمامه .. إنما كان مضطرا لأن يصطنع بعض التظرف الذى يسعد الملك التركى ، ويسره .. لأنه قريب إلى اللغة السهلة التى يفهمها .. وهى هنا اللغة المصرية الدارجة ، أو ما يقرب منها ، ولذلك يستغرب البعض ــ ولا أستغرب ــ أن يجىء حافظ

فى هذه القصيدة بالذات .. بأبيات فيها من القرب إلى لهجة الخطاب اليومى .. قوله :

فيا مصر اسجدى لله شكراً وتيهى ، واُسعدى طربا ، وقومى

وقوله :

أفقنا بعد نوم ، فوق نوم على نوم .. كأصحاب الرقيم

ذلك إلى فقرات فى شطرات.. كقوله « تزف لك البشائر من نسيم » .. يريد محمد توفيق نسيم رئيس الوزراء.. وكقوله « تشاد لطالب المجد العميم ». وقوله « وتحيي مصر فى عيش رخيم » .. وقوله «وأسعدها بدستور تميم » .. وهى المواضع التى كانت محل نقد قاس من طه حسين.. ولا أحسب إلا أنها كانت محل تقدير وإعجاب من الملك فؤاد ، لأنه ببساطة قد فهمها، وابتسم لها أيضا .. ولا أحسب إلا أنه قطب عن حاجبيه .. عندما قال حافظ « يكافىء نهضة النبت الجميم » .. يريد بالجميم ، النبات الناهض المنتشر .. وهى كلمة قاموسية ، لم يفهمها الملك حينذاك ، وإن تظاهر بأنه فهمها ..

(٧)

ومرة ثالثة ، فإن طه حسين .. قد ظلم الشاعرين حافظ وشوقى ، كما أضاف إليهما شاعراً ثالثاً ، هو أحمد نسيم .. وذلك حين اختار القصائد الثلاث التى قاموا بتوجيهها إلى الأستاذ أحمد لطفى السيد عند ترجمته كتاب « الأخلاق » لأرسطاليس .. لم يظلم هؤلاء الشعراء بنقده اللاذع لقصائدهم ، فقد كانت قصائدهم خليقة بأن تنقد ، وأن تنقد بشدة .. ولكنى أزعم أنه ظلمهم باختيار هذه القصائد بالذات لتكون موضع نقده .. كأنه قد اختار الضعيف من شعرهم، وكأنه كان يرى وقتئذ أن النقد يجب أن يكون منصبا على إظهار المساوىء وحدها دون المحاسن .. فاذا كان شىء من المحاسن ، فلا بد من أن يمر به مروراً عابراً ، ثم يعود مرة أخرى إلى المساوىء يوسعها عرضا ، ونقدا ، وتشريحا ..

ونقد طه حسين فى هذه المرة أشد قسوة من سابقه .. لأنه إذا كان قد نقد

شوقى فى قصيدة مصطفى كمال ، لأنه يتأثر شاعراً قديماً هو أبو تمام . . وإذا كان قد نقد حافظاً فى قصيدته عن الدستور ، لأنه لم يوفق إلى الإجادة فى نظمها .. فانه قد وجه نقده لشوقى وحافظ ونسيم هذه المرة بما هو أشد عليهم.. وهو الجهل وعدم القراءة .. فاذا لاحظنا أن الموضوع كان موضوعاً فلسفياً ، يصعب أن يدركه المثقفون أنفسهم ، إلا من تخصص فى الفلسفة والمنطق .. فقد حق لنا أن نتساءل : من الذى يستطيع أن يفرض على الشعراء أن يقرءوا الفلسفة والمنطق ، لكى يكون محصولهم بعد ذلك أن ينظموا قصائد فى مدح أساتذة الفلسفة والمنطق ؟ إن الشاعر موهوب بطبيعته .. والمعانى تتدفق عليه أراد أو لم يرد .. ولا يحصره فى موضوع معين إلا حدود بسيطة ، لا تمنعه من الانطلاق والتعبير بحرية .. حقاً إن الثقافة شىء عظيم ، وإن الشاعر الملم بالآداب العالمية خير من الملم بآداب لغته وحدها ، والملم بآداب لغته خير ممن يقول على الطبيعة .. أو يعبر باللسان الشعبى والأفكار الدارجة المبتذلة .. ولكن من الذى يفرض على الشاعر أن يكون فيلسوفا أولا ثم يعود شاعرا بعد ذلك ؟ إنه لو أصبح الشاعر فيلسوفا ، فمن أعسر الأمور بعد ذلك أن يقول الشعر ، أو يفكر فيه !

على أننى قلت إن قصائد هؤلاء الشعراء جديرة بأن تنقد ، وأن تنقد بشدة .. لأنه مهما التمسنا لهم من عذر ، فلم نطالبهم بما يطالبهم به طه حسين من ضرورة التخصص فى الآداب ، والتبحر فى العلوم ، والتعمق فى كتب الفلسفة .. فإننا لا يمكن أن نعفيهم من ضرورة إجادة النظم ، وتقديم نماذج شعرية من خير ما أنتجته قرائحهم ، لأنهم على الأقل يخاطبون بهذا الشعر أستاذاً مثقفاً وعالماً فيلسوفاً .. ولا يوجهونه إلى مملك تركى حظه من العربية قليل ..

إن أول ما نلاحظه على هذه القصائد هو الجفاف ، وظهور الصنعة والتكلف واضحين .. وكأن هذا هو الشىء المناسب للموقف الذى رأوا أنه خليق بأن يقدم إلى ذلك الأستاذ المثقف ، والعالم الفيلسوف . .

وقد اختار الشعراء الثلاثة بحراً واحداً من الشعر ، هو مجزوء الكامل ،

وهذا مما يقرب الشقة بينهم ، ويسهل على الناقد الموازنة بين قصائدهم .. ثم هم اختلفوا فى القافية ، وهذا أيضاً مما يقدم نوعاً من التحرر ، والبعد عن الرقابة .. وهم حاولوا أن يكونوا جادين يحملون سمات العلم والعلماء .. كل هذا فعلوه .. ولكنى لا أدرى لماذا عندما نظموا قصائدهم حكموا على أنفسهم بهذه القسوة الشديدة فى اختيار الألفاظ غير المتناسقة ، كأنهم ينحتون من صخر ، على خلاف العادة حين تفيض قرائحهم طيعة مواتية .. ولا أقول كأنهم يقومون بصقل الجواهر والدرر ، شأن الصانع الماهر .. لأنى أجد الجواهر والدرر فى قصائدهم هذه قليلة ..

وأقول ، بادىء ذى بدء ، إننى وإن دافعت عن الشعراء تهمة عدم التبحر فى العلم والفلسفة .. إلا أنى أوافق الناقد ، فيما وجه لهم من أخطاء جسيمة وقعوا فيها نتيجة عدم القراءة ، وقلة الإحاطة .. فشوقى مثلا حين ذكر « الشرائع » كان يعنى أفلاطون وليس أرسطو .. وحافظ حين تحدث عن حاجتنا فى مصر إلى الأخلاق ، وإلى التشبه بالإنجليز فى أخلاقهم ، كان بعيدا كل البعد عن موضوع الكتاب ، وهو علم الأخلاق .

ولست أريد ، حين أعرض للقصائد الآن أن أعيد ما قدمه طه حسين من نقد جزئى لبعض الألفاظ أو المعانى .. فلا أتشدد فى أن أطالب شوقى بأن يبدل وادى النيل بوادى الصريم مثلا .. ولكنى أريد أن أستعرض القصيدة عند كل من الشعراء استعراضا جديداً ، لعلى أكمل به ما ذكر الناقد ، أو أضيف له مالم يشر إليه ..

أما قصيدة شوقى .. فأول ما ألاحظه .. وقوعه فيما وقع فيه حافظ ، فى قصيدته التى وجهها للملك فؤاد ، باستعمال هذه القافية الميمية ، المسبوقة بالواو أو الياء .. وإن كانت الواو لم ترد إلا فى ثلاث قواف فقط ، من اثنين وخمسين بيتاً ، هى مجموع أبيات القصيدة .. وهذه القوافى هى فى كلمات « النجوم » و « العلوم » و « الرسوم » فكأنه قد التزم ما لا يلزم ، فأضاف إلى صعوبة القافية ، صعوبة أخرى ، هى استبعاد كثير من القوافى التى كان يمكن أن تسعفه وتخفف من كربه ..

ومع ذلك فلنستمع إلى فقرات من هذه القصيدة، بقدر ما يتسع له المقام.. لكي نرى صورتها العامة كيف تتضح أمامنا ، وكيف نرى نقد طه حسين لها.
يقول شوقى فى مطلعها :

علمت بالقلم الحكـيم وهديت بالنجم الكـريم
وأتيت من محـرابه بأرسططاليس العظـيم
ملك العقول وإنها لنهاية الملك الجسيم
شيخ ابن رشد ، وابن سينا ، وابن برقين الحكـيم

وبرقين هى بلدة المترجم أحمد لطفى السيد ، من أعمال محافظة الشرقية بمصر .. ثم يمضى شوقى فيقول ، فيما أخذه عليه طه حسين :

من كان فى هدى المسيح ، وكان فى رشد الكليم
وغدا وراح موحـداً قبل البَنِيَّة والحطـيم

فهل كان أرسطو الفيلسوف حقيقة فى هدى موسى وعيسى عليهما السلام ؟ وهل كانت رسالته التى جاءت فى التاريخ قبل بناء الكعبة — كما يقول— وهو فى ذاته قول فيه نظر، لأن للكعبة فى التاريخ قدما يسبق ابرهيم واسماعيل عليهما السلام ، ويصل إلى عهد آدم أبى البشر .. أقول هل كانت رسالة أرسطو والحالة هذه ، هى دعوة إلى التوحيد ، الذى دعا إليه هؤلاء الرسل عليهم السلام ؟ ولعلى أضيف إلى ذلك قول شوقى :

وأتيت من محـــرابه بأرسططاليس العظـــيم

فهل كان لأرسطو محراب ؟ والمحراب لفظة إسلامية ، يقابلها الهيكل فى الكنيسة ، والمذبح فى المعابد الوثنية القديمة ! .

ثم ، هل كان أرسطو حقيقة يضع الشرائع للعصور ، ويفصل الأخلاق للأجيال ؟ .

هذا المدخل المزدحم بالصور ، المجتمع من مختلف الأشتات ، يوضح لنا صعوبة الموضوع ، وكيف تعب الشاعر فى الوقوف عنده ، لكى يقنع قارئه بأن قصيدته تجيء على مستوى هذا الحدث العظيم ، الذى يتعرض له ..

وهو مدخل ينطلق شوقى بعده إلى الفقرات الأخرى من قصيدته .. وهى فقرات عادية ، تعيد إلينا شوقى الذى نعرفه شاعراً مفصلا لموضوعه ومحيطا به. ففى الفقرة التالية .. يتحدث عن الترجمة ، ومجهود المترجم . فى نقل الأصل إلى اللغة العربية.. وفى الفقرة الثالثة يتحدث بفضل اليونان على العلم والأخلاق، وما كان لهم من أثر فى وضع أسس هذه الثورة الفكرية فى العصور والأجيال التالية .. ثم هو فى الفقرة الرابعة يخرج عن موضوعه ، ليتحدث فى السياسة ، وأتصد بالسياسة ، ما كان يجرى فى ذلك الحين من أحداث قيام الدستور، ثم تعطيله ، إلى غير ذلك .. إلى جانب الجهل الفاشى والحاجة الماسة إلى العلم ، مما دعاه إلى مكافأة المترجم على ترجمته بهذه القصيدة .. أما الفقرة الخامسة والأخيرة ، فأبيات فى الإخاء بين شوقى واحمد لطفى السيد ، وتقدير للأخير فى بعض مواقفه السابقة واللاحقة ، ووصفه بالحياد فى المنازعات الحزبية التى كانت على أشدها يومئذ ، والانصراف إلى ما يفيد من العلم والتعليم ..

ويهمنا من هذه الفقرات ، فقرتان .. الفقرة الخاصة بالترجمة ، ونظيرتها الخاصة بالسياسة .. لأننا سنجد لها نظيراً فى قصيدة حافظ بعد ذلك .. أما قصيدة نسيم ، فلم نعثر على نصها كاملا .. وسنوضح ذلك فى موضعه ..

يقول شوقى خاصا بمجهود المترجم فى ترجمته :

أرج الرياض نقلتــه ونسخته نسخ النســيم
ومريت من شعب الأو لب به .. إلى وادى الصريم
فتجارت اللغتان للغــايا ت فى الحسب الصميــم
لغة من الإغريق قيـ ـمة .. وأخرى من تميم
وأتيتنـــــا بمفصـــــل بالتبر ، علوىّ الرقيم

ونقد طه حسين منصب هنا على التعبير عن بلاد العرب بوادى الصريم .. وكان يجب أن يكون فى مكانها وادى النيل ، لأن لطفى السيد يعيش يومئذ فى مصر وليس فى الجزيرة العربية .. وكذلك التعبير عن اللغة العربية ..

بأنها لغة تميم .. وكان أولى أن تكون لغة قريش التى نزل بها القرآن الكريم، وهى الأبقى من اللهجات العربية المختلفة ..

ومع وجاهة هذا النقد ، إلا أننا نراه محدوداً يحصر الشاعر فى دائرة ضيقة ، ولا يتيح له الإفادة من علوم البلاغة العربية التى تتيح له الكناية ، واستعمال الجزء فى موضع الكل .. ونحو ذلك من أدوات اللغوى المتبحر ، والشاعر المتمكن .. ولعله ليس من الصعب على القارىء ، أيا كان مستواه من الثقافة أن يدرك أن الشاعر، يريد المقارنة بين بلاد اليونان وبلاد العرب .. وبين اللغة اليونانية واللغة العربية..وأن ما أضافه الشاعر هو فتح هذه الآفاق الجديدة ، لإشعال الذهن ، وإعمال القريحة ..

إن قيمة هذه الفقرة تنصب فى إدراك الشاعر لموضوعه .. فهى فى الواقع الفقرة الأساسية فى القصيدة ، لأن العمل الجديد ، الذى أبرزه لطفى السيد فى كتابه هو مجهود المترجم ، وليس تفكير الفيلسوف .

أما الفقرة الأخرى الخاصة بالسياسة .. فيقول فيها شوقى :

لما رأيت سواد قـــومى فى دجى ليـل بهيم
يسقون من أميـــــة هى غصة الوطن الكظيم
وسراتهم فى مُقعــد من مطلب الدنيا مقيم
يسعون للجـاه العظـيم ، وليس للحـق الهضـيم
وبصرت بالدستـور يزهق وهو فى عمر الفطيم
لم ينج من كيد العـدوُّ له .. ومن عبث الحمـيم
أيقنت أن الجهـل علـــة .. كل مجتمع .. سقيم

فشوقى فى هذه الفقرة يتكلم من موقف المعلم ، ويصف الدواء لما كان يشعر به فى قومه من أمراض اجتماعية . فالأمية فاشية، يعرفها الوطن ولا يستطيع علاجها ، فيكظم غيظه صابرا على مضض .. والأغنياء يتناحرون على حطام هذه الدنيا .. دون نظر إلى مطالب الفقراء ، المضيعة حقوقهم ، المهدرة كرامتهم .. والدستور الذى كان أمل الشعب المجاهد ، ولم يحصل عليه

إلا بالتضحيات الغالية ، لم يجد من يقدره حق قدره.. فأعداؤه وهم الانجليز المحتلون الغاصبون يكيدون له ، للقضاء عليه فى مهده .. وأنصاره ، وهم المصريون أنفسهم ، الذين أحبوه وطلبوه، لا يعرفون كيف يحافظون عليه ، فينتهى أمرهم معه إلى عبث به ، يعرضه للتعطيل والضياع ..

هاتان الفقرتان الهامتان من قصيدة شوقى.. نجد لهما نظيراً عند حافظ .. فلننظر فى قصيدته أيضا ..

نجد حافظاً ، ولأول وهلة ، يقع فى ذلك الخطأ الكبير الذى نعاه عليه طه حسين . . حين نظم قصيدته كلها دون أن يقرأ حرفاً واحداً من كتاب الأخلاق لأرسطو .. ولذلك فهو منذ مطلع القصيدة يحدثنا عن الأخلاق فى مصر ، ويقصد بها السلوك الشخصى للأفراد والجماعات ، وينعى على البلاد ما وصلت إليه من انحدار فى هذا السبيل .. فيقول فى مطلع القصيدة ..

يا كاسى الأخلاق فى   بلد من الأخلاق عار

ويذهب فى القصيدة إلى حد أن يذكر الناسين ، بأن الإنجليز لم يتقدموا علينا ، حتى احتلوا بلادنا ، إلا لأنهم شعب ذو أخلاق .. وهى فكرة كانت شائعة يومئذ .. وفى ذلك يقول عن المترجم :

وافاهم بدعائم الأخـــلاق ، والحكم السوارى
أساس السياسة والنجا   ح وحصن سيدة البحار
كلفت بها وتمسكت   قبل الفيالق، والجوارى

أما الفقرة الخاصة بالترجمة ، فقد وفاها حافظ حقها ، حين يقول موجها القول للمترجم :

بالأمس قد علمتنـــا   أدب الكتابة والحوار
واليوم قد ألطفتنـــا   بالطيبات من الثمار

ويقول :

تزن الكلام كأنه   ماس بميزان التجار
وتصون معنى ربه   صون اللالىء فى المحار

وفى هذا البيت الأخير معنى الأمانة فى النقل ..

فاذا المترجم ماثل جنب المؤلف فى إطار
وعليهما نور يفيض من المهـابة والوقار

وبعد أن ينتقل للتحدث عن السياسة والأخلاق ، بما أشرنا إليه من قبل ، ويكسو المترجم ثوبا من المدح على ترفعه وتواضعه معاً.. يعود إلى الترجمة محاولا الاعتذار عن صعوبتها، وعما يجده المترجم فى سبيل نقل الأصل إلى لغته من قيود شديدة .. فيقول :

إن ينكروا بعض الغمو ض على أديب ذى اقتدار
فلأنهم لم يذكـــروا أن المترجم فى إســار
لم يعى أحمد أن يجىء باى قيس أو نـــزار
وهو المجــلى فى أسا ليب الفصاحة والمبارى
لغــة العلوم حقائق هى عن زخارفنا عوارى
تأبى الغلو ، وتحسب الإغراق كالشــوب المعــار
والنقل إن عــدم الأما نة .. كان عنوان الخسار

وعلى أية حال ، فان قصيدة حافظ مثل قصيدة شوقى تتسم بالوقار ، واصطناع أسلوب أقرب إلى موضوعها .. وإذا وضعنا هذه الفقرة الأخيرة الخاصة بالترجمة عند حافظ ، إلى جانب نظيرتها عند شوقى نجد أنه كان مجليا مثله ، ومباريا له.. وهو ما يرتفع بقصيدته إلى مستوى قصيدة صاحبه ..

أما نسيم ، فان طه حسين لم ينقل لنا من قصيدته غير بيتين من المطلع .. وهما قوله :

شعر يُزف بلا نسيب وبلا شكاة من حبيب
ما عيب مرقصة خلت من ذكر غانية لعوب

وقد أثار هذا المطلع رغبتنا فى الاطلاع على القصيدة مجتمعة .. ولكنى بحثت عنها فلم أجدها سهلة المتناول .. إلا من الصحف التى نشرتها وقتئذ والتى

استعان بها طه حسين فى نقده ، وذلك حوالى عام ١٩٢٤ .. بينما نسيم لم ينشر له من ديوانه غير جزئين ، كما أشار إلى ذلك الزميل الشاعر الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، فى بحثه القيم عن الشاعر أحمد نسيم ، فى كتاب « خمسة من شعراء الوطنية » .. الذى أصدرته لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى العام الماضى .. وهذان الجزءان هما « ديوان نسيم » الصادر عام ١٩٠٨ ، وديوان « وطنيات أحمد نسيم » الصادر عام ١٩١٠ ، وهكذا تعذر علىّ الحصول على القصيدة مجتمعة .. وكان بودى أن أجدها ، حتى أعرض لما ذكره طه حسين من تفوقها على قصيدتى حافظ وشوقى .. لقلة ما بها من تكلف ، ولما ضمنها إياه الشاعر من الأسى والحزن على ولده الذى فقده فى ذلك الوقت ، وهو فى معرض الحديث عن ترجمة لطفى السيد لكتاب أرسططاليس فى الأخلاق . ولعلى أوفق للحصول على هذه القصيدة فيما بعد

(٨)

ويطول الحديث فى عرض هذا الكتاب الممتع لعميد الأدب .. لشدة صلته بحياة الشعر والشعراء فى مصر فى الثلث الأول من هذا القرن .. وهى الفترة التى بنى عليها كل تجديد فى الشعر بعد ذلك .. ولكنى أجدنى مضطراً إلى الاختصار لضيق المجال .. على أن هذا الاختصار لا يمنع من ذكر الفصلين ، اللذين قد أشرت إليهما من قبل ، وفى احدها يتحدث طه حسين عن الرثاء عند حافظ ..

لقد ذكر طه حسين من مراثى حافظ ، وهو فى معرض إنصافه بعد وفاته .. خمساً من تلك المراثى ..

أولاها من أوائل مراثيه فى أحد أصدقائه الأباظيين : وقد حاول فيها مجاراة أبى العلاء فى داليته المشهورة .. ومطلع قصيدة حافظ :

أيهذا الثرى .. إلام التمادى بعد هذا .. أأنت غرثان صادى !

والثانية فى رثاء الإمام الشيخ محمد عبده ومطلعها :

سلام على الإسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات

والثالثة فى رثاء أستاذه البارودى ومطلعها :

ردوا على بيانى بعد محمود إنى عييت ، وأعيى الشعر مجهودى

والرابعة فى رثاء مصطفى كامل .. وهى التى قالها حافظ فى ذكرى مرور عام على وفاته ومطلعها :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا واقضوا هنالك ماتقضى به الذمم

أما الخامسة والأخيرة ، وهى التى احتفل بها طه حسين ، واحتشد لها ، حتى لقد روى معظم أبياتها تقريبا .. فهى مرثية حافظ لقاسم أمين .. وقد كان طه حسين معنيا بهذا الأخير لدعوته المعروفة إلى تحرير المرأة يومئذ .. ومطلعها :

لله درك كنت من رجـــل لو أمهلتك غوائل الأجـــل

على أنى ربما قلت إن أروع هذه القصائد الخمس المختارة هى مرثية حافظ لأستاذه الإمام محمد عبده .. فهى لوعة صادقة تفجرت بها أحناء نفس مفجوعة مكلومة .. وهى إحساس صادق بخسارة العروبة والإسلام فى الفقيد الكبير ، الذى كانت له مواقف فى ذلك المجال لاتنساها صفحات المجاهدين الأبرار .. وهى نفحة شعرية رائعة ، وفق فيها حافظ إلى أرفع ما كان يبلغه فى مراثيه ..

وحسبى أن أذكر من هذه القصيدة أبياتاً .. تذكرنا بها .. وأبدأ بهذه الأبيات التى اختارها منها طه حسين لنعرف على أى أساس اختارها ، ثم أثنى بالأبيات التى تركها ، لنرى على أى أساس تركها ..

أما عدة القصيدة فاثنان وخمسون بيتاً .. وأما ما اختاره منها فتسعة عشر بيتاً .. وما تركه فهو ثلاثة وثلاثون ..

ولقد اختار طه حسين تسعة أبيات متوالية من المطلع .. وما كان له أن يفعل غير ذلك .. ففى مطلع هذه القصيدة أبيات تعد من أروع ما نظم شعراء العربية فى الرثاء . . وحسبى أن أنبه منها إلى هذا البيت الأول المحفوظ لنا جميعا .. والذى كان مجىء حافظ به إلهاما لا يعدله إلهام .. وهو قوله المركز ، البليغ ، المعجز ..

سلام على الإسلام بعد محمد   سلام على أيامه النضرات

ويمضى بعده فيقول :

على الدين والدنيا ، على العلم والحجى   على البر والتقوى ، على الحسنات

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله   فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

فوالهفى والقبر بينى وبينه   على نظرة من تلكم النظرات

وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً   كأنى حيال القبر فى عرفات

إلى آخر هذه الأبيات ..

ومع ذلك فقد ذكر طه حسين هذه الأبيات .. ثم قال أنه يجد فيها .. « من الروعة والرصانة ما عرفناه فى شعر حافظ ، كله أو أكثره .. ومعانى هذه الأبيات مألوفة شائعة .. ليس فيها غرابة ولاابتكار .. ولكن فى الأبيات مع ذلك شيئا لا أدرى ماهو ؟ يملأ النفس لوعة والقلوب أسى.. بل أنا أدرى ما هو.. هو قبس من هذه النار التى كانت تضطرم فى نفس حافظ حزنا صادقاً على صديقه ووليه وأستاذه ، نفذ هذا القبس الصادق فى هذا الشعر العادى ، فجعله حزناً كله .. » إلخ ..

ثم انتقل طه حسين من هذه الأبيات الأولى ، إلى الأبيات الأخيرة ، من القصيدة مباشرة.. وهذه الأبيات الأخيرة قسمان .. قسم يقول فيه حافظ إن كل بلاد الإسلام حزنت على الفقيد العظيم ..

فنى الهند محزون، وفى الصين جازع   وفى مصر باك دائم الحسرات

وفى الشام مفجوع، وفى الفرس نادب   وفى تونس ما شئت من زفرات

ويخلص من ذلك إلى أن هذا العالم الإسلامى نفسه هو الذى أصبح يرثى حافظا ويندبه ، كما كان يرثى الإمام ويندبه .. أما القسم الثانى فنظرة وفاء من الشاعر إلى أستاذه ووليه ، ووقفة عظة وأسى على منزله بعين شمس ، حيث استظل بظله مدة طويلة ، تركت فى نفسه أثراً لا تمحوه الأيام ..

ويخلص طه حسين من نقد القصيدة إلى قوله :

« هذه قصيدة خالدة من غير شك ، وهى لا تستمد خلودها ممن

قيلت فيه وحده ، ولا بمن قالها وحده..وإنما تستمد هذا الخلود من الرجلين معاً .. فقد كانت حياة الأستاذ الإمام شيئا رائعا ، واستطاع حافظ أن يعطى فيها صورة رائعة.. وما أكثر ما قال الشعراء فى الأستاذ الإمام بعد موته .. ولكنك تستطيع أن تقرأ هذا الشعر الجميل ، وستجد منه المتوسط ، وستجد منه الردىء ، دون أن تظفر بمثل هذه القصيدة روعة وجمالا ، وصدق لهجة واستحقاقاً للخلود » ..

وهذه الكلمة الأخيرة كلمة حق .. فهذه القصيدة كما قلت آنفا ، تعد من أروع ما كتب الشعراء فى الرثاء عامة ، لا فى الإمام محمد عبده خاصة .. ولكنى أريد أن أقف من هذه القصيدة ، ونقد طه حسين لها ، عند بعض المواضع ، أراجعه فيها مراجعة يسيرة مع اعترافى بتقدمه فى الأدب والنقد ، وأستاذيته ، وصدق إحساسه الفنى .. وغزارة ما يفيض عليه من الوحى والإلهام ، حين يكتب أو ينقد ..

إن طه حسين يقول قبل أن يفرغ من عرض هذه القصيدة .. فقرة وقفت عندها طويلا .. وهى هذه الكلمات :

« ولست أقف عندما فى هذه القصيدة من وصف للأستاذ الإمام من نواحيه المختلفة .. لا لأنى عجل.. بل لأنى أكره أن أظلم غيرى من الأصدقاء الذين يكتبون عن حافظ » ..

أطلت الوقوف عند هذه الفقرة ، أسائل نفسى . . هل هذا القول يحوى من الصدق ما نجده عند طه حسين حين تشتد به الجرأة على النقد، لا يبالى فيه صاحباً ، ولا يترك فيه لغيره مجالا ؟ .

ثم إن طه‌حسين إذا لم يكن فى عجلة من أمره ، وهو يملى هذا النقد .. الذى ما أرى إلا أنه قد أملاه على عجل .. فكيف فاته فى أحد الأبيات خطأ علمى على جانب كبير من الخطورة.. حين يقول حافظ فى هذه القصيدة ..

وقفت عليه حاسر الرأس خاشعا كأنى حيال القبر فى عرفات

إن هذا البيت يوهم أنه صحيح لا غبار عليه .. إذا كان المراد بالقبر هو قبر الإمام الذى ذكره فى البيت السابق .. ولكنى لا أدرى لماذا أشم من هذا

البيت رائحة الخطأ العلمى .. وأحسب أن الشعراء الذين لم يذهبوا للحجاز كانوا يجهلون المشاهد المقدسة وأما كنها فيه ، ومن ثم فحافظ يريد بالقبر قبر الرسول عليه السلام .. ويؤكد ذلك قوله أنه وقف عليه « حاسر الرأس » ومن المؤكد أنه لم يقف على قبر الإمام فى مصر حاسراً ، بل كان يلبس الطربوش .. وهنا يبدو الخطأ الذى يجمع فيه الشاعر بين مظاهر الإحرام ، من الخشوع ، إلى عدم وضع شىء على رأسه .. وبين الوقوف حيال القبر .. وهو قبر الرسول عليه السلام .. وهذا القبر الشريف بالمدينة المنورة ، وليس بعرفات .. ولا يخفى على دقيق الملاحظة أن أسلوب حافظ الشعرى .. وارادته الواضحة المقابلة بين وقفة ووقفة ، وبين قبر وقبر .. أقرب إلى إثبات هذا المعنى الأخير الذى ألمحه ، من ذلك المعنى الأول الذى أشرت إليه .

ثم إنى أتساءل : هل يقوم الأديب حقا ، أى أديب ، بتقسيم موضوعه إلى أقسام يختص نفسه منها بالبعض ، ويترك البعض الآخر لغيره من « الأصدقاء » . . لئلا « يظلمهم » بالاستحواذ على النصيب الأوفى من « غنيمة » النقد دونهم ؟ .

وإذا كان الأمر كذلك .. فما هو القسم الذى تركه طه حسين من مرثيته للإمام إلى أصدقائه الذين يكتبون عن حافظ ؟ .

إنه يقول إن ذلك يتصل « بوصف الإمام من نواحيه المختلفة » .. فإذا كان هذا هو الواقع .. فلعمرى لماذا ترك طه حسين هذا الجانب . وهو من أهم جوانب القصيدة ؟ لننظر فى هذا الذى تركه ، تفصيلا ..

يقول حافظ :

وآذوك فى ذات الإله ، وأنكروا ... مكانك حتى سودوا الصفحات
رأيت الأذى فى جانب الله لذة ... ورحت ولم تهمم له بشكاة
لقد كنت فيهم كوكبا فى غياهب ... ومعرفة فى أنفس نكرات
أبنت لنا التنزيل حكماً وحكمة ... وفرقت بين النور والظلمات
ووفقت بين الدين والعلم والحجى ... فاطلعت نوراً من ثلاث جهات

إنه فى هذه الأبيات يعرض بخصوم الإمام ، من رجال الأزهر المحافظين، الذين ثاروا على ماقام به من تجديد التفكير الدينى فى الإسلام .. وما عرضه من التفسير الواضح لآى الذكر الحكيم.. وما بلغه بجهاده الصادق من التوفيق بين الدين والعلم .. فهل نجد فى ذلك غرضا بسيطاً من أغراض الشعر ، يتنازل عنه طه حسين لأصدقائه من الكتاب كرما منه وفضلا ؟ وهل هذا هو ما قصد إليه حقا ، أم أنه أراد لنفسه السلامة ، بالابتعاد عن هذا الموضوع الشائك ، الذى يذكره بخصومته القديمة مع المحافظين من رجال الأزهر ، وهو لا يحب أن يجدد هذه الذكرى التى لا يحبها ..

ويقول حافظ أيضا :

وقفت لهانوتو وريـنــان وقفة أمدك فيها الروح بالنفحــات
وخفت مقام الله فى كل موقف فخافك أهل الشك والنزغات

وهنا يعرض حافظ للمستشرقين ، وما كانوا يغمزون به الاسلام ، وما يرمونه به من التهم .. فهل كان ترك ذلك للأصدقاء تفضلا وكرما ، أم كان بعداً عن هذا الموضوع الشائك ، الذى يمس المستشرقين ، وهم أساتذة طه حسين وأصدقاؤه وزملاؤه فى التدريس لطلبة الجامعة ؟ .

ويقول حافظ :

ووليت شطر البيت وجهك خالياً تناجى إله البيت فى الخلوات
وكم ليلة عاندت فى جوفها الكرى ونبهت فيها صادق العزمات

وفى هذه الفقرة يتحدث الشاعر عن الإمام الزاهد ، والعالم المتصوف ، المستغرق فى عبادة الله والتقرب إليه .. فلماذا ترك طه حسين الإشارة لهذا الجانب من حياة الإمام ، وهو أهم جوانبه على الاطلاق ، لأنه الأساس المتين الذى تبنى عليه كل نهضة إسلامية ، لإصلاح المجتمع عن طريق إصلاح الفرد ذاته أولا ؟ .

وأين طه حسين من قول حافظ فى بيته المأثور :

رمى السرطان الليث والليث خادر ورب ضعيف نافذ الرميات ؟

وإذا كان قد ذكر فى جزعه على الفقيد بكاء الشرق ، وحزن الهند ، وجزع الصين ، وحسرة مصر ، وفجيعة الشام ، ومندبة الفرس ، وزفرة تونس .. وهذا كله كلام لا يزيد عن كونه احصاء وتعداداً ..فأين طه حسين وموقفه من هذه اللوعة المتفجرة فى الأبيات المتتابعة ، فى وصفه سقوط هذا النجم الهاوى إلى الفلوات.. أو قوله فى وصف النعش وهو يسير بين جموع المشيعين ..

مشى نعشه يختال عجبا بربه   ويخطر بين اللمس والقبلات

تكاد الدموع الجاريات تقله   وتدفعه الأنفاس مستعرات ؟

وإذا كان طه حسين قد ترك هذا الجانب السياسى عن الإمام، فى مرثية حافظ ، لئلا يتعرض لحديث الأزهر ، والمستشرقين ، والتصوف الإسلامى فى صميمه .. فانه فعل مثل ذلك فى تعرضه لرثاء حافظ فى مصطفى كامل .. فقد رثى حافظ هذا الزعيم الوطنى الخطير ، بثلاث قصائد ، قال أولاها على قبره ساعة دفنه ، ونار الحزن مستعرة فى القلوب . . وألقى الثانية فى حفل الأربعين ، وقد جمع فيها صوراً حية صادقة عن جهاد الزعيم ، ووقوفه لكرومر ، ودفاعه عن الإسلام ، ووصفه لقلب مصر كيف خفق يوم مات مصطفى كامل : خفوقه يوم حادث دنشواى .. كما قال قاسم أمين فى كلمته المشهورة . . كل هذا تركه طه حسين ، ولم يتعرض إلا لنقد قصيدته الثالثة التى قالها فى ذكرى مرور العام الأول على وفاة الفقيد ، وقد كانت سورة الحزن ، ونار اللوعة قد خفت .. وقد كنت أعتقد ، ومازلت ، ان رثاء حافظ لمصطفى كامل ، فى هذه القصائد الثلاث ، إنما هو كل لا يتجزأ .. فعلى أقل تقدير ، كان أولى بالناقد أن يشير من هذه المرثية المتكاملة إلى القصيدتين الأولى والثانية ، وهما أروعها .. ولا يقصر نقده على أقلها وهى القصيدة الثالثة ..

أما المرثية التى اهتم بها طه حسين كل الاهتمام، حتى استشهد بثلثى أبياتها . فهى قصيدة حافظ فى رثاء قاسم أمين . والقصيدة جيدة، لولا تكلف حافظ لهذا الضرب المخطوف من ضروب بحر الكامل.. وعندى أن اهتمام طه حسين

بهذه القصيدة ، يرجع إلى اهتمامه بالقضية التى ناصرها قاسم أمين ذاتها - وهى قضية تحرير المرأة والدعوة إلى ظهور المرأة الجديدة..على أن حافظاً لم يقل شيئا كثيراً خاصا بالقضية ، وطه حسين لم يزد على أن مر مروراً عابراً ، بهذا الذى قاله حافظ ..

قال طه حسين :

« وقد عرض حافظ فى هذه القصيدة لرأى قاسم فى السفور والحجاب.. فتحفظ ولم يقطع .. ولم يعلن مناصرة صاحبه .. وكان فى ذلك مصوراً (أراد أم لم يرد) لموقف كثير من المستنيرين فى ذلك العصر . كانوا يرون رأى قاسم، ولكنهم يشفقون من الجهر به ، ويرجئون الأمر إلى الأيام تقضى فيه بالحق .. فانظر إلى حافظ كيف يقول :

إن ريت رأياً فى الحجاب ،ولم ... تعصم ، فتلك مراتب الرسل
الحكم للأيام مرجعــــه ... فيما رأيت ، فنم ولا تسل
وكذا طهــاة الرأى تتركه ... للدهر ، ينضجه على مهــل
فاذا أصبت فأنت خير فتى ... وضع الدواء مواضع العلل
أولا ، فحسبك ما شرفت به ... وتركت فى دنياك من عمل »

نعم ، إن حافظاً لم يقطع برأى فى قضية تحرير المرأة،ودعوة قاسم أمين لها .. وهذا يذكرنى بقصيدة حافظ الأولى إلى قاسم أمين فى حياته ..وقصيدته الأخرى التى يدعو فيها إلى تعليم المرأة وتثقيفها .. والتى يقول فيها:

من لى بتربية النساء ، فانها ... فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الاعراق

أما القصيدة الأولى- وقد أشرت مراراً فى غير هذا البحث إلى أنها قد سقطت من ديوان حافظ الذى طبع بعد وفاته ، مع أنها من أهم قصائده لصلتها بموضوع تحرير المرأة بالذات- فهى مثبتة بالجزء الأول من ديوان حافظ المنشور فى حياته .. ص ٨٥ .. وعنوانها « إلى محرر المرأة » .. ومطلعها :

لحافظك والأيام جيش أحاربه فهذى مواضيه ، وهذى كتائبه

وفيها يقول مقدما القول إلى قاسم أمين :

أقاسم إن القوم مانت قلوبهم ولم يفقهوا فى السفر ما أنت كاتبه
إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم فمن ذا تناديه ، ومن ذا تخاطبه ؟
فلو أن شخصا قام يدعو رجالهم لوضع نقاب لاستقامت رغائبه
ولو خطرت فى مصر حواء أمنـــا يلوح محياها لنا ، ونراقبـــه
وفى يدها العذراء يسفر وجهها تصافح منا من ترى ، وتخاطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد وجيش من الأملاك ماجت كواكبه
وقالوا لنا رفع النقاب محلل لقلنا نعم حق ، ولكن نجانبه !

وقد أورد محمد ابراهيم هلال . شارح الديوان فى طبعته الأولى ، تفسيراً لهذه الأبيات ، لا يخلو من طرافة ، كما لا يخلو من رأى صادق .. فاذا كان طه حسين قد ذكر أن فريقاً من المثقفين أشفقوا من الجهر بتأييدهم لرأى قاسم أمين فى تحرير المرأة يومئذ .. مع موافقتهم له..فان حافظاً قال إن عامة الشعب كانت من الجهل والرجعية بحيث لا تفهم حقيقة هذا السفور ، حتى ولو جاء الأنبياء والرسل يدعونهم لذلك جهاراً ..

قال الشارح :

«يقول له إنك قمت تدعو نساء المصريين لرفع الحجاب ، فما تبعك أحد من المصريين ، لأنك نطقت صواباً ، وهم لا يفهمون الصواب ولا يتبعونه .. فلو قام غيرك ينادى رجالهم أن يتخذوا لهم نقابا كالنساء لجاروه على ذلك الخطأ ، ولبوا دعوته فأصبحوا كلهم متبرقعين لأنهم لا يطيعون إلا الظلم ، ولا يتبعون إلا الباطل » .

وفى هذا القول من حافظ من المبالغة مالا يخفى ، وما دفعه إليه إلا الشعور باليأس من الإصلاح الذى كان منتشراً يومئذ... ثم يقول الشارح :

« إن أهل مصر قد أفرطوا فى الإصرار على الباطل والتهافت على الضلال حتى لو جاءتهم حواء أمهم ،وفى يدها مريم العذراء مكشوفتى الوجه ، دليلا على وجوب رفع الحجاب عن النساء ، ومعهما موسى وعيسى واحمد صلى

الله عليه وسلم ، يؤيدون دعواها ، ويفهمون الناس لذلك معنى ماأنزل الله على لسانهم فى كتبهم المقدسة من تحليل كشف وجه المرأة واختلاطها بالرجال ، وعدم مغايرته للأوامر الإلهية ، ومع الجميع جم غفير من الملائكة المقربين مصدقين بلسان الحق جل شأنه لما يأمربه هؤلاء الأنبياء ، لما كان نصيبهم معنا إلا الرد والعصيان ، ولقلنا لهم صدق الله العظيم ، وبلغ كل رسول كريم ، ولكنا عن ذلك الحق نحيد ، ولانفعل إلا ما نريد .. » .

وهذه مبالغة أخرى أشد من الأولى .. ولعل الشارح قد زادها ، فوقع فى بعض الخطأ حين ذكر أن الكتب المقدسة تدعو إلى كشف وجه المرأة الخ. مع أن القرآن الكريم صريح فى الدعوة إلى الحجاب .. حين يقول :

(يايها النبى قل لأزواجك ، وبناتك ، ونساء المؤمنين ، يدنين عليهن من جلابيبهن) سورة الأحزاب ..

وهذه قضية كبرى ، متعددة الجوانب ، وها نحن نرى اليوم ، بعد انتشار السفور فريقا من فضليات السيدات ، يضعن النقاب على وجوههن ، إذ أن ذلك لايتعارض مع حرية المرأة ، ومساواتها بالرجل ، وتعليمها .. وهو جوهر القضية ..

وهنا نذكر الرأى الطريف الذى أورده الشارح بعد ذلك .. فقال :

« هذا ما يراه الشاعر فى هذا الموضوع الخطير ، الذى طال الجدال فيه بين صاحبه ومعارضيه ، على غير فائدة ولا نتيجة .. ولقد سألناه يوماً عما رآه فى هذا المشروع من أوجه الصواب وما به من ضروب النفع للأمة ، فأجابنا بأنه لم يقرأ من كتابى قاسم أمين سطراً واحداً .. ولكنه إذ رأى كل أبناء البلاد تعارض هذا الرأى وتستهجنه ، وكان يعلم أن مواطنيه لا يمارون إلا فى الحق ، ولا يرضون غير الباطل .. وثق أن ما جاء فى كتابى « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » حق لاريب فيه .. وهو برهان لا نطلب الحكم عليه إلا من قاسم بك أمين » .. اه .

وهذه ولا شك نكتة لاذعة أطلقها حافظ ، إلا أنها تشعر من طرف خفى بل تؤكد بما لا يدع مجالا للشك ، ما أخذه طه حسين على الشعراء من أنهم

لا يقرءون .. وهو فى معرض نقده لقصائد الشعراء الثلاثة ، بشأن كتاب الأخلاق لارستطاليس ..

(٩)

وإلى هنا نكون قد استعرضنا ما فى كتاب « حافظ وشوقى » .. من حديث الشعر .. وكل ما بقى بعدذلك ، فبعضه خاص بالنثر فى الخمسين سنة الأخيرة .. قبل أن يكتب طه حسين كتابه .. وتشمل الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، والربع الأول من القرن العشرين .. وفى هذا القسم من القضايا ، مالا يتسع له مجال القول فى هذا البحث ، الذى أرى أن يكون مقصورا على الشعر ، لأننى إنما أكتبه للجنة الشعر ، بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .. وستتولى الحديث عن الجوانب الأخرى من طه حسين ، لجان أخرى متخصصة ، وأساتذة آخرون أقرب منى إلى دراسة الموضوع وإجادته .

وبعضها الآخر يختص بالترجمة ، وبالترجمة عن الفرنسية بنوع خاص .. وقد استوقفنى فى هذا المجال ، أمر لا أرى بدا من الإشارة إليه .. وهو هذه النماذج التى نقلها طه حسين عن بودلير ، وفكتور هيجو وغيرهما .

وأكتفى هنا بذكر نموذجين من هذا القبيل .. أحدهما ترجمة لطه حسين عن بودلير . والآخر تصحيح من طه حسين لترجمة حافظ ابراهيم فى كتاب البؤساء لهيجو ..

يقول .. فى ترجمة مقطوعة بودلير بعنوان .. « النافورة » :

« فى عينيك الجميلتين سقم .. أيتها العاشقة المسكينة !

دعيهما كذلك زمنا ، لا تفتحيهما .. دعيهما فى هذه الهيئة الفاترة كما فاجأتهما اللذة !

هذه النافورة فى الفناء لها أزيز لا ينقطع فى الليل ولا فى النهار ، يستبقى فى هدوء هذا المهول الذى غمرنى به الحب منذ الليلة !

هذه الباقة التي تتفتح فى زهر لا يحصى ، والتى يزينها القمر المبتهج بألوانه ، تساقط كأنها مطر من دموع ثقال !

كذلك نفسك التى يحرقها برد اللذة الملتهب ، تصعد سريعة جريئة نحو السموات الواسعة المشرقة ، ثم ترتد وقد أحالها الضنى موجة من الفتور الحزين تنحدر من طريق خفية إلى أعماق قلبى !

هذه الباقة .. من دموع ثقال !

إيه أيتها التى يخلع الليل عليها هذا الجمال ، أحبب إلى بأن أسمع — ماثلا نحو صدرك — هذه الشكاة المتصلة التى تنوح فى الحوض !

أيها القمر ، أيها الماء المصطفق ، أيتها الليلة المباركة ، أيها الشجر يهتز فى خفة ، إنما اكتئابكن النقى مرآة ما أجد من حب !

هذه الباقة .. من دموع ثقال ! .. » اهـ .

وأما المقطوعة الثانية فهى عن هيجو فى كتاب البؤساء .. وهى تصحيح لترجمة حافظ ابراهيم لكتاب البؤساء .. فهى تدخل فى حديثنا عن حافظ وشوقى .. لأن حافظاً ترجم هذه القصة . . وكان من حظى أن قرأتها فى المدرسة الثانوية .. ولذلك فإنى أقف الآن موقف التقدير لرأى طه حسين فى نقده لحافظ فى ترجمته ..

يرى طه حسين مأخذين عظيمين على ترجمة حافظ ابراهيم هذه .. الأول أن ترجمته ليست كاملة ، فهو يلخص ولا يترجم .. والثانى أن ترجمته — على ضخامة ألفاظها ، وفخامة أساليبها ، وعلى ما لها من روعة وجمال — ليست دقيقة ولا حسنة الأداء . . وهنا يسوق طه حسين رأيه فى الترجمة بعامة فيقول :

« وقد يكون لحافظ فى ذلك رأيه ، ولكنى أرى أن ليس للترجمة قيمتها حقا ، إلا إذا كانت صورة صحيحة للأصل .. وليست ترجمة حافظ كذلك » ..

ثم يضرب المثل من ترجمة حافظ بالفقرة التالية :

« قدمنا بين يدى القارىء ما كان من أمر « جان فلجان » .. منذ ابتز الغلام قطعته الفضية .. وقد رأى كيف حال هذا الرجل إلى رجل آخر .. وكيف فعلت فى نفسه كلمات العابد أفاعيلها ، فاختطفته إلى المعبوث ، وأخرجته من مسلاخ الشرة والضغينة .. وأسكنته فى إهاب من الفضيلة » .

ويصحح طه حسين الترجمة .. فينقل الأصل نقلا صحيحا .. يقول فيه :

« ليس لدينا إلا شيء قليل نضيفه إلى ما عرف القارىء من أمر « جان فلجان » .. منذ كان بينه وبين « بتى جارفيه » ما كان .. فقد رأيت أنه أصبح رجلا آخر منذ ذلك الوقت .. فأنفذ ما أراد الأسقف أن يصنع به .. صنع بنفسه شيئا أكثر من التحويل .. خلقها خلقا جديداً » ..

وهكذا تتبين لنا قدرة طه حسين الفائقة فى الترجمة ذاتها ، بجانب قدرته الفائقة على النقد والتوجيه الأدبى .

(١٠)

كنت منذ بضع سنوات قليلة ، أبحث عن أبيات وجهها الشاعر حفنى ناصف إلى صديقه حافظ ابراهيم ، يذكره فيها بموقفهما مع زملائهما فى رثاء الإمام محمد عبده ، بترتيب خاص .. وإن الموت قد أدرك زملاءهما الأربعة الأولين على نفس ترتيب وقوفهم للرثاء ، ولم يبق غيرهما حفنى وحافظ .. فوجب حينئذ أن يكون الدور على حفنى ، وأن يكون الأمل فى البقاء لحافظ .. ولطرافة الأبيات أوردها هنا .. قبل الحديث عن المناسبة التى دفعتنى إلى ذكرها فى هذا المجال .

قال حفنى ناصف :

أتذكر إذ كنا على القبر ستة نعدد آثار الإمام ونندب
وقفنا بترتيب ، وقد دب بيننا ممات على وفق الرثاء مرتب
أبو خطوة ولى ، وقفاه عاصم وجاء لعبد الرازق الموت يطلب

فلبي وغابت بعـده شمس قاسم | وعما قليل نجم محيـاى يغرب
فلا تخش هلكا ما حييت وإن أمت | فما أنت إلا خائف تـترقب
فخاطر وقع تحت الرام ولا تخف | ونم تحت بيت الرتف وهو مُخَرَّب
وخض بلجج الهيجاء أعـزل آمنا | فان المنايا عنك تنأى وتهـرب

والأبيات طريفة .. وهي موجودة فى ديوان حافظ ابراهيم .. على هامش قصيدته فى ذكرى الأستاذ الإمام بالجامعة المصرية عام ١٩٢٢ ..

أما مناسبة ذكرها هنا ، فهي أنني عندما نظرت فى ديوان حافظ بعد سنوات طويلة من تركي إياه ، وقد كان فوق ذلك أول ديوان شعر قرأته فى صباى ، شاقتني قراءته .. فما زلت أقلب صفحاته حتى قرأته كاملا فى جزئيه ، مستعيداً للذكريات ماضية ، وناظراً إلى جودة هذا الشعر ومتانة بنائه .. ولا شك أن قراءة كهلة ، مع صفاء الذهن وخلوه من المؤثرات ، بعد سنوات طويلة ، تطبع فيه صورة جديدة أقرب إلى الكمال ، وأجلى فى تحديد المعانى ، وأصدق فى الحكم على الشاعرية .. وقد حكمت لحافظ حينئذ بالشاعرية الفذة ، بعد أن استعدت كل مواقفه من تاريخ مصر فى حقبة من أهم حقب هذا التاريخ الحديث .

وهاجتني الذكرى ، وشاقتني القراءة..فتناولت ديوان « الشوقيات ».. وكان قريباً مني .. ورحت أقرأ لشوقى أيضا .. لأحكم على الشاعرين معاً ، فى لحظة صفاء الذهن وخلوه من المؤثرات .. وما كدت أفعل حتى ذهلت مما بدا لى من البون الشاسع بين الشاعرين ، وظهر لى جليا تفوق شوقى ، وارتفاعه روحاً ، ونغما ، وأداء ..

هذا الرأى ألم به صديقي الشاعر الأستاذ حسن كامل الصيرفى .. فى بحثه القيم عن « شوقى وحافظ ومطران » الذى نشرته مجلة الهلال بعددها الخاص عن شوقى فى شهر نوفمبر ١٩٦٨ .. وقارن فيه بين قول حافظ فى زلزال مسينا ، وقول شوقى فى زلزال طوكيو .. وهذه فقرة من هذه المقابلة .. قال الصيرفى :

« .. فالحركة الطبيعية فى قصيدة « حريق ميت غمر » تقابلها حركة مفتعلة فى قصيدة « زلزال مسينا » .. حتى إننى قلت فى كتابى « حافظ وشوقى » الذى نشر عام ١٩٤٨ إنه يمكننا أن نسميها دون تجن قصيدة « جغرافية البراكين » ..فالافتعال والتصنع باديان فيها ، ولولا الأبيات التى صور فيها الفاجعة ، ا أحسسنا فى هذه القصيدة شيئا من القوة حيث يقول :

رب طفل قد ساخ فى باطن الأر ... ض ينادى : أمى، أبى، أدركانى !
وفتاة هيفاء تشوى على الجمر ، ... تعانى من حره ما تعانى
وأب ذاهل إلى النار يمشى ... مستميتا تمتد منه اليدان
باحثا عن بناته وبنيه ... مسرع الخطو ، مستطير الجنان
تأكل النار منه ، لا هو ناج ... من لظاها ، ولا اللظى عنه وأن
غصت الأرض ، اتخم البحر مما ... طوياه من هذه الأبدان ..

نعم ، لولا هذه الأبيات لفترت القصيدة كلها فلا تحس قوة ألفاظها التى حشدها ليخلق لفكرته جوا مناسبا ، وليثير مشاعر السامع .. فلم يستطع الإتيان بصورة ترتفع إلى مستوى قصيدة « حريق ميت غمر » .. ولم يستطع أن يبلغ حدود الروعة التى بلغها شوقى — فيما بعد — فى قصيدة « زلزال طوكيو » التى يقول فيها :

قف بطوكيو وطف على يوكاهامه ... وسل القريتين : كيف القيامه ؟
دنت الساعة التى أنذر النا ... س ، وحلت أشراطها والعلامه
قف تأمل مصارع القوم وأنظر ... هل ترى من ديار عاد دعامه
خسفت بالمساكن الأرض خسفا ... وطوى أهلها بساط الإقامه
طوفت بالمدينتين المنايا ... وأدار الردى على القوم جامه
لا ترى العين منهما أين جالت ... غير نقض ، أو رمة ، أو حطامه
حازهم من مراجل الأرض قبر ... فى مدى الظن عمقه ألف قامه
تحسب الميت فى نواحيه يعيى ... نفخة الصور أن تلم عظامه

أصبحوا في ذرى الحياة وأمسوا ذهبت ريحهم وشـالت نعامه

فشوقى هنا يعطى الصورة المتخيلة حقها من الدقة ، ولا يدفعها دفعة واحدة ، ولكنه يعرض المشاهد لمحة فلمحة ، ويصورها من مختلف الزوايا في أبيات تلى الأبيات التي ذكرناها، فنجد الحركة منبعثة في جوانب الصورة طبيعية لم يفتعلها شوقى كما افتعلهاحافظ ، ولم تأخذ طريقها بالروح الجغرافى الذى لبس حافظ إبراهيم حين أراد الاستيحاء والتصوير .

وامتد أفق الصورة في قصيدة شوقى أبعد وأوسع وأبلغ وأروع حتى من قصيدة حافظ « حريق ميت غمر » التي رسمها حافظ ، وسبق بها زميله شوقى .. في ذلك الوقت » .. اهـ .

وهذا المثل الذى ذكره الصيرفى من المقابلة ، يمكن أن نجد له نظائر كثيرة حين نقابل بين قصائد كثيرة لشوقى وحافظ في الموضوعات المختلفة ، وبخاصة تلك التي اشتركا فيها معاً .. وكان حافظ يتفوق فيها أحيانا بقوة الإلقاء ، ونبرات الصوت التي تهز السامعين .. حتى أن صديقى الشاعر المرحوم محمود غنيم ذكر لى أنه استمع إلى حافظ وهو يلقى قصيدته في رثاء المرحوم أمين الرافعى ، فصفق السامعون تصفيقاً شديدا عند بيت أعجبوا به .. فلما نشرت القصيدة في الصباح التالى . راح غنيم يبحث عن ذلك البيت الرائع الذى أثار إعجاب السامعين ،واستدر تصفيقهم ،فلم يجد له أثرا ..

وهذا الرأى الذى نصل إليه جميعا،حين نقابل بين شوقى وحافظ من الناحية الفنية ، فنحكم للأول على الثانى غالباهو الذى وصل إليه طه حسين أيضا فلمح إليه وصرح به .. لمح إليه حين سمى قصيدة شوقى في توت عنخ أمون « بالشعر » وسمى قصيدة حافظ للملك فؤاد « بالنظم » .. وصرح به فيما قاله في الفصل الأخير من كتابه القيم .. الذى عشنا معه هذه الصفحات .. وها نحن ننقل هنا الفقرة الأخيرة من ذلك الفصل .. ليكون في ختام طه حسين لكتابه ، ختام لحديثنا نحن أيضا ..

قال طه حسين :

« ثم يقبل صيف هذا العام فيخترم حافظا ، وهو يتأهب للحرب كما تأهب أخيل بعد أن انحاز تحت الخيمة دهرا .. ويقبل خريف هذا العام ، فيطفئ جذوة شوقي في هدوء ودعة .. يلائمان ما كان يمتاز به شوقي في حياته من هدوء ودعة .. وكلا الشاعرين قد رفع لمصر مجداً بعيداً في السماء .. وكلا الشاعرين قد غذى قلب الشرق العربي نصف قرن ، أو ما يقرب من نصف قرن بأحسن الغذاء .. وكلا الشاعرين قد أحيي الشعر العربي ، ورد إليه نشاطه ونضرته ورواءه.. وكلا الشاعرين قد مهد أحسن تمهيد للنهضة الشعرية المقبلة ، التي لا بد من أن تقبل .. هما أشعر أهل الشرق العربي منذ مات المتنبي وأبو العلاء من غير شك .. هما ختام هذه الحياة الأدبية الطويلة الباهرة التي بدأت في نجد وانتهت في القاهرة ، وعاشت خمسة عشر قرنا أو أكثر ، والتي ستستحيل وتتطور وتستقبل لونا جديدا من ألوان الفن ، وضربا جديدا من ضروب المثل العليا في الشعر .. هما أشعر العرب في عصرهما . ولكن أيهما أشعر من صاحبه ؟ .

أفترى أن ليس من هذا الحكم بد ؟ أفترى أن تفضيل أحد الرجلين على صاحبه يغني ويفيد ؟ نعم ليس من هذا الحكم بد ، لأنه تقرير الحق الواقع ، وفي هذا الحكم نفع عظيم ، لأنه وضع للأشياء في نصابها ، ولأنه يبين للمبتدئين في الشعر من الشبان أين يكون المثل الأعلى ..

أما أنا فلا أستطيع أن أقول إن أحد الشاعرين خير من صاحبه على الإطلاق . ولكن شوقي لم يبلغ ما بلغ حافظ في الرثاء ، ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله ، ولم يتقن ما أتقن حافظ من إحساس الألم وتصوير هذا الإحساس وشكوى الزمان .. لم يبلغ شوقي من هذا ما بلغ حافظ .. وهو بعد هذا أخصب من حافظ طبيعة ، وأغنى منه مادة ، وأنفذ منه بصيرة ، وأسبق منه إلى المعاني ، وأبرع منه في تقليد الشعراء المتقدمين ، لأن حافظاً كان يقلد في الألفاظ والصور ؛ وكان شوقي يقلد فيها وفي المعاني أيضا .. ولشوقي فنون لم يحسنها حافظ ، وما كان يستطيع

أن يحسنها . شوقى شاعر الغناء غير مدافع ، وشوقى شاعر الوصف غير مدافع ، وشوقى منشىء الشعر التمثيلى فى اللغة العربية .. يلتقى الرجلان فى كثير ، ويفترق الرجلان فى كثير .. ولكنهما على كل حال ، أعظم المحدثين حظا فى إقامة مجدنا الحديث » .. اهـ .

رحم الله طه حسين .. ورحم الله شوقى وحافظ .. وعوضنا فيمن فقدنا من روادنا العظام خيراً كثيراً ..

الدكتور طه حسين

والفكر العربى الحديث

نثرًا وشعرًا

د. مختار الوكيل

لا مراء فى أن الدكتور طه حسين من الشخصيات المتعبة للدارسين والناقدين ، ذلك لأنه مارس الكتابة فى مواضيع أدبية مختلفة : ولقد بدأ حياته شاعرا ، ثم ناقدا ، وباحثا فى التاريخ الأدبى ، وكاتبا من كتاب التراجم والسير ، ثم كاتبا قصصيا ، ومترجما أو ملخصا للقصص والمسرحيات الإغريقية والفرنسية ، وكاتبا تربويا ، ثم كاتبا ذاتيا ، ينقل إلى القراء قصة حياته الخاصة ...

ولقد كان الدكتور طه حسين مبرزا فى شتى هذه المجالات التى خاضها كاتبا . وكان فى كل ما كتب باعثا على الإثارة ، دافعا قراءه إلى الاهتمام بما يكتب والاحتشاد لما يقول .

هكذا كان الدكتور طه حسين منذ بدأ حياته الأدبية مثيرا للقراء ومثيرا للكتاب ومثيرا للمحيط الذى يضطرب فيه ...

ولكثرة ما كتب الدكتور طه حسين طوال حياته الأدبية الخصبة التى امتدت أكثر من ستين عاما ، ولتنوع الموضوعات التى طرقها ، يجد الناقد الأدبى نفسه مضطرا إلى متابعة ذلك الأديب الكبير فى مختلف أطواره الأدبية ، ودراسته دراسة عميقة حتى يتسنى له الخروج برأى صحيح عنها .

والواقع الذى لا جدال فيه أن الدكتور طه حسين قد شغل الناس طيلة عمره ، أجل ، لقد شغلهم ذلك الطفل الكفيف الفقير الذى غادر القرية إلى الأزهر ، شغلهم وهو يغشى الصحف والأندية الأدبية وهو بعد فى باكورة الصبى ، يكتب للصحف ، ويلقى القصائد فى الحفلات والاجتماعات ،

ويشترك فى المساجلات الأدبية العامة ، ثم يترك الأزهر ليلتحق بالجامعة المصرية القديمة ، ويصبح فتاها الأول ومبعوثها إلى فرنسا ، ويعود الناقد (الديكارتى) المتشكك فى كل شىء ، ثم الكاتب الناقد الذى لا يدع أديبا أو مفكرا أو شاعرا إلا نقده ، ويصبح بعد ذلك الأستاذ الجامعى المرموق ، صاحب المدرسة النقدية اللامعة ، ويتخرج على يديه المئات من الطلاب الذين ينشرون آراءه فى مختلف الأرجاء . ويلقى الدكتور طه حسين بدلوه فى خضم السياسة ، ويبعد عن الجامعة حينا ، ويتخذ من الصحافة منبرا أدبيا حرا ، وينتج كتبه الكثيرة ، ثم يتولى الوزارة ... ومن بعدها يتولى رياسة اللجنة الثقافية للجامعة المصرية ، ... ورياسة مجمع اللغة العربية ...

لا شك أن كاتبا مثل الدكتور طه حسين - هذه لمحة سريعة لحياته الحافلة - حقيق أن يترك فى الدنيا دويا عاليا . ولقد فعل الدكتور طه حسين ذلك عن جدارة واستحقاق .

●

ولقد قدر لى أن أكتب عن طه حسين ناقدا للشعر والنثر فى العصر الحديث . والواقع أن الكتابة عنه فى هذا الإطار تستوجب أن أقدم بكلمة عن بعض العوامل التى كان من شأنها التمهيد لذلك الدور الذى اضطلع به الدكتور طه فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن .

طه حسين الشاعر :

كان الدكتور طه حسين فى فترة شبابه الأول فى العقد الأول من هذا القرن فتى يدرس بالأزهر ، ولكنه أعلن ثورته على الأسلوب الذى يتبعه أساتذته هناك ، وأخذ كما قدمت يغشى المجتمعات والأندية الأدبية ، ولا سيما تلك النزاعة للتجديد ، وانطلق يطوف بالصحف والمجلات ، ويسهم فى تحريرها بقلمه الثائر الملتهب ، كما راح هو وصديق صباه الأستاذ أحمد حسن الزيات ، يغشيان المقاهى ومجالس الأدب التى كانت تعقد فى دار آل عبد الرازق ، وكانت مجالس شهية يحضرها أعلام الفكر والأدب فى ذلك الحين ومنهم : الشيخ عبد العزيز البشرى ، وحافظ ابراهيم ، وقد عرف طه حسين فى تلك

الفترة بنظم الشعر ، ونشرت له الصحف ولا سيما جريدة (مصر الفتاة) قصائد كثيرة منها قوله :

شـــادن عطف عطفـــــة الحبيب
بعد ما صـــدف صـــدفة الملـــول
كم سبى العقـــول قوله الخلـــوب
يملك القلـــوب ثم لا ينيـــــل
كل ذى بهـــاء يمقت الوصـــال
يظهـــر الحيـــاء وهو فى صـــدود
من لذى السهـــود منه بالنـــوال
إن فى الجمـــال ... عثرة الجـــدود !.

والواقع أن جريدة (مصر الفتاة) قد نشرت لطه حسين فى عام ١٩١٠ كما نشرت لغيره من شباب الشعراء والأدباء ولا سيما لزميليه الأستاذين الزيات والزناتى ، وكان ثلاثتهم كثيرا ما يتسابقون فى النظم ... !!

ويلاحظ القارىء أن نزعة التجديد قد تملكت روح طه حسين منذ ميعة الصبى ، وألفاظه منتقاة، شعرية الأصداء ، وموسيقاه رقيقة الجرس ، لا شك فى ذلك ولا ريب ، ولكنه لم يكن قد كملت له بعد الأداة الشعرية ، ولعله حينما استعصى عليه ذلك فيما بعد — رغم محاولاته الكثيرة، وظهوره شاعرا يلقى قصائده فى المحافل والمناسبات الهامة — لعله آثر بعد ذلك ترك الشعر العروضى جملة والتخلى عنه كأداة، من أدوات التعبير .. وإن لم يتخل أبدا عن الشعر بأخيلته وموسيقاه وألفاظه وصوره الرائعة ! .

●

أسقط الدكتور طه حسين الشعر العروضى من حياته الأدبية وأهمله ونسى وهو فى أوج مجده أنه قال يوما شعرا منظوما، وذلك على الرغم من كثرة ما نشرته له الصحف حينذاك من الشعر ، وكان بعضه بالفعل

من الشعر الجيد بل لقد نظم بعض الأغانى باللغة العامية ، ولكن طه حسين الطموح لا يرضى من الآثار الأدبية إلا بما يكفل له الخلود .

طه حسين الناقد :

وكذلك نراه يتجه وهو بعد فى ميعة الشباب إلى النقد ، وقد كان النقد يجرى فى عروقه مجرى الدم — منذ دخوله الأزهر — فقد انتقد طرق التدريس كما نوهنا آنفا ، ومن ذلك محاولاته الأولى ، وقبل إيفاده إلى فرنسا فى بعثة الجامعة المصرية القديمة ؛ تلك المحاولات التى صدرت بجرائد الحزب الوطنى ، وكان يشجعه على ذلك المرحوم الأستاذ محمد صادق عنبر ، الذى كان محررا ومصححا بصحف الحزب الوطنى ، وكان صادق عنبر معروفا بتفوقه فى علوم اللغة العربية وأسرارها . وكان الكاتب العملاق مصطفى لطفى المنفلوطى فى أوج مجده حينذاك ، والناس يتلهفون شوقا لمطالعة آثاره الباقية : النظرات والعبرات وترجماته العظيمة — (ماجدولين) وفى (سبيل التاج) و «الفضيلة» ، والشاعر «سيرانو دى بيرجراك» فيتصدى اليافع الأزهرى للعملاق المنفلوطى ناقدا فى جريدة (العلم) جريدة الحزب الوطنى ، التى كان يصدرها حينذاك الشيخ عبد العزيز جاويش ، وكتب طه حسين بامضاء (أزهرى ناشىء) ، عدة مقالات نقد فيها المنفلوطى العملاق ، وكان يعينه ويشجعه على كتابة هذه المقالات العالم اللغوى محمد صادق عنبر ، وكانت معظم النقدات لغوية وقد تحدثت الأندية الأدبية عن تلك المقالات حديثا طويلا ..

ويبدو أن إعجاب طه حسين بالمنفلوطى هو الذى حدا به إلى نقده ، فقد كان منذ الصبى مولعا بالتصدى للعمالقة الجبابرة ، وتلك طبيعته .... ولعل الدكتور طه حسين لم يرض عن تلك المقالات النقدية فيما بعد ، ولذلك طواها ولم يجمعها فى كتاب كما طوى شعره من قبل !!

ولكنه استمرأ النقد واستطعمه واستطاب مذاقه .. ولذلك نراه يعود بعد بعثته ناقدا جبارا بطاشا ...

●

عاد أستاذا للأدب العربى بالجامعة المصرية منذ إنشائها يدرس الأدب وتاريخه ، وينشر آراءه النقدية العنيفة انعاتية، بين طلبته ، وينشرها كذلك على قرائه فى جريدة (السياسة) إذ كان محررها الأدبى .

.. مع الأستاذ مصطفى صادق الرافعى :

وفى جريدة السياسة بدأت مساجلات ومناظرات طه حسين مع كبار أدباء العصر وفى مقدمتهم مصطفى صادق الرافعى ، الذى كان قد أرسل إلى الدكتور هيكل رئيس تحرير السياسة، رسالة ذكر فيها أنه عاتب بها ظريفا من أدباء الشام (كنت كتبت إليه) (هذا نص كلام الرافعى) فتفتر فى رد كتابى ، لأن جماله ظرف وظرفه جمال ، وهما إذا اجتمعا كان لهما حكم خاص فى قانون الرسائل .

(وقد كتبتها من النمط الأول الذى هو فن من زينة البلاغة العربية يشبه بعض فنون الزخرف والتنسيق، وهو حين يكون فى مثل هذه الرسالة لا يكون أبدع منه شىء من الأساليب الأخرى) .

(فأرجوكم الحفاوة برسالتى هذه فى السياسة الغراء، والتمهيد لها بما يبين عن سبب كتابتها) .

ثم جاء فى صلب رسالة الرافعى قوله :

(سيدى كتبت إليك من أيام يشفع لها قربك فى نفسى ، فلا أقول إنها بعيدة ، وتمر قديمة ولكن ما فى هذه النفس منها يجعلها دائما جديدة ، وكأنها تجرى بى إلى الفناء فهى تطول إلى غير حد ...

... (وانتظرت رد خطابى وأن تلقى إلى ورقة من شجرة عتابى ، فما زالت تنقطع الساعة من الساعة ويلتقى اليوم باليوم ، ويذهب اللوم إلى العتاب ويجىء العتاب إلى اللوم ، وكتابك على ذلك كأنه الذهول نوم اليقظة أو السهد يقظة النوم ... فسبحان من علم آدم الأسماء كلها لينطق بها ، وعلمك وحدك السكوت ... والسلام عليك فى أزلية جفائك . أما أنا فأقول (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت)

إلى أن قال فى ختام رسالته :

ومن ظن (بصرفنا) عن نفسه أنه كبير ، جعلناه من (نحونا) فى باب التصغير . ومثلنا — أصلحك الله — لا يتكلم إلا بفائدة ، ولا يسكت إلا لفائدة. فان أخطأنا معك فى واحدة ، أصلحناها بواحدة . والسلام) .

وعلق الدكتور طه حسين على هذه الرسالة فى جريدة السياسة بقوله :

(أما أنا فأعتذر للكاتب الأديب إذا أعلنت مضطرا أن هذا الأسلوب الذى ربما راق أهل القرن الخامس والسادس للهجرة لا يستطيع أن يروقنا فى هذا العصر الحديث الذى تغير فيه الذوق الأدبى ، ولا سيما فى مصر ، تغيرا شديدا) .

وهنا ثارت ثائرة الأستاذ الرافعى فبعث إلى (السياسة) بكلمة تحت عنوان (أسلوب فى العتب) جاء فيها قوله مخاطبا الدكتور طه حسين :

(ولست أجادله فى ذوقه إن كان الأمر إليه أو إلى ذوقه ، وهو أعلم حيث يجعل نفسه ، وليحملها على ما شاء ، وليحمل ما شاء عليها . ولكنى أتبين مرجع الضمير فى قوله (لا يستطيع أن يروقنا) فهل ترجع (نا) هذه إليه وحده أم إلى أهل العصر الذى نحن فيه ؟ وهل هو هو حسبه أم هو أكثر من نفسه ؟ وإلا فمن سلطه ليتسلط بالنفى ؟

إلى أن قال :

(ثم إننا نعرض أن هذا الفاضل اضطر أن يكتب فى هذا المعنى الذى كتبنا فيه وأراد أن يأتى بصورة من جمال الأدب ، فليكتب الآن وليملأ الوجه الآخر من الصحيفة بما تتم به المقابلة بين ما يروق وما لا يروق ، وليأتنا بالبلاغة التى عجزنا نحن عنها ، إذا كان هذا رأيه المستور الذى يرمى إليه برأيه الظاهر فى هذه الكلمات) .

وعلق الدكتور طه حسين على كلمة الأستاذ الرافعى بقوله :

(يرى الكاتب الأديب أن أكثر كتاب العصر ، وأنا منهم ، لا يجيدون (هذا الأسلوب) ولا يستطيعونه مهما تكلفوا له ، وبالغوا فى التكلف ،

وتحروا فى المبالغة . وهذا عندنا وجه من وجوه التأويل فى معنى تغير الذوق الأدبى .

(وأنا لا أتردد فى إقرار الكاتب الأديب ، على أننا لا نجيد هذا الأسلوب ، وعلى أننا لا نريد أن نجيده ، لأن الذوق الأدبى ، ولا سيما فى مصر قد تغير . وقد كنت أريد أن أناقش الكاتب ، ولكن له فى نفسه رأيا لا يسمح بمناقشته والتحدث إليه ، ولندعه ورأيه : ولنحى الذوق الأدبى الجديد الذى يلائم حاجات الناس وحياتهم) .

وعمد الدكتور طه حسين إلى توضيح رأيه فى مقال تال نشرته له السياسة عن (القديم والجديد) ، ختمه بقوله :

(نريد أن تكون لغتنا مرآة لحياتنا . لا قديمة خالصة . ولا أوربية خالصة ، فأى شيء فى هذا ؟ وماذا يمكن أن ينكر علينا الأستاذ الرافعي وأصحابه من هذا ؟ ومتى كان القصد إلى الصدق وحسن الملاءمة بين ما نجد وبين ما نصطنع فى وصف ما نجد ذنبا ينكر أو شيئا يعاب ؟) .

●

وبعد ذلك نشرت السياسة للدكتور طه حسين مقالا آخر تحت عنوان (الذوق الأدبى) وذلك بمناسبة تلقيه ردا من الأستاذ الرافعى على مقاله (القديم والجديد) ، ولعل رد الأستاذ الرافعى كان شديدا بل وقاسيا ، ولذلك مهد الدكتور طه لنشره بهذه الكلمة التى قال فيها (إن الذوق قد تغير كما تغيرت الأساليب الأدبية . فالناس لا ينقد بعضهم بعضا الآن كما كان يتهاجى جرير والفرزدق منذ أحد عشر قرنا . وليس ينبغى أن يباح لك الاستمتاع بالحرية الصحفية فتسرف فى هذا الاستمتاع . وتضطر صاحب الصحيفة إلى أن يخرج عن طور الأدب فينشر الشتم والسب ، أو يصطنع الحزم فيأبى عليك أن تدفع عن نفسك حتى تكون فى ألفاظك ومعانيك مقصدا مؤثرا للين القول وحلوه على غليظه وفجه) .

ويمضى الدكتور طه فى رده على الأستاذ الرافعى يقول :

(أما نحن فنريد أن يفهمنا الناس ، كما نريد أن نفهم الناس . ولهذا

نتحدث إلى الناس بلغة الناس . وإذا تحدثنا إلى الأدباء أمثال الأستاذ تحدثنا إليهم أيضا بلغة الناس) .

●

وطال الجدال بين طه حسين والرافعي حول هذا الموضوع ، مما دعا الدكتور طه إلى كتابة مقال آخر تحت نفس العنوان (القديم والجديد) وقد نوه فى ذلك المقال بذلك الفصل الذى كتبه الأستاذ سلامه موسى فى مجلة (الهلال) والذى هاجم فيه الرافعى مهاجمة عنيفة ، كما نوه بدفاع الأستاذ الرافعى عن نفسه ، ذلك الدفاع الذى أفسحت (الهلال) صدرها له ، وكان الهجوم والدفاع عنيفين — على حد قول الدكتور طه حسين ، الذى علق على ذلك بقوله : (إن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة (الهلال) ، وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعى) ولفت أنظار القراء إلى أن (مصدر هذه الخصومة إنما هى صحيفة الأدب فى (السياسة) ، وليست مجلة (الهلال)التى نشرت أثر النقاش الذى طال بينه وبين الأستاذ الرافعى رسالة لأديب فلسطينى هو الأستاذ خليل سكاكينى حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد وحول الإيجاز والإطناب، تناول فيه بالنقد الأمير شكيب أرسلان ، الذى لم يلبث أن وجه إليه ردا طويلا وعنيفا ، انتصر الأستاذ سلامه موسى على أثره للأستاذ السكاكينى وعده من أهل الجديد ، وهاجم الأمير شكيب بوصفه من أهل القديم ، ثم تدخل الأستاذ الرافعى فانتصر للأمير شكيب .. فكان ما كان من دفع سلامه موسى للرافعى بأنه من أقطاب القديم .

هذا إيجاز لما جرى فى هذا الصدد ،

ولكن الدكتور طه لم يسره أن تنقل المعركة إلى صفحات (الهلال) فهو يريدها أن تستمر على صفحات (السياسة) ويرى فى تصرف (الهلال) عدوانا على حق السياسة) وإن لم يعلن ذلك صراحة ، ومن ثم فقد مضى فى حديثه عن (القديم والجديد) مصرحا بأن الخصومة مشروعة ...

وأستأنف حديثه عن الأستاذ الرافعي قائلا :

(هو يرى من الخير لأنصار المذهب الجديد أن يولدوا من جديد وأن يتعلموا الأدب العربي من جديد ، ليأخذوا منه بالحظ الموفور فيسلكوا فيه سبيل القدماء ، ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ولغتهم الجديدة فيدخلوا في اللغة والأدب ما ليس من حقهم أن يدخلوه . ذلك لأن اللغة موروثة وهي ملك للملايين من مختلف الأعمار ولطائفة طويلة من العصور ، ويجب أن نقبلها كما ورثناها دون أن ندخل فيها شيئا من عند أنفسنا .

(ونحن نعترف بأننا نخالف الأستاذ كل المخالفة في هذا الرأي ، ونسمح لأنفسنا بأن نراه رأيا عقيما ، ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أن لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ونتخذها أداة للفهم والأفهام حظا يجعلها ملكا لنا . ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ونزيد فيها كلما دعت إلى ذلك حاجة أو قضت ضرورة الفهم والإفهام . فليس لأحد أن يمنعك أو يمنعني أن نضيف إلى اللغة لفظا جديدا ، أو ندخل فيها أسلوبا جديدا ، ما دام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنه أن يفسد أصلا من أصول اللغة أو يخرج بها عن طريقها المألوفة .. والكتاب والشعراء في كل عصر وفي كل مكان يضيفون إلى لغاتهم ويدخلون فيها ويجددونها ...)

●

وهذا كلام منطقي وسليم . فاللغة كائن حي متصل الحياة ، وإنما اتصال حياة اللغة بمواءمتها لظروف العصر ، ولا يضيرها أن يضاف إليها ألفاظ أو أو عبارات أو أساليب جديدة في التعبير ... بل إن مهمة المجامع اللغوية هي إضافة الألفاظ والكلمات الجديدة التي نحتاج إليها في استخداماتنا اللغوية .

وأحسب أن الأستاذ الرافعي في شدة حرصه على أساليب البيان العربية الراسخة ، ما كان ليخالف مثل هذا الرأي الذي ذهب إليه الدكتور طه ، فالرافعي فحل من فحول اللغة وعملاق من عمالقة الأساليب العربية التي أثرت الفكر العربي في عصوره المختلفة وهو نفسه — مع شدة حرصه على البيان العربي الرفيع — ما كان لينكر الإضافة إلى اللغة بعبارات وأساليب

مبتكرة ، ولعل مغالاة الرافعي في الحفاظ على الأساليب القديمة إنما مرده إلى إشفاقه من أن يكون الإغراق في التجديد بابا لهدم الأساليب الرصينة والتقاليد العريقة التي تحرص عليها وتفاخر بها لغتنا العربية .

●

والواقع أن الدراسة المتأنية لآثار الأستاذ الرافعي تبين لنا أنه كان يكتب بأسلوبين جد متباينين : فهو في أبحاثه عن (إعجاز القرآن) و (تحت راية القرآن) (وتاريخ الأدب العربي) إنما يكتب بأسلوب واضح وعبارة سلسة رقيقة تدافع عن القرآن ولغة القرآن دفاعا صادقا مجيدا وهو دفاع يقبل عليه العصريون المجددون ، إقبال غيرهم من المبقين على القديم سواء بسواء لأن النفوس جميعها مشربة بحب التراث وعشقه والحفاظ عليه .

غير أن الرافعي في كتبه الشخصية مثل (السحاب الأحمر) و (أوراق الورد) و (رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب) — وفي بعض شعره ورسائله الشخصية التي يحاول فيها أن يتحدث عن ذات نفسه .. انما يفتعل فنونا من الأساليب ويصطنع صورا غير طبيعية وأحوالا لا توائم روح العصر ، وإن جاءت مرصعة بالبيان ومطرزة بالبديع ، وكأني به يستحضر أرواح أولئك الأعلام الأفذاذ الذين سبقوه في العصور الخالية فيستعطفهم ويستوحيهم أساليبهم وعباراتهم التي لاتلائم العصر ولا تواكب روح النهضة.

على أن ذلك لاينفي أن المساجلة الأدبية نفسها بين طه حسين والرافعي قد أثمرت ثمرتها الرائعة البديعة ، وكان من جرائها أن استبانت الطريق أمام الكتاب والشعراء ، إذ تجلى لهم أن الإخلاص والصدق هما الأساس الوطيد للعمل الفني السليم ...

.. مع الشيخ الخضري :

تلك معركة من المعارك الأدبية التي خاضها الدكتور طه حسين على صفحات السياسة .

وثمة حملة أخرى رفع لواءها على الصفحة الأدبية لتلك الجريدة الغراء

ولا أقول فى وصفها إنها معركة ، لأن الطرف الآخر فيها أستاذ جليل من أساتذة الدكتور طه حسين ، هو الشيخ محمد الخضرى ، وكان السبب فى شن تلك الحملة إصدار الشيخ الخضرى الجزء الأول من كتابه الجديد (مهذب الأغانى) . وفى ذلك ما ينبىء بأن الدكتور لا يعفى صديقه بل أستاذه من النقد والنقد الشديد .

بدأ الدكتور مقاله بالثناء على الأستاذ الخضرى لأنه (عكف على هذا العمل خمسة عشر عاما حتى أتمه فى غير تمدح به ولا إعلان له ... فالذين يعملون ولا يقولون فى هذا البلد وفى هذا العصر خاصة قليلون . وأقل منهم هؤلاء الذين يبتدئون العمل الطويل الشاق فلا تصرفهم عنه مشقته ولا طوله .. وأقل من هؤلاء وأولئك قوم يقدمون على العمل الطويل الشاق فينفقون فيه ما ينفقون من قوة ومال وهم يعلمون أنهم لن يستردوا مما أنفقوا إلا شيئا قليلا ، وربما لم يستردوا منه شيئا ، وهم مع ذلك يعلمون ، وربما شجعهم هذا اليأس على المضى فى العمل ، وكثيرا ما تكون التضحية لذيذة . فالأستاذ الخضرى خليق بالشكر والثناء لهذا كله) .

إلى هنا والكلام جميل والاطراء رائع ...

ثم يأتى بعد ذلك كلام آخر ...

(أما العمل نفسه فسأكون حرا فى الحكم له أو عليه ، وسأصطنع هذه الحرية وإن كانت للأستاذ على حقوق تجعل من العسير أن أناله بالنقد ، ولكنى مع ذلك سأكون حرا . ولم لا أكون حرا وقد طلب إلى الأستاذ نفسه أن أكون حرا !! فلأشكر له مرة أخرى حريته ، وحسن رأيه فى النقد ، ولأقل إنى أحمد عمله وأعيبه ، أحمده لأن فيه نفعا لا يكاد يحصى لعامة المستنيرين وجمهور الطلبة الذين لا يستطيعون أن يقرأوا (كتاب الأغانى) كما هو ، .... وإذن فليس من شك فى أن الأستاذ الخضرى قد أحسن إلى هؤلاء الطلاب إحسانا لن يقدروه حق قدره مهما يكن حرصهم شديدا على الوفاء ، ولكنى أعترف بأنى لن أنتفع كثيرا بكتاب الأستاذ الخضرى ، فقد يغيظنى كتاب الأغانى وقد يغيظ كاتبى ، ولكنى مع ذلك لا أستطيع أن

أنصرف عنه إلى كتاب مختصر مهما تكن قيمته ، ومهما يكن حظه من الاتقان .. ومهما يكن صاحبه ، لأن الباحثين حقا لا يستطيعون أن ينصرفوا عن الأصول . وإذا فكتاب الأستاذ الخضرى نافع كل النفع للذين لا يريدون أن يتخذوا الأدب موضوعا لبحث علمي دقيق .

(ولى بعد هذا كله على الأستاذ ملاحظات : فقد كنت أحب قبل أن يبدأ هذا العمل أن يبحث لعله قد سبق إليه . ولعل من سبقه قد أحسن اختصار الأغانى .. ويخيل إلى أن ابن المكرم صاحب لسان العرب قد اختصر كتاب الأغانى ... وأن إنتاج هذا المختصر على الوجه الذى أراده الأستاذ ونشره كان أيسر وأنفع من هذا الجهد الطويل الشاق الذى تكلفه الأستاذ ...)

ثم عاد الدكتور طه فهاجم فكرة اختصار كتب العلماء المتقدمين ولم يعف حتى ابن المكرم الذى سبق أن أثنى عليه وأطراه ، وفى ذلك يقول :

(ما الذى يحبب إلى العلماء المحدثين أن يختصروا كتب العلماء المتقدمين؟ الجواب سهل ، وهو أن هذه الكتب القديمة مخالفة فى وضعها وترتيبها للذوق الحديث ... ذلك أن طريقة تأليفها تخالف نظامنا العقلى الجديد . إذن فنحن بين اثنتين إحداهما سهلة ، وهى أن نمسخ الكتب القديمة لتلائم عقولنا . والأخرى عسيرة ، وهى أن نأخذ عقولنا بمناهج البحث العلمى لتلائم الكتب القديمة . وهذا عسير وغير ميسور للناس جميعاً) .

وخلص الدكتور طه إلى قوله إنه لابد اذن (من اصطناع الخصلة الأولى ، أى لابد من مسخ كتب القدماء رضى القدماء أو لم يرضوا) .

ثم أورد طريقة أخرى من الميسور اللجوء إليها ، وهى أن نفعل ما يفعله أهل أوروبا من وضع كتب للقراء المحدثين عن العباقرة القدماء تلائم ميول أولئك القراء وعقولهم وأذواقهم ونترك آثار الكتاب الأقدمين على حالها دون اختصار ...

وهكذا سفه الدكتور طه حسين طريقة أستاذه الخضرى فى تلخيص كتاب (الأغانى) . مبينا أنها (مسخ) لكتاب الأغانى ، وعدوان على التراث العربى ، وأوضح أنه كان الأجدر أن يترك (الأغانى) على حاله وينشر

كما هو ، وتكتب عنه وعن صاحبه الدراسات التي تلائم ميول القراء المحدثين وعقولهم وأذواقهم ...

واشترك الأستاذ الخضرى مع تلميذه طه حسين فى نقاش فدافع عن أسلوبه فى تهذيب (الأغانى) وهو أنه رتبه ترتيبا شمل الأدب العربى المبدد وأتم ما أورده أبو الفرج فى الأغانى من شعر ناقص ، وضبط الغريب من الألفاظ وفسرها ، ولم ينقص فى تهذيبه من الأصل سوى الفحش الذى صد عن (الأغانى) وجوه كثير من أهل الأدب ، أو أشياء لا تفيد أدبا ولا ترقى ذوقا ... وكان رد الشيخ الخضرى مهذبا ينبىء عن سعة صدر وحسن خلق وهو يحاور تلميذه .

ولكن الدكتور طه أصر على موقفه السابق إصرارا شديدا فكتب يعلق على خطاب الأستاذ الخضرى بقوله (إنى أرى أن لصاحب الكتاب حقا مطلقا فى أن يبقى كتابه كما وضعه دون أن يناله تغيير أو تبديل ، لأن كتاب الرجل جزء من نفسه ، وما كان لك مهما ترد من الخير أن تعبث بنفوس الناس) .

ثم قال : (إن من الطغيان على أبى الفرج أن تحذف من كتابه شيئا وضعه هو فى كتابه ، وأن من الطغيان على قراء الأغانى أن تحرمهم قراءة شيء فى (الأغانى) كان من حقهم أن يقرأوه !!) .

ولا ريب أن ثبات الدكتور طه عند رأيه خلة مستحبة ، وكنت أود لو أنه استمسك بها على المدى ولم يحد عنها ، ويا ليته استمسك برأيه (أنه من الطغيان على أبى الفرج أن تحذف من كتابه شيئا وضعه هو فى كتابه) ويا ليته تشبث بحق قراء الأغانى فى ألا يحرموا قراءة شيء فى (الأغانى) كان من حقهم أن يقرأوه) . اذن لأقام الدليل الناصع على تشبث الناقد برأيه وثباته عنده لا يحول !! ..

ولكنه لأمر ما عمل وهو رئيس اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية على إصدار كتاب بن مكرم (مختار الأغانى) ، وهو لا شك ينطبق عليه رأى الدكتور طه السابق فى كتاب (تهذيب الأغانى) للخضرى ، فقد حرم

ابن المكرم فى كتابه قراءه من قراءة شيء كثير من كلام أبى الفرج فى كتابه (الأغانى) ، مما كان يحق للقراء أن يقرأوه ... وذلك (طغيان) كما يرى الدكتور طه حسين !!

●

ويبدو أن قسوة الدكتور طه حسين فى نقد (تهذيب الأغانى) للأستاذ الخضرى ، أثارت ثائرة الكثيرين من تلاميذه ومريديه ، فأدلوا بدلوهم وساهموا فى النقاش الدائر على صفحات (السياسة) مما اضطر الدكتور إلى أن يكشف عما يدور فى أقطار نفسه من (أنه من الخير لكاتب ناشيء – يعنى نفسه – أن يكثر الكلام حوله وتختلف الآراء فيه ، وتتناوله الصحف السيارة بالرضا عنه حينا والسخط عليه حينا آخر ، ففى ذلك إذاعة لأمر الكاتب والحاح فى الدعوة إليه ، وضرب من الاعلان الجيد المفيد الذى قد يبتغيه المؤلفون بأموالهم فلا يظفرون بما يريدون .)

والحق أن الدكتور طه ذلك الكاتب الناشيء قد كثر الكلام حوله واختلفت فيه الآراء وتناولته الأقلام فى مختلف الصحف بالرضا عنه حينا والسخط عليه حينا آخر ، وأفاد من ذلك أكثر بكثير من استفادة المؤلفين ، من (ذلك الضرب من الاعلان) ، ذلك لأن الذين تصدى الدكتور طه لنقدهم كانوا أدباء معروفين ومفكرين وعلماء لا يطمعون فى شهرة ، ولا نحسب أن الأستاذ الخضرى – وهو أستاذ الدكتور طه حسين كان يطمع فى أن يعرفه القراء ، ومثل ذلك القول ينصرف إلى المنفلوطى والرافعى وأحمد ضيف ولطفى السيد وحسين هيكل و و إلى آخر القائمة .. !!

على أن الأدب قد استفاد كذلك كثيرا من هذه المناقشات الحادة واستفاد ناشئة الأدب من ذلك الحوار الشديد الغليظ العنيف !

●

ولعل ميل الدكتور طه حسين إلى ذلك الضرب من الإعلان هو الذى دفعه إلى نقد صديقه الدكتور هيكل – وكان فى الوقت نفسه رئيس تحرير جريدة (السياسة) التى تظهر فيها الصفحة الأدبية لمحررها الدكتور طه حسين لقد اختار أن ينقد كتاب (جان جاك روسو) والدكتور هيكل غائب فى أوروبا . وكان قاسيا عنيفا فى نقده إذ قال :

لا أعرف كتابا علميا أدبيا أردأ (طبعاً) من كتاب الدكتور هيكل، بل لا أعرف كتابا علميا أدبيا أقبح ورقا من كتاب الدكتور هيكل بل بلغ فيه الاهمال والفتور ما نلقاه فى كتاب الدكتور هيكل . طبع ردىء مفعم بالأغلاط المنكرة ، وورق ردىء يصرف القارىء عن أن ينظر فى الكتاب ، ويصد من يحب اقتناء الكتب عن أن يقتنى الكتاب ، وإهمال يصرف عن القراءة أشد الناس رغبة فى القراءة ، ويزهد فى الاستفادة أحرص الناس على الاستفادة) .

ويستطرد الدكتور طه قائلا : « ثم لا يقف أمر هذا الكتاب عند سوء الطبع وقبح الورق . فما رأيك فى كتاب تبحث فيه عن فهرست فلا تجد وما رأيك فى كتاب لا تستطيع أن تلم بما فيه إلا إذا قرأته من أوله إلى آخره !)

ثم يقول : (وأى فائدة تجدها حين تضم فعلا ما يجب أن يكسر وتذكر لفظا يجب أن يؤنث . أريد أن أسأل كيف استطاع هيكل أن يقول : (وكان قدمه قد استقر يومئذ فى الأدب) وهو يعلم أن القدم مؤنثة لا مذكرة .

ثم يمضى فى تسقط بعض الأخطاء اللغوية للدكتور هيكل . ويعود فيطرى هيكل من جديد ويعتذر عن نقده الشديد بقوله أن جريدة (السياسة) حرية أن تسع نقد رئيس تحريرها ! (فأنا أعلم ما ينتظرنى منه بعد أن يعود من سفره ، ولكنى أعلم أننا سنتحاور ونختصم ثم نتضاحك ونفترق وقد يعلن إلى هيكل كما تعود أن يعلن إلى كلما اختصمنا فى أمر كهذا أنى أجهل اللغة العربية ، فلأنتظر سخط هيكل ورضاه !) .

وعاد الدكتور هيكل من الخارج ليعلق على نقد الدكتور طه فيقول :

(لقد عرف القارىء أن الكتاب مطبوع طبعا سيئا على ورق ردىء .. وأن به أخطاء مطبعية وإهمالا لضبط بعض الألفاظ من الجهة اللغوية . وأنه مع ذلك كتاب دسم مفيد .. لكن سوء طبعه وورقه يصدان عن قراءته . فما الذى يمكن لهذا القارىء أن يقف عليه من أمر الكتاب : ألا تظن أنه يشعر بأنك لم تقرأ الكتاب ، بل اكتفيت بتقليب صفحاته ، واقتصرت بعد ذلك على الكتابة عن الشكل والصورة من غير أن تكلف نفسك عناء الوقوف على موضوع الكتاب) .

واستطرد هيكل يقول : (ان بى عيبا آخر قد يحول دون اتقان الطبع . وأظنك تعرفه . فانى تتحكم فى صفتان ليس أضر منهما على تجارة الحياة وتبادل المنافع . هاتان الصفتان هما الأنفة والحياء !)

فهذا الحوار بين الصديقين يكشف عن (لمة) النقد التى يجدها الدكتور طه مسيطرة على نفسه غالبة على أحاسيسه كما تكشف عن روح الدكتور هيكل الكريمة المسماحة الشديدة الحياء ! !

.. مع الأستاذ لطفى السيد :

واستثناء من القاعدة التى اتخذها الدكتور طه أساسا لنقده فسيطرت على معظم ما كتب عن أستاذه الحضرى وصديقه هيكل و و الخ ، جاء كلامه عن الترجمة العربية لكتاب (علم الأخلاق) لأرسطاطاليس ، معلم أستاذه لطفى السيد ، فقد احتشد للملك الفصل احتشادا عظيما ، فقال إن ترجمة الأستاذ لطفى السيد العربية للملك الكتاب (حدث أدبى ذو خطر) .

وقال (سمى العرب زعيم الفلاسفة اليونانيين المعلم الأول ، وكانوا فى ذلك منصفين ، وأنا أزعم أن الأستاذ أحمد لطفى السيد معلمنا الأول فى هذا العصر ، وأزعم أنى فى ذلك صادق منصف ، ومتواضع أيضا) . إلى أن يقول :

(لست اذن غاليا ولا مسرفا ولا مؤثرا لصديق ، فأنت تعلم أن الأستاذ

لطفى السيد صديق للشباب الناهض المفكر كله . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد قد يحبه قوم وقد لا يحبه آخرون . ولكن الناس جميعا يكبرونه ويقدرونه لأنه مفكر قبل كل شىء ، وكاتب قبل كل شىء . وأى الناس يستطيع ألا يكبر الكاتب والمفكر إذا كان كاتبا حقا ومفكرا حقا .

ويستطرد قائلا : ان التاريخ منصف بطبعه . ولكنه يحتاج إلى وقت طويل ليستطيع أن يصدر حكمه العدل . وليصدرن التاريخ حكمه قريبا . وليشهدن التاريخ بأن مصر مدينة بالشىء الكثير جدا للأستاذ لطفى السيد فى نهضتها العقلية والسياسية والاجتماعية .

ويمضى الدكتور طه متدفقا فى حديثه قائلا بعد حديث طويل عن الأستاذ لطفى السيد وعن الفيلسوف أرسطو :

(وبعد فلست أعرض لنقد الكتاب نقدا مفصلا ، لأن (السياسة) لا تصلح مكانا لنقد أرسطاطاليس ولا لمناقشة آرائه الفلسفية ، وإنما المدارس العليا وحدها هى التى تصلح لهذا النقد . ومع ذلك فقد كنت أريد أن آخذ الأستاذ المترجم بشيئين : الأول أنه نقل الكتاب عن ترجمة فرنسية ، وكنت أود لو نقل عن أصله اليونانى لكن الأستاذ نفسه يجيب فى التصدير بانه كان يود ذلك أيضا ، ولكنه لم يدرس اليونانية ، وقد فعل ما استطاع أن يفعل وبذل ما استطاع أن يبذل من الجهد لتحرى الصواب فى ترجمته العربية ، فلم يقتصر على ترجمة فرنسية واحدة بل اعتمد على غير ترجمة ...
(والثانى أن ترجمته العربية كالأصل اليونانى لا تخلو من صعوبة ، ولا يستطيع القارىء أن يمضى فيها مضيا سهلا ، وإنما هو محتاج إلى شىء من الأناة والتدبر ليفهم . ومصدر هذا هو أن الأستاذ أراد أن يكون أمينا فى النقل فبالغ فى هذه الأمانة ، وترجم الكتاب ترجمة توشك أن تكون حرفية ....)

هذا فى إيجاز بعض ما أورده الدكتور طه فى حديثه عن الترجمة العربية لكتاب (الأخلاق) ، التى أعدها أستاذه أحمد لطفى السيد ، وفى ذلك الحديث وفاء رائع بحق الأستاذ والأستاذية ، وفيه إجلال وإطناب فى ذكر

أرسطو المعلم الأول : ولكنه لم يخل من ذلك الشيء الذى تميز به الدكتور طه وهو النقد الصريح ، فهو يرى أن (تلميذ) أرسطو - أعنى أستاذه أحمد لطفى السيد - قد ترجم عن الفرنسية ، وتمنى لو نقل عن اليونانية مباشرة ، وهو تمنى المستحيل لأنه يعلم مما كتبه أستاذه أنه لا يعرف اليونانية ، وفيه كذلك نقد للترجمة الحرفية التى تضنى القارئين وتتعبهم ! !

وهذا شأن الدكتور طه حسين مع كل من استهدفوا لقلمه ، فهو يثنى ولكن .. ولكن هذه وراءها ما وراءها ...

.. مع الملاح التائه :

وقف قارىء هذه السطور على بعض آراء الدكتور طه فى معاصريه من الأدباء والمفكرين ، وبعضهم بل وأكثرهم من أساتذته الأعلام ، مثل الأستاذين الخضرى ولطفى السيد ، ولكنه لم يقف بعد على رأيه فى الشعر والشعراء .

ولقد امتزج الدكتور طه حسين بالبيئة الأدبية المصرية واضطرب فى محيطها منذ حداثته ، وكان أول ما شدا به فى مطلع حياته الأدبية شعرا ، ولعله كان يود أن يبلغ فى الشعر شأنا بعيدا ، ولكن مصر كانت فى شبابه عامرة بالشعر والشعراء ، كان هناك صبرى وشوقى وحافظ ومحرم ونسيم ومطران وأضرابهم من فحول الشعراء . وأدرك الدكتور طه أنه لن يبلغ فى الشعر بعض ما بلغ أولئك الفحول ، ثم إن دراسته العلمية فى الجامعة القديمة ومن بعد فى أوروبا ، أخذته بنظام جديد من الدرس والتمحيص ، ولذلك أخذ يبعد عن قول الشعر إلى النقد ، فنقد من قدمنا من الأدباء والعلماء والأساتذة ، كما نقد غيرهم ، وأخذهم بالشدة والعنف حينا ، وطورا بالرفق واللين ، ثم اتجه إلى الشعر فنقد حافظا وشوقيا ، وكان له رأى فى شعرهما .

ويبدو أن الدكتور طه حسين كان لا يهتم بالنقد عامة إلا حينما تهيىء له ظروف الكتابة فى الصحف ، ويكون له منها منبر عام : فعل ذلك فى جريدة (السياسة) ، ثم انقطع عن ذلك حينما ابتعد عن الصحافة عشر سنين ، فلما استأنف نشاطه فى (كوكب الشرق) و (الوادى) وكان ذلك فى

الثلاثينات ، انطلق يكتب على صفحاتهما الأدبية دراسات عامة فى نقد بعض الشعراء المعاصرين ، قدم لها بقوله إنه يعود للحديث عن الشعر بعد أن صرفته عنه الحياة وخطوبها أعواما أن لم تبلغ العشرة فليست تنقص عنها إلا قليلا (وأريد أن أمضى فى هذا الحديث كما كنت أمضى فيه من قبل : حرا طليقا) .

ومضى يمهد للحديث عن ديوان (الملاح التائه) لعلى محمود طه قائلا : (لم أكن أعرف الملاح التائه لا من قريب ولا من بعيد ، فقد كنت أسمع اسمه ، وكان يقال لى إنه مهندس ، يقرض الشعر ، وكنت أحب ذلك وأرضى عنه ، لأنى أحب أن يعنى العلماء بالأدب والفن ، وأن يفرغوا لهما من حين إلى حين ، .... وكنت إذا سمعت الناس يعجبون بهذا المهندس الشاعر ، وسمعتهم يعجبون بشاعر آخر طبيب ألقاه من حين إلى حين (يقصد الدكتور ناجى) ، أبتسم فى نفسى وأحس شيئا من الرضا ، لأنى أرى العلماء مقبلون على الأدب ، فيسبقون فيه الأدباء الخالصين إلى حد بعيد ، ويجمعون لأنفسهم تفوقا فى الأدب ، وتفوقا فيما يعالجون من علم دفين ... ويا له من اعتراف مؤلم بأنى لم أقرأ لهذا المهندس الشاعر قبل أن يصل إلى ديوانه قليلا ولا كثيرا .. !) ويستطرد الدكتور طه حسين قائلا :

لقد صحبت الملاح التائه فى قصيدة سماها (الله والشاعر) فرأيت رجلا لا هو بالشاك المطمئن إلى الشك ، ولا هو بالمستيقن المطمئن إلى اليقين ، ولا هو بالمفكر المستريح إلى الإنكار ... ، وإنما هو رجل يؤمن بالقضاء والقدر ثم يثور بالقضاء والقدر ، يرضى بأحكام الله ثم يجادل فيها ، يشكو ثم يستسلم ، ويستسلم ثم يشكو . رجل حائر دائر هائم لا يستطيع أن يستقر ، وأكبر ظنى أنه لو استقر لكان أشقى الناس فهو سعيد بحيرته ، منبسط بهيامه ... مبتهج بهذا التيه الذى دفعته إليه نفس طموح جدا . لأنها نفس شاعر عاجزة جدا لأنها نفس إنسان ...

إلى أن يقول : ومن الكتاب من يقول إن شاعرنا تأثر بأبى العلاء ، ثم يضيق بهذا التأثر . ولست أدرى أتأثر شاعرنا بأبى العلاء حقا أم تأثر

بيرون أم تأثر بهما جميعا ويقوم آخرين غيرهما أم لم يتأثر بأحد ... ،
وإنما لقى من لقى من الشعراء والفلاسفة مصادفة وعلى غير قصد ولا عمد .
وأحس أنا فى قصيدة أخرى سماها (غرفة الشاعر) روحا (لموسيه) ولكنى
لا أدرى أهو روح الذى قرأ فتأثر أم هو روح الذى أحس ، فتألم ،
فشكا ....) .

وبعد أن سرد الدكتور طه أبيات القصيدة أبدى إعجابه بها ورضاه عنها ، عاد فتساءل قائلا : (إن الأمر يختلط على القارىء فلا يدرى (هل كان لقاء الشاعر لزملائه الشعراء الغربيين والشرقيين مصادفة أم عن عمد وسعى ؟) .

يريد الدكتور طه بذلك أن يوهم القارىء بأن المهندس على محمود طه قد نقل عن بعض الشعراء الغربيين والشرقيين عواطفهم فى هذه القصيدة ، والواقع أن على محمود طه « تأثر ببعض مطالعاته إلا أنه كان ينقل عن نفسه ويمتح من وجدانه وروحه ، ولكن شعره وشعر رفاقه من أبناء المدرسة الحديثة كان يطالع القراء بصور جديدة فعلا لم يألفها الذوق الشرقى من قبل ومن ثم جاء هذا التساؤل على لسان الدكتور طه حسين .

ثم يستأنف الدكتور طه حديثه عن شعر الأستاذ على محمود طه قائلا :

(إنه حلو الأسلوب ، جزل اللفظ ، جيد ، حسن اختيار الكلام ، وأن لألفاظه ومعانيه رونقا أخاذا تألفه النفس ، وتكلف به وتستزيد منه ، وأن شعره موسيقى ، قلما نظفر بها فى شعر كثير من شعرائنا المحدثين ، وأنه استطاع أن يلائم ، إلى حد بعيد : لا بين جمال اللفظ وجمال المعنى فحسب ، بل بين التجديد والاحتفاظ باللغة فى جمالها ورونقها وبهجتها وجزالتها) .

ثم أخذ فيما بعد يشير إلى هنات فى القافية أو النحو أو اللغة ... وأنهى الفضل كما بدأه بالثناء الطيب العاطر على الشاعر الذى تنبأ بأنه سيكون له شأن فى تاريخ الشعر العربى الحديث .

ولا ريب أن الأستاذ على محمود طه – أهل لهذا الثناء العاطر الذى وجهه إليه الدكتور طه حسين ، ولقد استطاع الأستاذ على محمود طه أن يحلق

فى عالم الشعر ويخلق له المكانة التى استأهلها بديباجته الرائعة ... ولولا أن المنون عاجلته قبل نهاية العقد الخامس من حياته إذن لكان له شأن كبير .

أجل ، كان الأستاذ على محمود طه من الشعراء الفنانين الكبار الذين جمعوا بين رقة اللفظ ورشاقة الأسلوب ، وامتاز قصيدهم بذلك الرنين الموسيقى البارز ، فهو شعر غنائى ممتاز ، ولقد أقبل كبار رجال الموسيقى على الكثير من قصائده فألبسوها ألحانهم الرخيمة ، بل إن موسيقى شعره يسرت للفنان الموسيقار محمد عبد الوهاب مهمة تلحين قصائده الشهيرة (الجندول) و (فلسطين) وكليوباتره .

مع الدكتور ناجى :

بعد هذا الحديث الطيب الكريم عن (الملاح التائه) للأستاذ على محمود طه ، أرهف الناس أسماعهم لما عسى أن يلقى إليهم الدكتور طه من حديث عن صديقه ورفيقه فى ساحة الشعر العربى الحديث ، الدكتور ابراهيم ناجى ، فقد نشأ الاثنان معا ، وكان مسرح شبابهما على ضفاف النيل فى المنصورة وكان لهما أصدقاء يصغرونهم سنا ، ولكنهم شعراء ممتازون منذ ميعة الصبا ، أذكر منهم الآن الأستاذ الشاعر الكبير صالح جودت ، والأستاذ محمد عبد المعطى الهمشرى الذى غاله الردى وهو بعد فى عنفوان الشباب .

وقد كان الدكتور ناجى شاعرا عاطفيا عذب الصوت جميل الإلقاء إنسانى النزعة ، وكان محبوبا ومشهورا ، وكان فى شعره رنة موسيقية رائعة ، أما ألفاظه الشعرية فمختارة ومنتقاة ، وكانت أندية القاهرة تردد قصائده الساحرة ، ويحفظها المعجبون ...

وظهرت دراسة الدكتور طه حسين عن ديوان الدكتور ناجى (وراء الغمام) بعد أسبوع واحد من ظهور دراسته عن (الملاح التائه) فماذا قال الدكتور طه : قال عن الدكتور ناجى (إنه موفق فيما قصد إليه من المعانى ، موفق فيما اصطنع من الألفاظ ، موفق فيما اتخذ من الأساليب . معانيه جيدة

تصل أحيانا إلى الروعة ، وإن كانت تنتهى إلى الابتذال ، وألفاظه جيدة قد يعظم حظها من المتانة والرصانة ، وقد تكره اذن السامع على الالتفات والإعجاب والشعور بهذه اللذة الموسيقية التى يشعر بها الناس أحيانا بآذانهم ، وإن لم تصل إلى عقولهم . وإن كنا سنقف مع الشاعر وقفات عند ألفاظ لا تخلو من خطأ وأساليب لا تبرأ من عوج ، ومعان لعلها تبعد عن الصواب ..

ثم استطرد قائلا :

(ونحن نكذب شاعرنا الطبيب أن زعمنا له أنه نابغة ، بل نحن نكذبه إن زعمنا أنه عظيم الحظ من الامتياز ، وإنما هو شاعر مجيد تألفه النفس ، ويصبو إليه القلب ، ويأنس إليه قارئه أحيانا ، ويطرب له سامعه دائما ...)

ويا ليت الدكتور طه حسين وقف عند هذا الحد من الحديث عن الدكتور ناجي ولكنه مضى يقول :

(هو من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن يقرأوا فى رفق ، لأنهم فطروا على رقة لا تحتمل العنف وشدة الضغط ... هو شاعر هين لين رقيق حلو الصوت ، عذب النفس ، خفيف الروح ، قوى الجناح ، ولكن إلى حد ... لا يستطيع أن يتجاوز الرياض المألوفة ولا أن يرتفع فى الجو ارتفاعا بعيد المدى ، وإنما قصاراه أن يتنقل فى هذه الرياض التى تنبت فى المدينة أو ما حولها ، والتى لا تكاد تبعد عنها كثيرا — ... هو شاعر رقيق .. ولكنه ليس مسرفا فى العمق ، ولا مسرفا فى السعة ، شعره أشبه بما يسميه الفرنجة (موسيقى الغرفة) منه بهذه الموسيقى الكبرى التى تذهب بك كل مذهب ، وتهيم بك فيما تعرف وما لا تعرف من الأجواء ..) .

ولو أن الدكتور طه حسين وقف حتى عند هذا الحد من النقد إذن لهان الأمر ، ولكنه تجاوزه إلى عقد مقارنة بين الدكتور ناجى والمهندس على محمود طه الذى تحدث عنه قبل أسبوع ، فقال (ان الأستاذ على محمود طه مهيأ لأن يكون جبارا إن عنى بفنه وفرغ له وجد فى طلب الإجادة والإتقان : أما الدكتور ناجى فمهيأ لأن يكون هذا الشاعر الوديع الذى لا يتعبنا ولا يعنينا

ولا يكلفنا فوق ما نطيق من المشقة والجهد .. صوته يرن فى آذاننا رنينا حلوا على حين يدوى صوت صاحبه فى آذاننا ونفوسنا دويا يخرجنا عن أطوارنا ! !)

لقد كان لهذه المقارنة التى عقدها الدكتور طه حسين بين الشاعرين أثرها فى نفس ناجى ، بل وفى نفوس الشعراء : لقد انقبضت نفس ناجى الحساسة لهذا النقد العنيف الذى لم يألف مثله قط من قبل ، لقد كان من قبل يغشى النوادى والمحافل فيهش له الناس ويرحبون به ، وينتظرون أن يسمعوا الجديد من شعره العاطفى الرائع ، وكان المعجبون به يرددون ذلك الشعر ويتناقلونه ويبدون إعجابهم الشديد بموسيقاه ومعناه .

صحيح أن « ناجى » شاعر عاطفى ، بل هو شاعر مشبوب العاطفة ، عارم التدفق ، وهو ينقل صورة الوجدان الصادقة من أعماق روحه ، فى ألفاظ أنيقة جميلة ، وهو أمين فى تصوير وجدانه وتسجيل انطباعاته ، وقصيدته (العودة) التى صور فيها عودة الشاعر إلى بيت الأسرة القديم ، مثال على سمو الشعر ، وصدق الشاعر فى الإفصاح عن عواطفه وخوالجه النفسية .. بيد أن شعراء العاطفة لهم حدود ينتهون عندها ولا يتعدونها . فهم يحلقون فى الحدائق الجميلة والخمائل النضرة ، ولكن لايتجاوزونها إلى الآفاق العالية ، والجبال الشامخة ، فتلك مهمة النسور المحلقة البعيدة المدى فلو أن الدكتور طه حسين كتب ما كتب عن الدكتور ناجى دون عقد المقارنة بينه وبين صديقه الأستاذ على محمود طه اذن لهان الخطب ، ولكان فى ميسور الدكتور ناجى أن يقبل ذلك النقد ويهضمه ، ولكن المقارنة هى التى فعلت فعلها فى نفس ناجى ، فكان أن عصفت بروحه زوبعة من الأسى القاتم المرير ، شككته فى جدوى الشعر والأدب والفن ، بل وجعلته يهجر الشعر بعض الوقت ، وبدأت فى حياته فترة من الشك والألم والمرض استمرت زمنا ، وجعل خلصاؤه يهونون عليه الأمر ويضعونه موضعه الصحيح ... إلى أن شاء الله لهذه الأزمة أن تنقشع وتزول . وان تركت بعض آثارها فى نفسه حتى أخريات عمره .. وليس هنا مجال الإفاضة فى هذا الأمر وقد نعود إليه فى بحث مستقل .

ولقد شعر الدكتور طه حسين بالأثر الذى أحدثه نقده فى نفس الدكتور ناجى، وأدرك أن هذا الشاعر الطبيب (رقيق هين لين لا يحتمل النقد الشديد، ولا يكاد يسيغه)! فكتب إثر ذلك بحثا تحت عنوان (أخلاق الأدباء) جاء فيه قوله: (أدباؤنا المحدثون ضعاف، ولا أريد ضعفهم فى الأدب، ولا ضعفهم فى اللغة، ولا ضعفهم فى الشعور، ولا قصورهم فى التصوير، انما أريد ضعفهم عن احتمال النقد، وعجزهم عن الثبات للنقاد. لا تكاد تمس أحدهم مسا رقيقا حتى تأخذه رعدة كهربائية تضطرب لها أعصابه كلها، ويفسد لها مزاجه فسادا قبيحا. ثم تظهر آثار هذا الفساد وذلك الاضطراب فيما يصدر عنه من الأحاديث حين يتحدث إلى أصدقائه فى نادمن الأندية، وفيما يصدر عنه من الفصول التى يكتبها ويذيعها فى الناس، وفيما يصدر عنه من هذا الوحي الخبيث الذى يلقيه فى روع جماعة من المنتصرين له والمحيطين به، يدفعهم إلى أن يذيعوا ما استطاعوا الإذاعة، ويكتبوا ما أطاقوا الكتابة، ويقولوا ما وسعهم القول. كل هذا لأن ناقدا من النقاد قد مسهم مسا رقيقا، فأخذهم بقصور فى الشعور أو قصور فى التعبير والتصوير، وكأنهم قد أخذوا على أنفسهم وعلى الحياة وعلى النقاد عهدا بأنهم أكبر من الخطأ وأرقى من الزلل وأعلى من النقد، وأرفع من أن يرقى إليهم ناقد مهما يكن. ومن يضع نفسه هذا الموضع ويرى فى نفسه هذا الرأى خليق ألا يتصل بالحياة العامة من قريب أو من بعيد.. ومهما يكن الكاتب أو الشاعر مجيدا متقنا نابغة فذا، فهو إنسان معرض للنقص، وهو بعيد عن الكمال..!

ثم تناول الدكتور طه صراحة موضوع المقارنة التى كان قد عقدها بين الدكتور ناجى والمهندس على طه فقال:

(وأكثر من هذا كله أن يعظم التنافس بينهم، وأن ينكر بعضهم بعضا، ويزدرى بعضهم بعضا، ويبلغ بهم هذا أن ننتقد اثنين منهم فى فصل واحد، فإذا أحدهما ساخط عليك ضيق بك، يقطع ما بينك وبينه من صلة، لا لأنك ظلمته، بل لأنك قرنته إلى صاحبه، ولا لأنك كشفت عن عيوبه ما لم يكن يعلم، بل لأنك قرنته إلى صاحبه، وما ينبغى أن يكون له قرين، وذكرته

مع غيره وما ينبغي أن يكون له شريك ، وإنما حقه عليك إذا كتبت عنه أن تفرده بالكتابة وتخصه بالنقد وأن ترقى إليه فى سمائه التى يسكنها أو نجمه الذى يستقر فيه ... !)

... ومهما يكن من أمر فإن هذه التجربة لم يتح لها أن تتكرر ، فلا الدكتور طه عاد إليها ولا سواه من النقاد نهج نهجها ، على ما فيها من إغراء وما تنطوى عليه من جدوى وفائدة للشعر والأدب بصورة عامة ، هذا على الرغم من أن نقاد الأدب العربى القديم قد فتنوا بها دهورا ، وتفننوا فيها وجعلوها وسيلة من وسائل شحذ الهمم والرقى بمستوى الابداع الفنى كما صنعت مثل ذلك الآداب العالمية على اختلافها وكان كاتب هذه السطور قد حاول بعض ذلك عندما ظهر له بالمصادفة ، فى الفترة التى عقد فيها الدكتور طه هذه المقارنة بين الشاعرين الطبيب والمهندس ، رسالة عن (رواد الشعر الحديث فى مصر) عقد فى فصل من فصولها مقارنة بين الشعراء شكرى والمازنى والعقاد .

وجملة القول أن بعض الشعراء كانوا فى تلك الآونة يكرهون النقد ويثورون عليه أعظم ثورة . كما فعل الدكتور ناجى عندما نقده الدكتور طه حسين ، وكما فعل العقاد حينما مسسته مسا هينا رقيقا فى كتاب (رواد الشعر الحديث) (١) ، فى تلك الآونة ، مما سأعود إليه فى مبحث مستقل . على أن من الشعراء من يثورون على النقاد ثم يهدأون ، ومنهم من لا تهدأ لهم ثائرة أبدا . أما الأستاذ العقاد فأشهد أنه عندما اطمأن إلى فيما بعد ، فتح قلبه لى فى ود وإخلاص وصرت من خلصائه ، ولقد تزاملنا فى الصحافة زمنا بجريدة (الدستور) هو من أجمل الأوقات ، وإنى لأحتفظ له فى نفسى بأجمل الذكريات ، وأما الدكتور ناجى فقد مسح الله عن قلبه غشاوة الغضب على الدكتور طه حسين وإن جاء ذلك متأخرا .

وثمة مثال آخر للأديب الصادق الذى يحض النقاد على نقده حضا ويدفعهم إليه دفعا — وأعنى به الدكتور زكى أبو شادى فقد كان رحمه الله من السماحة والتواضع بحيث يرحب دائما بالناقدين ، حتى ولو كانوا فى منزلة أبنائه .

(١) كتاب للدارس عام ١٩٣٤ .

ولقد عرفت ذلك منه شخصيا حينما نقدته مرارا وبتشجيع منه فى مجلة (أبوللو) أوفى (رواد الشعر الحديث)، فقد كان رحمه الله يهش للنقد ويرحب بالنقاد. ولقد ذكر الدكتور طه حسين ذلك فى مقاله (عود إلى أخلاق الأدباء) عند ما قال:

(وأديب آخر لابد من ذكره وإن كنت لم أعرض له بعد، ولكنى أذكره على كل حال، وهو الدكتور أبو شادى. فقد بلغه أنى أريد أن أعرض لشعره فى بعض حديث الأربعاء، فتفضل وأرسل إلى دواوينه وكتب إلى يسبق النقد بالشكر مسجلا على نفسه أنه شاكر لهذا النقد مهما ينكشف عنه من الآراء. ومهما يكن هذا النقد مرضيا أو غير مرض. وهذا حسن، هذا خليق أن ينتفع به الشبان أيضا، هذا عهد يجب أن يكون بين المنتجين والنقاد: على المنتجين أن ينتجوا مخلصين، وعلى النقاد أن ينقدوا مخلصين، لا ينظم الصلة بينهم فى هذا إلا الصدق والإخلاص، وابتغاء الحق من حيث هو حق لا من حيث أنه يسر أو لا يسر هؤلاء..)

ولاجدال فى أن الدكتور طه حسين قد أوضح فى هذه العبارة العلاقة التى ينبغى أن تقوم بين المنتجين والنقاد. إنها علاقة تعاون فى سبيل خدمة الانتاج الأدبى. على المنتجين أن يكتبوا وعلى النقاد أن ينقدوا ولاينبغى للأدباء والمفكرين أن يشككوا فيما يصدر عن النقاد، طالما كان نقد النقاد خالصا صادقا أمينا يهدف إلى الرقى بالأدب وتحقيق الازدهار الكامل للحياة الأدبية.

ولقد قلنا بهذا فى ذلك الحين، وكان الدكتور أبو شادى من أوائل الذين نادوا بحرية النقد الصادق الأمين، وكانت صفحات مجلة (أبوللو) ميدانا للنقد الصادق الحر الأمين.. وكانت الكتب التى صدرت فى ذلك الحين تمثل ثورة فكرية أمينة صادقة، ولكن بعض الذين لم يألفوا مثل هذه الأجواء الحرة شككوا فى تلك الحركة الأدبية الناهضة، وانطلقوا يبحثون عن دوافع مفتعلة، بل ويختلقون الترهات ويحيكون الأباطيل. ويدعون أن هذه الحركة من صنع زيد أو من صنع عمرو ... والواقع أنها كانت حركة

رائدة شريفة ، ولو أنه كتب لها الاستمرار لا ازدهرت وآتت أكلها وازدهرت معها الآداب في ظل علاقة متسقة خيرة ومودة تضم كل أولئك الذين يضطربون في هذا الخضم الأدبي العارم الزاخر الكبير ! .

.. مع فوزى المعلوف :

انتقل الدكتور طه حسين ، بعد حديثه عن الملاح التائه للشاعر المهندس على محمود طه ، و (وراء الغمام) للشاعر الدكتور ابراهيم ناجي ، ذلك الحديث الذي عقد فيه مقارنته المشهورة التي أسخطت ناجي وإن أرضت على طه ، وكان لها صداها الواسع في المحيط الأدبي العربي لا في مصر وحدها ، بل في العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه ، نقول انتقل الدكتور طه إلى حديث جديد عن شاعر كان له أثر عميق في الشعر العربي في الثلاثينات ، هو الشاعر اللبناني فوزى المعلوف . لقد عاش فوزى المعلوف حياته القصيرة التي لم تناهز الثلاثين عاما ولكنه ترك شعرا رائعا حقا ، جديرا بأن يسلكه في الشعراء الخالدين . لقد كان المجتمع الأدبي يطالع ملحمته ، الرائعة (على بساط الريح) فيعجب بها أي إعجاب ، وأذكر أن مجلة (أبوللو) كانت أول من نوه بشعره في مصر بل في العالم العربي بأسره كما كانت هي أول من نوه بشعر أبي القاسم الشابي الشاعر التونسي الكبير ، ولقد خرجت قصيدة (على بساط الريح) بنغمة جديدة أحدثت أثرها العميق في نفوس قراء الشعر في الوطن العربي بأسره . وكان مما زاد من اهتمام الناس بهذه القصيدة أو هذه الملحمة أن صاحبها الشاعر فوزى المعلوف قضى وهو بعد في ريعان الشباب ، قضى في الثلاثين في عمر الزهور مغتربا في المهجر الأمريكي .

ولقد كتب الدكتور طه مقالة عنه ، متأثرا أشد التأثر بهذه المأساة العنيفة ، مأساة انقضاء الأجل في عنفوان الشباب فقارن بينه وبين « أبو تمام والشاعر الفرنسي (آنيدريه شينيه) الذي (اختطفته الثورة الفرنسية اختطافا ولما يبلغ برسالته كاملة) .

ولقد انفعل المجتمع الأدبي في مصر والبلدان العربية بتلك الملحمة التي

أحدثت فى نفوس الكثيرين من الأدباء والشعراء ، أثرا عميقا ...

وكنت أنا شبهته حينذاك (بشيللى) الشاعر الانجليزى الكبير الذى مات فى مثل هذه السن ، غريبا ، فى إيطاليا ، حيث كتب أروع شعره بعيدا عن وطنه انجلترا .. وفى طليعة ذلك الشعر العذب قصيدته الرائعة (إلى قبره) التى كان لى شرف نقلها إلى اللغة العربية فى ذلك الحين . وهو كذلك مثل جون كيتس الشاعر الوجدانى العظيم الذى سبق (شيللى) إلى الموت فى سن أصغر هى السنة الرابعة والعشرون ، وقد دفنا جنبا إلى جنب فى روما بعيدا عن وطنيهما انجلترا !!

إذن فقد كان فوزى المعلوف شابا عربيا من أولئك الشبان البسلاء المغامرين الذين يهاجرون من الوطن إلى العالم الجديد وقد (عاش هذا الشاب بين الأمل والذكرى والحنين ، وتغنى فى قصيدته هذه يأسا مهلكا وحزنا محرقا لا مصدر لهما إلا الأمل والذكرى والحنين) !

وقصيدته (على بساط الريح) تتضمن كما يقول الدكتور طه حسين (قصة يسيرة ولكنها رائعة فى يسرها . تلخيصها سهل ولكنها لا تحتمل التلخيص . لأن جمالها لا يأتى من جملتها وإنما يأتى فى تفصيلها ... فالشاعر قد طار فى الجو دقائق . ثم هبط إلى الأرض . هذا كل شىء) .

ولكن جمال القصيدة كما يقول الدكتور طه حسين (إنما يأتى من هذا الخيال الفلسفى الساذج الذى يرقى بالإنسان فى فلسفة مألوفة قديمة ليس فيها ابتكار إلى روحيته العليا فى غير تكليف ولا احتمال الجهد فى التصعيد الطويل) .

ولا بأس من أن أورد فيما يلى مطلع تلك القصيدة أو الملحمة الرائعة حتى يتبين قارىء هذه السطور جمال ذلك الشعر الذى أثنى عليه الدكتور طه حسين :

فى عباب الفضاء فوق غيومه

فوق نسره

ونجمته

حيث بث الهوى بثغر نسيمه

كل عطره

ورقته

موطن الشاعر المحلق – منذ البدء – لكن بروحه لا بجسمه
أنزلته فيه عروس قوافيه بعيدا عن الوجود وظلمه
ملك قبة السماء له قصر وقلب الأثير مسرح حكمه
ضارب فى الفضاء ، موكبه النور ، وأتباعه عرائس حلمه

ولقد أحسن الدكتور طه حسين غاية الإحسان فى التعليق على هذا الشعر عند ما قال :

(انظر إلى هذه الموسيقى التى تنبث فى الأنشودة ، كلها مؤلفة من الألفاظ والمعانى ، ومن هذه الصورة الغريبة التى يعرضها عليك فى جرأة ... فهذا الشاعر الملك الذى اتخذ قبة السماء قصرا وأديم السحاب عرشا ودجى الليل طيلسانا ، والثريا صولجانا ، ملك رائع ، لا لأنه ممكن ، ولا لأنه مستحيل ، بل لأنه غريب نتخيله ونتصوره تلمحه ولا نكاد نتبينه . وهذا الملك غريب فى الأرض قد أكره على أن ينشأ فيها ويعيش عليها ...) إلى آخر ذلك التعليق الأدبى النفيس ، الذى يحيل الناقد إلى معجب بمنقوده لا متعقبا لأخطائه بالنقد الصارم العنيف . لقد تحول الدكتور طه شاعرا فى نثره ، بل لقد عادت إليه شاعريته العتيدة فى وصفه العذب الجميل ، حينما يستطرد قائلا :

هذا الشاعر الحر العبد ، المقيد ، المطلق ، الملك ، الراعى .. حلم ولكن فى اليقظة لا فى النوم ، رأى نفسه يصعد إلى السماء على طيارة ، أنظر كيف وصفها الشاعر :

هي طير من الجماد كأن الجن في صدرها تحث الخيولا
حمحمت تضرب الرياح بنعليها فشقت إلى السماء سبيلا
ثم مدت إلى النجوم جناحين وجرت على السحاب ذيولا
غرقت في الأصيل حينا وعامت . بعد حين تعلو قليلا قليلا
ترتدى من دخانها بردة الليل ، وتلقى عن منكبيها الأصيلا
وعليها من الشرار نجوم . عقدت حول رأسها إكليلا
حلقى ، حلقى ، وألقى على الأفلاك رعبا وروعة وفضولا

ويواصل الدكتور طه تعليقه الجميل على هذه القصيدة الرائعة بقوله :

(فلم تكد هذه الطائرة ترقى به في الجو حتى أحسته الطير فارتاعت له وائتمرت به ، ثم هجمت عليه لأنها ظنته مستعمرا يريد أن يملك الجو ، كما تعود أن يغير على الأرض . وهل يستطيع الشاعر العربي الشرقي أن ينسى الاستعمار إن أقام في وطنه ؟ أليس لحربه الاستعمار أن هاجر عن وطنه ؟ ولكن الشاعر يؤمن الطير ويأمن إليها ويطلب عندها الراحة من التعب والعناء ، فهو شقى في الأرض ، متعب بما فيها ومن فيها !) .

إلى أن يقول في هذا الوصف الشاعرى الجميل لتلك القصيدة الرائعة :

(ثم ينقطع الحلم ، وتهبط الطائرة إلى الأرض ، وينظر الشاعر فإذا هو قد رد إلى موطن الرق وهوى إلى حيث الشقاء والألم والأذى ، وما شئت مما يجعل حياة الناس تعسا كلها ، وإذا هو لا يجد مغريا ولا معينا إلا قلمه . أليس هو الذى يتلقى عنه وحي الشعر ؟ ... نعم ، ليس للشعراء صديق يعدل رواتهم حين كانوا لا يكتبون . ولولا الأقلام ما عرفنا ــ استغفر الله ــ ما عرف شعراءنا المحدثين ، أحد من هؤلاء الذين سيعرفونهم بعد أن تمضى القرون والقرون . فيرثون لهم ويعطفون عليهم ولعلهم أن يجدوا عندهم مايسر ويرضى ، كما نجد نحن السرور والرضى عند القدماء !) .

لقد كان الدكتور طه حسين متأثرا أصدق التأثر بمأساة الشاعر فوزى المعلوف حينما كتب هذا الحديث ــ استغفر الله ــ بل هذا القصيد .... الرائع ، أوليس الدكتور طه شاعرا ؟ لقد بدأ حياته بالشعر وأحسبه ظل

شاعرا وإن انقطع عن النظم العروضى ، وأحسب أن كلامه هذا عن المعلوف مما يمكن أن يسلك فى عيون شعر الرثاء . ولقد نوه الدكتور طه فى مقاله برثاء الأستاذ على محمود طه للشاعر فوزى المعلوف فى قصيدته (قبر شاعر) التى نشرها الدكتور طه فى نفس العدد من الصحيفة التى نشرت مقاله - استغفر الله مرة أخرى - بل قصيدته الرائعة فى رثاء الشاعر العربى المغترب !

ولقد ظل الدكتور طه شاعرا حتى فى نثره ، بما فيه نقده العنيف ، ولعله كان شاعرا محلقا رائعا فى ترجمته الذاتية (الأيام) ، ولاسيما فى الجزء الأول ، وأذكر أننى أفضيت إليه ذات يوم أثناء عملنا معا باللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية (١) ، بما أشعر به من تفضيلى الجزء الأول من (الأيام) على كل ما أبدعه الدكتور طه حسين من آثار رائعة ، فبادر إلى موافقتى على ما ذهبت إليه .. والواقع أن الدكتور طه حسين هو فى طليعة الكتاب العاطفيين الذين ينفذون إلى أعماق النفوس بأسلوبهم الساحر الصادق الأخاذ ، وهو فى هذا شبيه بالمنفلوطى ، الذى هاجمه فى أول الشباب ، وعنف عليه ، ولكن لعله كان يضمر له فى أعماق روحه حبا وإعجابا عظيمين .. !

وسيظل الدكتور طه حسين ، صاحب الأيام خالدا على المدى بمأساته العظيمة الحزينة ، مأساة ذلك الفتى القروى الفقير الأعمى الذى قاسى أهوال محنة من أفدح المحن ، ولكنه عرف كيف يتغلب عليها ويسمو على آفاتها ويسجل اسمه فى الخالدين !! .

أجل ، لقد كان الدكتور طه حسين شاعرا من أعظم الشعراء فى الجزء الأول من (الأيام) ، ولا ينفى هذا أنه كان شاعرا فى الأجزاء الباقية ، بل فى كل ما خلف من آثار .

وكان إلى جانب ذلك محاضرا جميل الصوت موسيقى النبرة ، يأسر القلوب ويستحوذ عليها بتلك الموسيقى التى عرفت عنه وعرف بها ، والتى

---

(١) تولى الدكتور طه حسين رياسة اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية فى الخمسينات ؛ وكان كاتب هذه السطور وكيل الادارة الثقافية حينذاك ومن أقرب المتصلين به فى ذلك الحفل الثقافى .

أصبحت من خصائصه ومقومات شخصيته الباهرة . وكانت محاضراته مائدة شهية من أشهى موائد الأدب والعلم والثقافة ، وكان فى طليعة المحاضرين الذين يصغى إليهم الناس فى يقظة وانتباه وحب للاستفادة ورغبة فى الاستزادة . ولعل طبيعة تكوينه قد أعانته على ذلك وهيأت له هذه الروعة فى الإلقاء وهذا الانفراد فى الإبداع الالقائى ، وأكاد أقول الخطابى ! فكثير من الأساتذة أولئك الذين نقرأهم ولكن إذا سمعناهم نفرنا منهم وودنا لو أقصروا فى الحديث ، ولكننا إذا قرأناهم استعذبنا أفكارهم وبهرتنا آراؤهم ... ولكن الدكتور طه حسين ظاهرة من ظواهر الطبيعة الخارقة التى نعجب لها أشد الإعجاب وهى تتدفق فى الحديث النثر العذب الجميل ــ المتدفق تدفق النغم الموسيقى الآسر الرخيم !

حدثنى مستشرق انجليزى ذات يوم أنه يفضل أن يسمع الدكتور طه حسين على أن يقرأه ، ولكننى أجبته حينذاك بأنى أحب الدكتور طه متحدثا وكاتبا معا ، ولكن صوت الدكتور طه حسين الذى طالما أصغينا له فى نبرته الساحرة الشاعرة ، قد تلاشى وانتهى ولم يبق لنا منه إلا تلك الأشرطة المسجلة ، فلنحرص عليها حرص اليتيم على درهمه ، فهى ذخيرة من الذخائر الأدبية لهذه الأمة ، فلنبق عليها ولنعمل على إذاعتها على الشباب لكى يفيدوا ويتعلموا منها فهى إلى جانب آثاره الأدبية الرائعة ، جزء من التراث الأدبى الثمين لمصر وللأمة العربية قاطبة .

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٥٦٢٨